

جامعة اليرموك
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم أصول الدين
دكتوراه التفسير وعلوم القرآن

جمع القرآن

في كتاب (تاريخ القرآن) للمستشرق الألماني (نولدكه)
عرض ونقد

**The Compilation Of Quran in the German Orientalist
Noldekes Book "History of Quran"
Presentation and Criticism**

إعداد الطالب: محمد محمود فلاح السواعدة

الرقم الجامعي: ٢٠٠٤٢٥٠٠٠٣

إشراف

الأستاذ الدكتور عبدالله مرحول السواملة: مشرفاً رئيساً

الأستاذ الدكتور محمد خازر المجالي: مشرفاً مشاركاً

(جمع القرآن في كتاب " تاريخ القرآن " للمستشرق الألماني نولدكه - عرض ونقد)

إعداد الطالب
محمد محمود فلاح السواعده

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن في جامعة اليرموك ، اربد - الأردن .

وافق عليها

مشرفاً رئيساً

عبد الله مرحول السوالمه
أستاذ الحديث في كلية الشريعة - جامعة اليرموك

مشرفاً مشاركاً / عضواً

محمد خازر المجالي
أستاذ التفسير في كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

عضواً

شحاده حميدي العمري
أستاذ التفسير في كلية الشريعة - جامعة اليرموك

عضواً

محمد إبراهيم الشافعي
أستاذ التفسير في كلية الشريعة - جامعة اليرموك

عضواً

حسين جابر بني خالد
أستاذ العقيدة في كلية الشريعة - جامعة اليرموك

عضواً

محمد علي الزغول
أستاذ التفسير في كلية الشريعة - جامعة آل البيت

نوقشت بتاريخ
٢٠١٠/٥/١١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ

شَاهِدُونَ ﴿۱﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ

بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿۲﴾

(آل عمران: ۷۰ - ۷۱)

الإهداء

إلى خير خلق الله أجمعين سيدي رسول الله ﷺ.
إلى المنافحين عن حياض الإسلام، والذائدين عن حمى
القرآن.
إلى والديّ اللذين طالما انتظرا ثمرة كسبهما كي ينعما
برؤيتها.
إلى زوجتي التي عانت وأعانت.
إلى أولادي: تسنيم وعاصم ومؤمن ونماء ولين.
إلى روح أختي البكر (أم محمد) التي اختار الله تعالى لها
مرقداً بجوار بيته الحرام علها تبعث ملبية.
إلى إخواني وأخواتي الذين كانوا لي خير عون.
إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع.

شكر وتقدير

الحمد لله والشكر له سبحانه الذي جعل لي من بعد العسر يسراً، ووفقني لإتمام هذا الجهد المبارك، وبعد:

فعملاً بقوله ﷺ: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)^(١)، فإنني في هذا المقام أزجي خالص شكري وتقديري إلى الأستاذين الفاضلين الدكتور عبدالله مرحول السوالمية، والدكتور محمد خازر المجالي، اللذين تكرما بالإشراف على هذه الرسالة، وتفصيلاً عليّ بالنصح والتوجيه والإرشاد، فأدعو الله عز وجل أن ينفع بهما أمة القرآن وأن يبارك لهما في أعمارهما.

كما وأنتقم بالشكر والتقدير إلى الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور شحادة احميدي العمري، والأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الشافعي والأستاذ الدكتور حسين جابر بنى خالد، والأستاذ الدكتور محمد علي الزغول الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة ومراجعتها والتعليق عليها، راجياً من الله تبارك وتعالى قبول جهدهم.

والشكر الخالص للشيخ علي حسن الحلبي الذي أخبر زميلي الأخ مالك حسين شعبان بضرورة الرد على نولدكه في كتابه تاريخ القرآن. والشكر موصول للدكتورة الفاضلة بشرى الحديثي رئيسة قسم الترجمة في جامعة الإسراء لقيامها بترجمة ملخص الدراسة إلى اللغة الإنجليزية، وأيضاً لأصحاب الفضيلة رؤساء قسم أصول الدين السابقين، ولإداريي قسم أصول الدين، وبالأخص محمد ملكاوي ولجميع العاملين في كلية الشريعة على ما أبدوه من تعاون وتسهيل لإجراءات تقديم هذه الدراسة، جزاهم الله تعالى كل خير.

وأشكر زوجتي الدكتورة أم عاصم لما قدمته من جهد مضمن في سبيل التنسيق والترتيب، وللقائمين على موقع مكتبة المهتدين الإلكترونية لمقارنة الأديان، الذين تواصلوا معي عبر (النت) وأمدوني بكل جديد ومفيد، ولموظفي مؤسسة كونراد-أدناور (Konrad-Adenauer-Stiftung) الألمانية الذين سهلوا لي الحصول على نسخة أصلية من كتاب (تاريخ القرآن)، وللأهل والأقارب والأصدقاء على دعمهم وتشجيعهم لي، ولكل من أسهم وأعان في إتمام هذا الجهد المبارك، جزى الله -تعالى- الجميع عني خير الجزاء.

^١ - أخرجه أحمد في مسنده برقم: ١١٧٠٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢ - ١٩٩٩. قال الهيثمي: رواه كنه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي، كتاب البرّ والصلة، باب شكر المعروف ومكافأة فاعله.

(تاريخ القرآن)، وللأهل والأقارب والأصدقاء على دعمهم وتشجيعهم لي، ولكل من أسهم وأعان في إتمام هذا الجهد المبارك، جزى الله -تعالى- الجميع عني خير الجزاء.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	المحتوى	الرقم المتسلسل
أ	قرار لجنة المناقشة	١
ب	الإهداء	٢
ج	شكر وتقدير	٣
د	فهرس المحتويات	٤
ح	الملخص باللغة العربية	٥
١	أولاً: المقدمة	٦
٦	ثانياً: أهمية الدراسة	٧
٧	ثالثاً: مشكلة الدراسة	٨
٧	رابعاً: حدود الدراسة	٩
٧	خامساً: أهداف الدراسة	١٠
١٣	سادساً: الدراسات السابقة	١١
١٣	سابعاً: منهج الدراسة	١٢
١٦	المخطط	١٣
١٦	مدخل: الاستشراق ومدارسه .	١٤
١٨	أولاً: مفهوم الاستشراق	١٥
٧٦-٢٠	ثانياً: مدارس الاستشراق	١٦
٢١	الفصل الأول المستشرقون وجمع القرآن	١٧
٢٣	المبحث الأول: مصادر المستشرقين وبواعثهم وأهدافهم.	١٨
٢٣	المطلب الأول : مصادر المستشرقين في دراسة جمع القرآن	١٩
٢٦	الفرع الأول: منهج المستشرقين في اختيار مصادر دراساتهم	٢٠
٢٨	الفرع الثاني: نموذج توضيحي من مصادر المستشرقين في جمع القرآن	٢٨
٢٩	الفرع الثالث: مصادر تولدكه في جمع القرآن	٢١
٢٩	السيرة النبوية	٢٢
٣٠	الحديث	٢٣

٢٤	سيرة الصحابة ﷺ	٣٠
٢٥	التفسير	٣١
٢٦	المطلب الثاني: بواغث اهتمام المستشرقين بجمع القرآن	٣٤
٢٧	المطلب الثالث: أهداف المستشرقين من دراسة جمع القرآن	٣٧
٢٨	المبحث الثاني: عناية الاستشراق الألماني بالدراسات القرآنية	٣٧
٢٩	المطلب الأول: نشأة الاستشراق الألماني وأشهر مستشرقيه .	٣٧
٣٠	الفرع الأول: نشأة الاستشراق الألماني	٤٢
٣١	الفرع الثاني: أشهر المستشرقين الألمان	٤٤
٣٢	المطلب الثاني: جهود المستشرقين الألمان في دراسة القرآن الكريم وجمعه.	٥٠
٣٣	المبحث الثالث: التعريف بـ (نولدكه) وكتابه (تاريخ القرآن).	٥٠
٣٤	المطلب الأول: التعريف بـ (نولدكه)	٥٠
٣٥	الفرع الأول: جانب من حياته	٥١
٣٦	الفرع الثاني: سيرته العلمية	٥٣
٣٧	الفرع الثالث: أعمال نولدكه وآثاره	٥٥
٣٨	المطلب الثاني: مكانة نولدكه في الاستشراق الألماني	٥٦
٣٩	المطلب الثالث: التعريف بكتاب (تاريخ القرآن)	٥٩
٤٠	المطلب الرابع: منهج نولدكه في دراسته	٥٩
٤١	الفرع الأول: منهجه العام	٦٦
٤٢	الفرع الثاني: جوانب تحسب له الفرع الثاني: جوانب تحسب له	١٤٣-٧١
٤٣	الفصل الثاني موقف نولدكه من جمع القرآن	٧٣
٤٤	المبحث الأول: جمع القرآن في زمن النبي ﷺ	٧٣
٤٥	المطلب الأول: دعوى تصرف النبي ﷺ في القرآن الكريم.	٧٣
٤٦	الفرع الأول: ردّ دعوى تصرف النبي ﷺ في القرآن.	٨٠
٤٧	الفرع الثاني: قصة ابن أبي السرح	٨٥
٤٨	الفرع الثالث: سؤال ابن أم مكتوم	٨٧
٨٧	الفرع الرابع: ردّ دعوى أن القرآن مستمد من اليهودية والنصرانية.	٨٧
٨٩	الفرع الأول: قصة موت الرسول	٨٩

٤٩	الفرع الثاني: دعوى اعتماد القرآن الكريم على اليهودية والنصرانية	٩١
٥٠	المطلب الثاني: دعوى نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن الكريم	٩٢
٥١	الفرع الأول: آية سورة البقرة	٩٤
٥٢	الفرع الثاني: آية سورة الأعلى	٩٥
٥٣	الفرع الثالث: الحديث	٩٨
٥٤	المطلب الثالث: دعوى حول تدوين القرآن وحفظه في عهد الرسول ﷺ	٩٨
٥٥	الفرع الأول: تدوين القرآن الكريم	١٠١
٥٦	الفرع الثاني: عدد جامعي القرآن	١٠٥
٥٧	المطلب الرابع: دعوى عدم اهتمام النبي ﷺ بالقرآن الكريم	١٠٩
٥٨	المبحث الثاني: جمع القرآن في زمن أبي بكر ﷺ	١٠٩
٥٩	المطلب الأول: دعوى أن الجامع الأول هو عمر ﷺ	١١٢
٦٠	المطلب الثاني: دعوى نولده حول موقعة اليمامة	١١٥
٦١	المطلب الثالث: دعاوى نولده حول مصاحف الصحابة ﷺ	١١٥
٦٢	الفرع الأول: اختلاف مصاحف الصحابة ﷺ	١١٨
٦٣	الفرع الثاني: مصحف ابن مسعود ﷺ.	١٢٤
٦٤	الفرع الثالث: مصحف أبي ﷺ.	١٢٧
٦٥	المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ	١٢٧
٦٦	المطلب الأول: دعوى إجراءات عثمان ﷺ السلطوية في الجمع	١٣٢
٦٧	المطلب الثاني: نقد دعوى تحريف عثمان للمصحف	١٣٧
٦٨	المطلب الثالث: شبه متفرقة حول الجمع العثماني ونقدها	١٣٧
٦٩	الفرع الأول: دعوى تحيز عثمان ﷺ لأقاربه	١٣٨
٧٠	الفرع الثاني: أعضاء لجنة الجمع	١٤١
٧١	الفرع الثالث: لفظ (تابوت):	٢٠٦-١٤٤
٧٢	الفصل الثالث	١٤٥
	شبهات حول علوم تتعلق بجمع القرآن	
٧٣	المبحث الأول: ترتيب القرآن والحروف المقطعة عند نولده	١٤٥
٧٥	المطلب الأول: دعوى نولده حول ترتيب القرآن الكريم	١٥٢
٧٦	المطلب الثاني: دعوى نولده في الحروف المقطعة	١٦١
٧٧	المفسرون والحروف المقطعة	١٦٥

١٦٩	نظرية هرشفيلد ولوت في الحروف المقطعة	٧٨
١٦٩	المبحث الثاني شبهات منفرقة حول جمع القرآن الكريم	٧٩
١٧٣	المطلب الأول: موقف نولدكه من روايات جمع القرآن	٨٠
١٧٣	المطلب الثاني: موقف نولدكه من الصحابة ؓ.	٨١
١٧٤	الفرع الأول: الخلفاء الراشدون	٨٢
١٧٦	الفرع الثاني: زيد بن ثابت ؓ:	٨٣
١٧٨	الفرع الثالث: أم المؤمنين عائشة ؓ	٨٤
١٧٩	الفرع الرابع: ابن عباس ؓ	٨٥
١٨١	الفرع الخامس: أبو هريرة ؓ	٨٦
١٨٣	الفرع السادس: أنس بن مالك ؓ	٨٧
١٨٤	المطلب الثالث: دعوى نولدكه في خرافة جمع القرآن الكريم وتحريفه	٨٨
١٨٥	الفرع الأول: إرهابيات بعثته ﷺ	٨٩
١٨٨	الفرع الثاني: دعوى الخرافة في الجمع	٩٠
١٩٠	الفرع الثالث: الغموض والشك	٩١
١٩٠	المسألة الأولى: لفظ فلاناً في سورة الفرقان	٩٢
١٩٣	المسألة الثانية: اللطف مع زيد والعنف مع أبي لهب	٩٣
١٩٣	الفرع الرابع: سورة النورين المدعاة	٩٤
١٩٥	الفرع الخامس: دعوى تحريف سورة الأحزاب	٩٥
١٩٧	الفرع السادس: البسمة وسبب تجرد براءة منها	٩٦
١٩٩	الفرع السابع: مصحف أبي ؓ	٩٧
٢٠١	الفرع الثامن: سبب نزول آية الأحقاف	٩٨
٢٥٢-٢٠٧	الفرع التاسع: دعاوى حول معجزة الإسراء	٩٩
٢٠٧	الفصل الرابع ملحق كتاب نولدكه، وأثره فيمن جاء بعده في جمع القرآن.	١٠٠
٢٠٧	المبحث الأول: المصادر المحمدية	١٠١
٢٠٨	المطلب الأول: أنب الحديث	١٠٢
٢٠٩	الفرع الأول: صحيح البخاري رحمه الله تعالى	١٠٣
٢١٢	الفرع الثاني: الإمام أحمد ومسنده	١٠٥
٢١٦	المطلب الثاني: سيرة النبي ﷺ:	١٠٦

٢١٧	المطلب الثالث: سلسلة الإسناد عند المسلمين.	١٠٧
٢١٩	الفرع الأول: أسباب اهتمام المسلمين بالإسناد	١٠٨
٢٢٣	الفرع الثاني: دعوى إهمال المحدثين لنقد المتن	١٠٩
٢٢٤	الفرع الثالث: أقسام الحديث	١١٠
٢٢٧	المطلب الرابع: دعوى تولدكه حول الشعر الجاهلي واللغة السريانية	١١١
٢٢٨	المبحث الثاني: أثر تولدكه فيمن جاء بعده.	١١٢
٢٣١	المطلب الأول: بعض المستشرقين المتأثرين بتولدكه	١١٣
٢٣١	المطلب الثاني: أثر تولدكه في المستشرقين	١١٤
٢٢١	الفرع الأول: وقائع جمع القرآن	١١٥
٢٣٦	الفرع الثاني: ترتيب القرآن	١١٦
٢٣٧	الفرع الثالث: روايات جمع القرآن	١١٧
٢٣٧	المطلب الثالث: أثره في غير المستشرقين.	١١٨
٢٤٣	الفرع الأول: المتأثرون بالغرب وخطرهم.	١١٩
٢٤٣	الفرع الثاني: ما تأثر به المستغربون بتولدكه في جمع القرآن الكريم.	١٢٠
٢٤٤	١- وقائع الجمع	١٢١
٢٤٤	ب- ترتيب القرآن	١٢٢
٢٤٥	ج- الحروف المقطعة	١٢٣
٢٤٨	د- الرمي بالأساطير والتحريف	١٢٤
٢٤٨	الخاتمة	١٢٥
٢٥١	١- النتائج	١٢٦
٢٥٣-٢٥٣	ب - التوصيات	١٢٧
٢٩٢-269	المراجع	١٢٨
٢٩٣	ملخص	١٢٩
	الجزء الثاني من كتاب تولدكه (القرآن) ص(٢٣٧-٤٢٩)	
٣٠٠	فهرس الآيات الواردة بالأطروحة	١٣٠
٣٠٢	فهرس المصطلحات الواردة في الجزء الثاني من كتاب تاريخ القرآن لتولدكه	١٣١
	ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية	

ملخص الرسالة باللغة العربية

هدفت هذه الدراسة المعنونة بـ جمع القرآن في كتاب (تاريخ القرآن) للمستشرق الألماني (نولدكه) "عرض ونقد" إلى عرض موضوعات جمع القرآن الكريم في كتاب (تاريخ القرآن) للمستشرق (نولدكه) ثم نقدها بأسلوب علمي وموضوعي يكشف عن حقيقتها، ويبين ملامحها وأهدافها، وقد اقتضى المنهج تقسيمها إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة. وفي هذا الإطار بينت الدراسة مفهوم مصطلح جمع القرآن الكريم عند المسلمين، لأنه بالعلم السليم به يمكن الحكم على صحة أو فسادها ما لدى المستشرقين وغيرهم من تقريرات واستنتاجات.

رتأتي أهمية هذه الدراسة من خلال مكانة كتاب نولدكه لدى المستشرقين، الذي بدوره انعكس على المدرسة الألمانية بشكل خاص، حيث تبنت الدراسة الميل إلى القول: بتميز الاستشراق الألماني في مجال الدراسات القرآنية من سائر المدارس الأخرى، مع وجود الانساق العام في الدوافع والأهداف والوسائل.

وقد تناولت الدراسة بالعرض والنقد المسائل الآتية:

— موقف الكاتب من وقائع جمع القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ، وفي زمن أبي بكر وعثمان ؓ.

— موقفه من بعض المسائل المتعلقة بجمع القرآن الكريم وتدوينه، كترتيب آيات القرآن وسوره، والحروف المقطعة أوائل بعض السور، وروايات جمع القرآن وادعاء تحريف نصوصه ورميه بالخرافة والأسطورة، حيث تتبعت الدراسة شبهات الكاتب المتعلقة بكل هذه المسائل وعملت على إبطالها.

— أثر نولدكه فيمن جاء بعده من المستشرقين والمستغربين في جمع القرآن الكريم.

وفي مجال التعليق على ما يخص الكاتب من إطراء المعجبين، خلصت الدراسة إلى أن له مكانة خاصة لدى دوائر الاستشراق جميعها، ولكنه لا يستحقها من وجهة النظر الإسلامية لما أبداه من تقريرات لا تتفق وأصول البحث العلمي المتجرد، حيث كشفت عن مساحات واسعة من التجني والتقول وتزوير الحقائق المتعمد. وأخيراً ختمت الدراسة ببعض النتائج والتوصيات ذات الصلة بموضوع البحث.

أولاً، المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم، وجعله معجزة خالدة وهدى ورحمة للعالمين؛ ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم. ولا يخفى شأن هذا القرآن ومكانته في نفوس المؤمنين به والمستمسكين بهديه، فلقد قدر الله لهذا الكتاب أن يبقى محفوظاً بعيداً عن العبث والتحريف كما قال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فهياً له أسباب الحفظ، وسخر له من هذه الأمة من وعاه في الصدور ونقشه في السطور، بل تعدى ذلك الاهتمام إلى علوم تتعلق بالقرآن كالتفسير وأسباب النزول والمحكم والمتشابه... وغيرها.

ومنذ أن نزل القرآن ودوى صوته في ربوع العالمين وأعداؤه يكيلون له الشبهات، ويدبرون له المكائد، ويتربصون به الدوائر، فوجهوا إليه سهام مطاعنهم وسمومهم، ووصفوه بأنه شعر وسحر، وبأنه أساطير الأولين، وبأنه إفك مقترى، وقد سجل الوحي كل هذه الأباطيل والافتراءات ودحضها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوعٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اسْطِيزِرُوا الْأُولَىٰ أَكْتَبْتَهَا فِيهِ نَسْنَنٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَسِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّا نَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا يَتَنَتَّىٰ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَانَ يُبَدِّئُكُمْ وَأَقْرَبُكُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكُ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّمَّا جَاءَهُمْ مِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

فإثارة الشبهات حول القرآن الكريم ليست مسألة جديدة، وإنما هي قديمة منذ فجر الإسلام، ثم إن القرآن الكريم قد عم ذكره في الآفاق، فاشتغل به مفكرو العالم تعلماً وتعليماً ورفضاً وتأبيداً ونقداً ومعارضة... إلى غير ذلك من أشكال مواقف الناس تجاهه منذ لحظة نزوله إلى اليوم، فالاشتغال بالقرآن على أي وجه كان يحسب له لا عليه، ولعلي لا أجافي الحقيقة إن قلت بأن دراسة القرآن من قبل من لا يؤمن به تعدّ مظهرأ من مظاهر إعجازه، أو من دواعي إكباره وإجلاله.

ويأتي ضمن هذا الإطار كتاب "تاريخ القرآن"^(١) للمستشرق نولدكه، الذي وضع أصلاً للكورويين لا للمسلمين، ولكن جذت أمور على الساحة المعاصرة تستدعي ضرورة العمل للوقوف على مضمون الكتاب، وإبداء الملاحظات حوله ووضعها في الميزان، فبعد الترجمة الأخيرة له^(٢)، وتقدم الاتصالات وسرعتها، فقد أصبح الكتاب اليوم في متناول أبناء المسلمين، بالإضافة إلى تباين المواقف الرسمية والشخصية تجاهه، وما يحمله هذا الكتاب في طياته من قراءات جديدة أنتت إلى تحريف المعاني القرآنية، وتناقضها مع الحقائق الشرعية، وتعارضها مع مقاصد الشريعة الإسلامية، ومرد ذلك في المحصلة النهائية هو عدم احترامها لخصوصيات القرآن الكريم، ومعاملته كسائر النصوص البشرية، ثم إن الساحة العالمية قد انشغلت أمداً غير قليل بمسألة (تاريخية القرآن)، وتندرت بمناهج لغوية وتاريخية على طريقة (نولدكه) تقتضي قياس القرآن بموازين إنسانية باعتبار أنه إنتاج وضعي بشري.

وقد أثار الكتاب حول القرآن الكريم شبهات كثيرة بقصد التشكيك والتضليل، سواء من حيث مصدره أو صحة نصه أو من حيث تعداد القراءات فيه أو سلامة تفسيره، ومن حق المسلمين أن يتناولوا أعمال المستشرقين بالتحليل والنقد وأن يردوا مطاعنهم على الإسلام ورسوله وكتابه، وأن يقوموا بالكشف عن أغراضهم الدفينة والخفية التي تخفي نزعاتهم الاستعمارية المتأصلة.

والأهم في موضوع الدراسات القرآنية الاستشراقية بشكل عام أنها جلبت إلى العالم الإسلامي مناهج جديدة في دراسة القرآن الكريم، وقدمت خدمات متنوعة في مجالات متعددة لا سيما الفهرسة والتوثيق، ولكنها في المقابل أيضاً جلبت معها كثيراً من الإشكالات والتفسيرات الغربية، بل و"المطاعن" الجديدة في القرآن، وقد كان لذلك كله أثراً مهماً في تحفيز الدراسات القرآنية الحديثة من جهة، وتوسيع ميادين البحث والتشويه من جهة أخرى، فقد قاموا بدراساتهم وهم يحملون مقررات سابقة، ونتائج جاهزة.

^١ - متعمد الدراسة على طبعة بيروت: كونراد- أنانور، ط١، ١٦، ٢٠٠٤.

^٢ - وهي ترجمة: جورج تامر التي بين يدي. وسمعت بأن الأستاذ لطفي العالم منهمك منذ وقت بعمل ترجمة لهذا الكتاب، وقد انتظرها كثير من عشاق الحقيقة وأمل أن ترى النور قريباً، وقيل إن الباحث المصري رضا محمد حسين يقوم الآن بترجمة للكتاب.

لقد ولدت هذه الطبعة المترجمة من كتاب (تاريخ القرآن) والجو مشحونٌ بكثير من الكتابات شكلاً ومضموناً، وليبدأ فصل جديد منها ليس هو الأخير، ففي الساحة الثقافية أدياءٌ كثيرون يخوضون في القرآن وعلومه بغير علم ولا هدى ولا كتابٍ منير، يريدون أن يطفنوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يُنمَّ نوره، كل ذلك جعل خوض غمار هذا البحر المتلاطم أمراً لا مفرّ منه.

لكن هذه الدراسة لا تهدف عن طريق التذكير بحقائق افتراءات الغرب القديمة على القرآن الكريم تأجيج الكراهية للإنسان الغربي، ولا إقامة القطيعة مع الحضارة الغربية، وإنما تشخيص الداء للبحث عن الدواء، وفي تقديري إن النقد العلمي للاستشراق يخدم المعرفة والحوار الحضاري، وإن وجود كثير من الأكاذيب والافتراءات ضد الإسلام في المخزون الثقافي الغربي لا يعني إدانة الإنسان الغربي، بل هو ضحية هذه الافتراءات، ويعدّ الاستشراق مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن عمليات الاعتداء المتواصل على الإسلام وثقافته وكل ما يتصل به، لأنه حجب نور القرآن عن شعوبه.

هذا وقد قمت أنا واثنان من زملائي في القسم بالتصدي لهذا الكتاب الخطير ونقده نقداً موضوعياً علمياً يكشف عن حقيقته، ويبين ما له وما عليه من أجل القيام بواجب المناقحة عن الدين، وقد شرف الباحث بأن يكون واحداً من هؤلاء، وأن يكون عنوان دراسته: جمع القرآن في كتاب (تاريخ القرآن) للمستشرق الألماني (نولدكه) "عرض ونقد".

هذا، وإن لكتاب نولدكه قصة طويلة سنعرض لها أثناء الصفحات القادمة، لكن ما هو جدير بالتصريح الآن هو أن وقائع إعادة طباعة الكتاب تبدي استياءً مؤكداً لنولدكه من هذا الكتاب كلاً أو جزءاً، فبعد أن انتهى شفالي من تعديل الطبعة الثانية قدم نولدكه لها معترفاً بأن السلبات الفكرية مازالت على حالها، وأن إصدار الأحكام من غير ترو يعدّ صبغة عامة ولم يطرأ عليها تغير يذكر في تعديل الكتاب، فهو يقول: "وقد قام بقدر الإمكان بجعل الكتاب الذي أنجزته بسرعة قبل نصف قرن مراعيًا المستلزمات الحاضرة، أقول بقدر الإمكان لأن آثار الوقاحة الصبانية لن يمكن محوها بالكلية من دون أن يعاد تأليف الكتاب من جديد"⁽¹⁾. وبدا له أيضاً أن صحة كثير مما ضمنه في الكتاب غير مؤكدة، فيقول:

1 - نولدكه، تاريخ القرآن، ص xxx1.

الوقاحة الصببانية لن يمكن محوها بالكلية من دون أن يعاد تأليف الكتاب من جديد^(١). وبدا له أيضاً أن صحة كثير مما ضمنه في الكتاب غير مؤكدة، فيقول:

"بعض ما قلته حينذاك بقليل أو كثير من الثقة انعدمت تقني به لاحقاً"^(٢). وهذا موقف شجاع منه واعتراف يُحسب له، وحبذا لو أتبعه بالإعلان الواضح بتراجعته عن كثير من تقاريره، إذن لأراح واستراح.

وبالإجمال فإن هذا الكتاب يعدّ أحد الحلقات الرئيسية في سلسلة الفكر الاستشراقي المبكر في الحكم على مسائل جمع القرآن وتدوينه، كما أنه لقي ثناءً مفرطاً من بعض المسلمين، فوسم بحياديته وتجرده وعدم تجنيه على الإسلام أو القرآن، وكان الشيخ أمين الخولي أستاذ البلاغة والنقد في الجامعة المصرية قد أبدى إعجابه بالكتاب، وصرح بعزمه على ترجمته إلى العربية.

وتأتي هذه الدراسة لتقدم قراءة جديدة لمسلسل العداء الغربي للإسلام، ولتكون إسهاماً فعلياً في ميدان الدعوة والدفاع عن الدين، لذا تشجعت لخوض غمار هذا البحر العميق، فلبثت ما يقارب أربعة أعوام مستمرة أجمع ما تناثر من أطرافها، وأردت ما نذرت من أوبدها، فلم تنقد لي بيسر وسهولة، لأنه مع ما تزخر به المكتبة الإسلامية من جهد عظيم في هذا المجال، إلا أن أغلب ما يتصل بهذا الموضوع، وخاصة في جانب الأبحاث والدوريات كان يعود إلى مصادر أجنبية غير مترجمة، مما احتاج مني وقتاً أطول وجهداً أكبر.

وبعد، فهذا ما يسره الله لي وأعانني عليه، ولعلي أكون قد أدت جزءاً من واجبي في المنفعة عن هذا الدين، ورد كيد الطاعنين، ووفقت في التحذير من بعض الأخطاء المنهجية التي وقع فيها المؤلف في دراسته للقرآن الكريم، وحسبي أنني قد بذلت في هذا البحث ما يسره الله لي من جهد، فهو تعالى حسبي ومنه استمد العون والتوفيق، والحمد لله أولاً وأخراً.

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص xxx1.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص xxx1.

ثانياً: أهمية الدراسة

تتلخص أهمية هذه الدراسة في الآتي:

- ١- تعد دوائر الاستشراق البويرة الأساس التي تفرعت عنها تيارات متعددة ومذاهب مختلفة تثير الشبهات والشكوك حول القرآن الكريم وعلومه، كتيار المستغربين والحدائين، فإذا أمكن التصدي لشبهاتهم من أساسها؛ سهل حينئذ رد سائرهما ونقضه.
- ٢- شهرة كتاب نولدكه ومكانته لدى المستشرقين، لذا فإن ثلاثة من العلماء الألمان قد قاموا على خدمته وعملوا على تحقيقه ومعالجته ونشره، هم: شفالي وبرجشتراسر، وبريتسل، كما أنه تضمن آراءً يخالف فيها بعض المستشرقين السابقين له.
- ٣- سعة اطلاع المستشرق الألماني (نيودور نولدكه) وتخصصه وطول نفسه في البحث والكتابة.
- ٤- طبيعة الموضوعات التي احتواها كتاب (تاريخ القرآن) وأهميتها عند المسلمين والمستشرقين على السواء كل من زاويته.
- ٥- أن المستشرق نولدكه ذو مكانة عالمية مرموقة عند المستشرقين، ولا أدل على ذلك من إسناد المستشرقين الإنجليز إليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين في (دائرة المعارف البريطانية) و (دائرة معارف الكتاب المقدس)^(١). فلا تكاد تجد باحثاً مختصاً في مجال الدراسات القرآنية في الغرب لا يرجع إليه.
- ٦- أن المستشرق نولدكه نشر كتابه (تاريخ القرآن) عام ١٨٦٠م، وهذا الكتاب يعدُّ من جانب المستشرقين أساساً هاماً للأبحاث التي جاءت بعده في مسائل دقيقة تخص القرآن، وقد أعيد طبع الكتاب عام ١٩٣٨م على يد (غوتهلغ برغشترسر) وغيره بعد تنقيحه واستكمالها، وبقي الكتاب بلغته الأصلية (الألمانية) ولم يترجم إلى العربية ترجمة معتبرة لدى المهتمين إلا في نهاية عام ٢٠٠٤م بدعم من مؤسسة (كونراد أيناور). وهي الترجمة العربية، التي حقَّقها (جورج تامر)^(٢) مع فريق عمل من أربعة أشخاص، وهو كتاب موسوعي ضخم، مؤلف من (٨٤١) صفحة.

^١- ينظر: المستشرقون الألمان، صلاح الدين المنجد (ص ١٢٣) ناقلاً عن الأستاذ الدكتور/فؤاد حسنين.

^٢- ولد جورج تامر في كفرحزير ببلنات عام (١٩٦٠) درس الفلسفة بفرانكفورت وبرلين، حيث حصل على الدكتوراه فيها، وهو يعمل حالياً أستاذاً بجامعة إرنغن نورنبرغ، أصدر بالألمانية كتاب: الفلسفة الإسلامية وأزمة الحداثة، وصدر له عن دار النهار ببيروت ترجمة لمختاراتٍ من مقالات بورغن هابرماس بعنوان:

7- انخداع بعض الباحثين المسلمين ببعض آراء نولدكه المتعلقة بجمع القرآن.

8- ضرورة الوقوف على آرائه مباشرة بلا واسطة أحد من المستشرقين الذين نقلوا بعض آرائه بفضل توفر الترجمة العربية؛ وقد نعى كثير من الباحثين عدم ترجمة هذا الكتاب حتى يُنظر فيه، ويوزن بميزان النقد العلمي؛ فمن ذلك ما قاله صاحب كتاب (الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية): "ولا ننسى في هذا المقام (تيودور نولدكه) الذي عالج فيه هذا الموضوع الحساس بمنهجية لم يسبقه فيها أحد، بحيث يعتبر بحق واضع أسس البحث العلمي للدراسات القرآنية التي جاءت بعده"^(١).

وقال: "قالبنسبة للمصادر التي تتناول هذه المواضيع فإن أغلبها قد دَبَّجه أصحابها بلغاتهم الأصلية، خاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم الذي تناول أغلب موضوعاته المستشرقون الألمان وخاصة الأستاذ (نولدكه)، ونحن نجهل هذه اللغة أصلاً، ولم تسعفنا بحوثنا عن إيجاد ترجمة لهذه الدراسات إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية التي نستطيع استخدامها في بحوثنا، وهذا نقص علمي واضح لا سبيل لنا إلى إنكاره، وهو يجسد عائقاً جدياً أمامنا"^(٢).

9- عدم توفر دراسة متخصصة-حسب علم الباحث- لنقد وتقويم مسألة جمع القرآن في كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه.

فهذا كله يعدّ من جوانب أهمية الدراسة وضرورتها.

ثالثاً: مشكلة الدراسة

تعدّ مسألة جمع القرآن هدفاً رئيساً سعى المستشرقون عن طريقها للنيل من القرآن الكريم من أجل تشويه حقائق الإسلام عامة، وهي من المسائل الخطيرة التي استغلها المستشرقون لمحاولة إثبات تسرب الخلل والتحريف إليه، كما أن منحى نولدكه في اختيار وقائع

(الحدائث وخطابها السياسي) (٢٠٠٢)، كما قام بالاشتراك مع آخرين بترجمة لكتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، وله العديد من المقالات والدراسات الفلسفية.

١ - الحاج. ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، بيروت- دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢، ص ٢٩٩.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٠٠.

السيرة النبوية والأحداث التاريخية واعتبارها ميداناً لمناقشة مسألة جمع القرآن ومدى سلامته،
بحاج كل ذلك لدراسة متخصصة ونظرة متأنية.

وقد شدني ذلك كله لأقوم بواجب المناقحة عن كتاب الله تعالى، لأن الدفاع عن كتاب الله
تعالى والذود عن حماه مسؤولية كل مسلم وواجب حتمي ضمن القدرة والتخصص والإمكانات
المتاحة.

لذا ستركز الدراسة الحالية حول عرض كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني نولدكه
ثم نقده بأسلوب علمي.

رابعاً: حدود الدراسة

تتضح حدود الدراسة من خلال عنوان الأطروحة وهو جمع القرآن في كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق نولدكه، عرض ونقد، ولذا فإن هذه الدراسة ستتحدد بالاقتنار على ما يأتي :

- ١- تناول ما يتعلق بجمع القرآن في كتاب تاريخ القرآن كاملاً، ثم عرضه ونقده .
- ٢- رصد بعض الدراسات المتعلقة بجمع القرآن عند المستشرقين .

خامساً: أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

- ١- عرض الشبهات التي أثارها المستشرق نولدكه في كتابه تاريخ القرآن بأمانة بالغة.
- ٢- نقد الشبهات التي أثارها المستشرق نولدكه في كتابه تاريخ القرآن نقداً علمياً
موضوعياً.

سادساً: الدراسات السابقة

ليس هناك دراسة -حسب علم الباحث- خصصت للرد على الشبهات التي أثارها نولدكه في
كتابه (تاريخ القرآن) واقتصرت على مسألة جمع القرآن وتدوينه، ولكن هناك عدد من
الدراسات إما أن تكون قد تصدت لجوانب مختلفة من الكتاب، وإما أن تكون قد تصدت
لموضوعات جمع القرآن في دراسات المستشرقين بشكل عام، لذا يمكن تناول الدراسات السابقة
من جانبين:

- الجانب الأول: دراسات مباشرة، وهي الدراسات التي تناولت كتاب نولدكه أو جزءاً منه

بالعرض والنقد، ويوجد في هذا الجانب دراسات كالاتي:

١- كتاب (جولة في كتاب نولدكه تاريخ القرآن) الجزء الأول، للمحامي د. أحمد عمران الزاوي، قدم له العماد أول مصطفى طلاس، دار طلاس للنشر- دمشق، ط١-٢٠٠٩، وقع في يدي الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي نشر للتو بعد أن أنهيت كتابة هذه الرسالة، لذا لم أتمكن من تضمين نتائجها في أطروحتي.

وبالجملة فقد جاء الكتاب مشتملاً على القسمين الثاني (جمع القرآن) والثالث (نص القرآن)، وبعد تفحصه وجدت أن أسلوب هذا الكتاب عام وضعه مؤلفه للرد على كتاب نولدكه كاملاً، فهو لم يول موضوعات جمع القرآن تركيزاً خاصاً، وعلى الرغم من أن المؤلف كما يظهر من عرضه لمادة الكتاب قد اظهر قدرة ليس بها باس في مجال مقارنة الأديان وخفايا الكتاب المقدس تذكر له، أقول على الرغم من كل ذلك إلا أن ملامح عدم التخصص الشرعي الذي بدت دراسته مفتقرة إليه وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه قد ظهرت واضحة جلية للعيان، فنظرته إلى المسائل لم تكن نظرة متخصصة في القرآن أو علومه وتاريخه.

٢- (شبهات حول العقيدة الإسلامية.. دراسات تحليلية نقدية.. القسم الأول من كتاب تاريخ القرآن لتيودور نولدكه) للباحث المصري: رضا محمد حسين الدقيقي، المدرس المساعد بكلية أصول الدين بطنطا. إشراف الدكتور: محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف المصري، وشارك في الإشراف والمناقشة المستشرق الألماني الدكتور: تليمان ناجل وهو مدير لمعهد الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة نوتجن الألمانية.

وقد أعدت هذه الدراسة تحضيراً لندوة رسالة القرآن الكريم في حفل تداول (مصحف قطر) حيث قامت لجنة إحياء التراث الإسلامي والنشر العلمي بقطر بنشرها ولم توزع إلى الآن.

وقد قسم الباحث كتابه إلى ثلاثة أقسام خرجت في ثلاثة مجلدات كالاتي:

١ - الوحي إلى محمد ﷺ بين الإنكار والتفسير النفسي.

٢ - الوحي إلى محمد ﷺ هل هو صوت داخلي .

٣ - النبي ﷺ والمرجعية هل ثمة تحول.

فهذه الدراسة إذن لم تتطرق لموضوعات جمع القرآن الكريم وتدوينه، فهي تناقش القسم الأول من كتاب نولدكه، هذا أولاً، ثم إنها انطلقت من زاوية عقديّة ليس إلا ثانياً، لذا يقول الباحث رضا الدقيقي في مقدمته للأطروحة: "ولأكون أميناً مع نفسي كما علمني الإسلام؛ فأبي أبين أنني أفعل ذلك في المقام الأول بهدف النقاش الهادئ والموضوعي للقضايا التي أثارها نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن) بشأن العقيدة الإسلامية"^١.

- الجانب الثاني: دراسات غير مباشرة، وهي تلك الدراسات التي تناولت بعض شبهات المستشرقين المتصلة بوقائع جمع القرآن وتدوينه كالاتي:

١- (جمع القرآن في مراحل التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث)، محمد شرعي، رسالة ماجستير، تناولت هذه الدراسة في مبحثين منها رد الشبهات المثارة حول جمع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما للقرآن الكريم بشكل عام، فهي لم تخص شبهات (كتاب نولدكه) أو غيره من المستشرقين،

٢- (آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دراسة ونقد)، عمر بن إبراهيم رضوان، أصل هذا الكتاب رسالة علمية نال بها الباحث درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إشراف مصطفى مسلم، وهو مطبوع في مجلدين، الناشر دار طيبة، تناول الكاتب في الفصل الثالث شبهات المستشرقين حول جمع القرآن، مبيناً شبهاتهم في كل مرحلة من مراحل الجمع القرآني، ومع ذلك لم يستوف هذا الكتاب كثيراً من المسائل المطروحة في كتاب نولدكه في باب الجمع، كما أنه تعرض لمسائل لم ترد عنده أيضاً.

٣- (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن، ورد شبهات) فضل حسن عباس، دار الفتح، ط 1 سنة ٢٠٠٠، تطرق لمسألة جمع القرآن في أكثر من موضع، كما أنه عقد القضية الأولى من الفصل الأول والقضية الأولى من الفصل الخامس لموضوع رد شبهات المستشرقين حول جمع القرآن، وهناك اختلاف كبير في طبيعة غالب هذه الشبهات عما نحن بصده في هذه الدراسة.

^١ - جريدة العرب القطرية، العدد: ٧٩٣٠، السبت ٢٧/٢/٢٠١٠م، ص ٦. مع العلم بأن الكتاب لم يصل إلى المكتبات إلى الآن.

٤- (الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية) ، للدكتور ساسي سالم الحاج، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، ط1، ١٩٩١م ، حيث عقد المبحث الرابع من الفصل الأول لجمع القرآن وترتيبه وكتابه ورسمه.

٥- (القرآن والمستشرقون) للنهامي نقرة، رئيس قسم القرآن الكريم / كلية الزيتونة، المطبوع ضمن كتاب "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية" صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب الدول العربية لدول الخليج، إذ تطرق للرد على المستشرقين في مسألة جمع القرآن ونسخه، تحت عنوان الوثوق بصحة النص القرآني .

٦- (المستشرقون والقرآن الكريم) محمد أمين حسن بني عامر، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن-إربد، ط:١، ٢٠٠٤م. عرض في (المبحث الثالث من الفصل الثاني ص ٣٤٤-٣٥٣). لأقوال المستشرقين في فواتح السور.

٧- (الاستشراق والقرآن العظيم) محمد خليفة. نقله إلى العربية مروان عبد الصبور شاهين، راجعه وقدم له عبد الصبور شاهين، تكلم في الفصل الثالث عن الكتابة الأولى للقرآن حيث عرض لجمع أجزاء القرآن مكتوبة (ص ٩٢-٩٤)، وذكر في الفصل الرابع الترتيب المصحفي للقرآن الكريم (ص ١٠٣-١١٨).

٨- (القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي-دراسة نقدية تحليلية) محمد أبو ليلة، دار النشر للجامعات، ط:١، ٢٠٠٢م؛ عقد الفصل الأول من الباب الثالث بعنوان: جمع القرآن؛ تكلم فيه عن روايات جمع القرآن ووقائعه وشبهات المستشرقين حول اختلاف هذه الروايات، وقضايا حرق المصاحف (ص ١٤٣-١٦٩). وقد أفدت من هذا الكتاب في أبواب روايات جمع القرآن ومصاحف الصحابة وترتيب القرآن.

٩- (افتراءات المستشرقين على الإسلام-عرض ونقد) عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبه، ط:١، ١٩٩٢م؛ عرض لشبهة أن القرآن لا يخلو من التناقض في ألفاظه ومعانيه، ثم ذكر أهداف المستشرقين من وراء ذلك وقام بالرد على كثير من شبهاتهم (ص ٢١-٢٥).

١٠- (الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي)، أحمد عبدالحميد السايح، القاهرة: دار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٦م. وقد أفدت من هذا الكتاب في موضوع مفهوم الاستشراق.

١١- مقالات.

١- (القراءة الجديدة للقرآن في جامعة نوتردام) سامر رشواني - مجلة التسامح، مج ٣ ع ١١ (صيف ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). -ص ٣٠٩-٣١٥. وهو مقال حول مؤتمر دولي عقده قسم اللاهوت في جامعة نوتردام بعنوان: "نحو قراءة جديدة للقرآن"، شارك في هذا المؤتمر حشد من المستشرقين المتخصصين في دراسة الإسلام والقرآن، وقدمت ضمن أوراق المحور الرابع المختص بتاريخ القرآن ورقة حول نولده وكتابه (تاريخ القرآن) وتوصلت الورقة إلى أن البحث الغربي في هذا المجال لا يزال متواضعاً وضعيفاً، ويبدو من قراءة جملة التوصيات أن هذا المؤتمر لا يختلف كثيراً عن المؤتمرات الاستشراقية التقليدية.

ب- هناك مقالان خصصا للرد على مؤلف كتاب "جمع القرآن" (جون جلكرايست) نشر في مجلة البلاغ:

المقالة الأولى عنوانها: "يقول داعية الكذب المسيحي إن القرآن ليس قول الله" للدكتور كوكب الصديق، الباحث الإسلامي المتمركز في أمريكا، مجلة البلاغ، مجلد 11، عدد 1، فبراير/مارس ١٩٨٦.

المقالة الثانية جاءت تحت عنوان: "كيف تم جمع القرآن؟" كتبه الباحث الجنوب إفريقي عبد الصمد عبد القادر، مجلة البلاغ، مجلد 11 عدد 2 ماي/يونيه ١٩٨٦. نشر تحديداً في العدد الموالي في المجلة نفسها.

وهما مقالان اقتصرنا على بعض المسائل التي لم ترد في كتاب تاريخ القرآن لنولده.

١٢- ندوة (القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية) المنعقدة في رحاب مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ما بين يومي (١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ، الموافق ٧-٩/١١/٢٠٠٦م). وقد جاءت ضمن ثمانية محاور، واشتملت على موضوعات متنوعة حول القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية.

أما ما يتصل بهذه الدراسة منها من أبحاث فما يلي:

أ- مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه، عرض ونقد.

إعداد: أبو بكر كافي. وقد اشتمل على ما يلي:

- تمهيد عن أهمية الموضوع.

المطلب الأول: موقف المستشرقين من جمع القرآن وتكوينه، ونقده.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين من المصحف العثماني ونقده.

المطلب الثالث: موقف المستشرقين من ترتيب القرآن ونقده.

فدراسته لم تخصص أحد المستشرقين فهي عامة، كما أنها لم تشمل جميع شبهات المستشرقين،

فهناك موضوعات متنوعة أثاره نولدكه وبعض المستشرقين لم تتعرض لشيء منها.

ب- دراسة القرآن الكريم عند المستشرقين في ضوء علم نقد الكتاب المقدس: محمد بن

خليفة حسن. تطرق الباحث لنولدكه ومدرسته وبحث ما يتعلق بذلك ولكن ضمن موضوع علم

نقد الكتاب المقدس، فلم يتعرض لمسائل علوم القرآن عنده بالعرض أو النقد.

ج- مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، حسن عزوزي، حيث استعرض

الباحث عدداً من مناهج المستشرقين، منها:

منهج التشكيك فيما هو قطعي

منهج الأثر والتأثير

المنهج الافتراضي

وهذه المناهج تشمل دراسة نولدكه ودراسة غيره من المستشرقين، لكنها لم تأت على منهج

نولدكه بالتفصيل، ولم تتعرض لشيء من شبهاته بالنقد أو الرد.

وعلى كل فلم تستوعب أية من هذه الدراسات السابقة سواء أكانت كتباً أم أبحاثاً أم مقالات

جميع شبهات كتاب نولدكه، وحتى المسائل المتشابهة عند عامة المستشرقين فقد طرحت بأسلوب

مختلف قليلاً أو كثيراً عن أسلوب المؤلف.

سابعاً: منهج الدراسة

تقوم هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي النقدي؛ وذلك بتتبع جميع الشبهات التي ذكرها نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن)، ثم نقدها، والرد عليها وفق ميزان النقد العلمي الدقيق، ودراسة المسائل بتجرد تام، ومنهجية علمية دقيقة.

المخطط

بعد القراءة التحضيرية، واستشارة الأساتذة والعلماء حول مسائل الدراسة والاستتارة بعلمهم، جاءت خطة البحث على النحو التالي:

- المقدمة.
- أهمية الدراسة.
- مشكلة الدراسة.
- حدود الدراسة.
- أهداف الدراسة.
- الدراسات السابقة.
- منهج الدراسة.
- المخطط ويشتمل على ما يأتي : -
 - مدخل: الاستشراق ومدارسه .
 - أولاً: ثانياً: مدارس الاستشراق
 - مفهوم الاستشراق

الفصل الأول: المستشرقون وجمع القرآن.

- المبحث الأول: مصادر المستشرقين وبواعثهم وأهدافهم.
- المطلب الأول: مصادر المستشرقين في دراسة جمع القرآن.
- المطلب الثاني: بواعث اهتمام المستشرقين بجمع القرآن.
- المطلب الثالث: أهداف المستشرقين من دراسة جمع القرآن.
- المبحث الثاني: عناية الاستشراق الألماني بالدراسات القرآنية.
- المطلب الأول: نشأة الاستشراق الألماني، وأشهر مستشرقيه.

المطلب الثاني: جهود المستشرقين الألمان في دراسة القرآن الكريم وجمعه.

المبحث الثالث: التعريف بـ (نولدكه) وكتابه (تاريخ القرآن).

المطلب الأول: التعريف بـ (نولدكه).

المطلب الثاني: مكانة نولدكه في الاستشراق الألماني .

المطلب الثالث : التعريف بكتاب (تاريخ القرآن).

المطلب الرابع: منهج نولدكه في دراسته

الفصل الثاني: موقف نولدكه من جمع القرآن.

المبحث الأول: جمع القرآن الكريم في زمن النبي ﷺ، وقد جاء مشتملا على مطالب خمسة.

المطلب الأول: دعوى تصرف النبي ﷺ في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: دعوى نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن الكريم

المطلب الثالث: دعوى حول تدوين القرآن وحفظه في عهد الرسول ﷺ

المطلب الرابع: دعوى عدم اهتمام النبي ﷺ بالقرآن الكريم المطلب الرابع: دعوى عدم

اهتمام النبي ﷺ بالقرآن الكريم.

المبحث الثاني جمع القرآن في زمن أبي بكر ﷺ، وقد اشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: دعوى أن الجامع الأول هو عمر ﷺ

المطلب الثاني: دعوى نولدكه حول موقعة اليمامة

المطلب الثالث: دعاوى نولدكه حول مصاحف الصحابة ﷺ

المبحث الثالث جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ، واشتمل هذا المبحث على المطالب

الآتية:

المطلب الأول: دعوى إجراءات عثمان ﷺ السلطوية في الجمع

المطلب الثاني: نقد دعوى تحريف عثمان للمصحف

المطلب الثالث: شبه متفرقة حول الجمع العثماني ونقدها

الفصل الثالث: شبهات حول علوم تتعلق بجمع القرآن

المبحث الأول: ترتيب القرآن والحروف المقطعة عند نولدكه

المطلب الأول: دعوى نولدكه حول ترتيب القرآن الكريم

المطلب الثاني: دعوى نولدكه في الحروف المقطعة

المبحث الثاني شبهات متفرقة حول جمع القرآن الكريم

المطلب الأول: موقف نولدكه من روايات جمع القرآن

المطلب الثاني: موقف نولدكه من الصحابة رضي الله عنهم.

المطلب الثالث: دعوى نولدكه في خرافة جمع القرآن الكريم وتحريفه

الفصل الرابع

ملحق كتاب نولدكه، وأثره فيمن جاء بعده في جمع القرآن.

المبحث الأول: المصادر المحمدية

المطلب الأول: أدب الحديث

المطلب الثاني: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

المطلب الثالث: سلسلة الإسناد عند المسلمين.

المطلب الرابع: دعوى نولدكه حول الشعر الجاهلي واللغة السريانية

المبحث الثاني: أثر نولدكه فيمن جاء بعده.

المطلب الأول: بعض المستشرقين المتأثرين بنولدكه

المطلب الثاني: أثر نولدكه في المستشرقين

المطلب الثالث: أثره في غير المستشرقين.

الخاتمة : يُبيّنُ فيها أبرز النتائج والتوصيات.

مدخل:

الاستشراق ومدارسه .

أولاً: مفهوم الاستشراق:

لا يخفى على المهتمين برصد حركة الاستشراق، ما لمفهومه من شهرة ونبوغ، جعلاه علماء قائماً بذاته، له مكانته ومؤسسته وفلسفته، كما أنه متخصص ماهر فينا وفيما يمس نواحي حياتنا المختلفة، يعطي العالم الصورة التي يختارها، ويقدمها لهم دون أن يكون لنا فيها رأي^(١)، بيد أن المفكرين المسلمين اختلفوا كثيراً في معناه، من هنا تبرز الحاجة الداعية إلى معرفته وتحديد مفهومه إجمالاً بما يتناسب وهدف هذه الدراسة.

فكلمة الاستشراق لغة مشتقة من مادة (شرق) التي تعني شروق الشمس إذا طلعت، وأشرق الرجل أي دخل في شروق الشمس، واستشرق: أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم. لكن مفهوم الاستشراق بمعناه الاصطلاحي حديث نسبياً، لذلك تخلو منه قواميس اللغة القديمة^(٢)، فهو ترجمة لكلمة (Orientalism) التي تعني الاستشراق، ومدار معنى هذه الكلمة في اللغات الأوروبية على طلب العلم والمعرفة والإرشاد^(٣).

وعلى الرغم من اتفاق المهتمين على ملامح عامة لظاهرة الاستشراق، فقد اختلفوا في وضع حد اصطلاحى فاصل يلتقون عليه جميعاً، فتعريفاتهم له تأخذ اتجاهات متعددة تبعاً لموقفهم منه، أو تبعاً للنظرة العامة أو الخاصة التي تتحكم نوعاً ما في صياغة التعريف^(٤)،

١ - ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، محمد فتح الله الزيايدي، بيروت: دار قتيبة، ط٢ - ٢٠٠٢، ص٦٦.

٢ - لا يعني خلو القواميس العربية من هذا المصطلح استحالة الوصول إلى معناه الحقيقي، بل يمكن الاستناد إلى قواعد الاشتقاق والصرف واستنتاج أن المستشرق هو من أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم كما تقدم. ينظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفيتش، (رسالة دكتوراه منشورة)، د.ط، مصر: دار المعارف، ١٩٨٠، ص٢٢.

٣- ينظر: لسان العرب، لابن منظور، نسقه وعلق عليه ووضع فهرسه: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ ١٩٩٣، مادة شرق، ٩٥/٧.

٤ - اختلفت وجهة نظر إدوارد سعيد عن فكرة مالك بن نبي نوعاً ما، فحينما صنف الأخير المستشرقين إلى طبقات وفق نظرتهم للإسلام، فهم إما موضوعي ومداح، وإما مشوه وقادح، أو طبقاً لامتدادهم الزمني، فهم قداماء ومحدثون، نجد الأول يصنفهم إلى مؤسسات محددة: استشراق جامعي، وديني مسيحي غربي، ومعلمن مبطن، وسياسي.

فالذي انطلق من زاوية معرفية، رأى أنه اتُجاه البحث المعرفي الغربي في الشرق، ومن غلب الاتجاه السياسي أو الاقتصادي على المشروع الاستشراقي، رأى أنه مشروع غربي للسيطرة على الشرق، ومن انطلق من زاوية تاريخية أكد أنه نتيجة طبيعية لحركة الصراع بين الشرق والغرب، لذا تعددت تعريفاتهم له^(١).

لكن واقع الاستشراق من حيث منظوره التاريخي يؤكد وصف إدوارد سعيد له بأنه: "أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه"^(٢) وهو تعريف وإن كان صحيحاً من حيث واقع الاستشراق، إلا أنه ليس من المنطق إصدار حكم عام على مؤسسة الاستشراق، وذلك لوجود توجهات مختلفة ضمن غطائها العريض.

وربما يصلح أن يكون المعنى الجامع لهذه التعريفات هو: "دراسات غير الشرقيين لحضارات الشرق وآدابه ولغاته وتاريخه وعلومه واتجاهاته النفسية وأحواله الاجتماعية"^(٣).

ومع زيادة حسن ظن فإنه يجب أن يصبح تعريف المستشرق: هو الباحث المؤهل القادر على الخوض في المعارف الشرقية، وأهمها الدين واللغة العربية.

لكن في ضوء الواقع التاريخي فإن هذا المعنى بعيد جداً، لذا ينبغي التأكيد -هنا- على أن الاستشراق هو: اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين، بغض النظر عن وجهتهم الجغرافية وانتماءاتهم الدينية والثقافية والفكرية، فهم يتكلمون ويكتبون عن دين لا يدينون به، فليس غريباً

ومن وجهة نظري أن تقسيم ابن نبي السابق بالغ الأهمية، لأنه يؤكد علم (الطبقات) الذي اختص به علماء المسلمين دون سواهم من الأمم. ينظر: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، بيروت: دار الإرشاد، ط ١-١٩٦٩م، ص ٥.

١ - ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، محمد فتح الله الزيايدي، مرجع سابق ص ١٨.

٢ - سعيد. إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط ١، ١٩٨١م، ص ٣١.

٣ - عتر. حسن ضياء الدين، وحي الله، حقايقه وخصائصه في الكتاب والسنة، نقض مزاعم المستشرقين، دمشق: دار المكتبي، ط ١ - ١٩٩٩، ص ٢٤.

أن يدفعهم اختلاف الدين إلى التعصب الشديد والجملة عليه، وتحدين الفرص لبث السبه والدعاوى بلا تثبت ولا تحقق^(١).

ثانياً: مدارس الاستشراق :

إذا ما ضرب الذكر صفحاً عما ذهب إليه فريق من العلماء، من رفض التقسيم التقليدي الذي يصنف الاستشراق إلى مدارس مختلفة، بحيث يسمي بعضه استشراقاً انجليزياً، وبعضه الآخر فرنسياً، أو ألمانياً، أو هولندياً وفق التقسيم الجغرافي، كان هذا الرفض بسبب التزام المستشرقين منهجاً ثابتاً لم يطرأ عليه أي تحول جذري، على الرغم من البعد الزمني والمكاني اللذين يزرع إليهما مجموع المستشرقين، لذا يصح القول: إن سمة الاستشراق واحدة، في الوسائل والغايات، وإذا كان هناك اختلاف فليس مرده إلى الجغرافية، بل إلى "التناوب في تسيير عجلة الاستشراق"^(٢).

فإذا ما تركنا هذا المنحى، لصعوبة الاستغناء عن التقسيم الجغرافي^(٣) ولا اعتبارات معينة؛ ليس من أقلها: ضرورة انعكاس خصائص البيئة على شخصية المستشرق وتوجيه أفكاره، خاصة إذا أخذ في الاعتبار حجم التأثيرات الاقتصادية والاستعمارية الكبير الذي خضعت له البيئات الأوروبية، وأثر ذلك على تفاوت علاقاتها مع نول الشرق عموماً، لذا فإنه يمكن تصنيف الاستشراق انطلاقاً من معيارين:

٣- ينظر: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، أحمد عبدالحميد السايح، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٦م، ص٩-١٥.

٢ - العالم. عمر لطفي، المستشرقون والقرآن، مالطا: منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ص ٢٦.

٣ - قام الهرابي بتقسيم الاستشراق إلى ثلاث مدارس؛ مدرسة تتعلق بالقرآن الكريم؛ وأخرى تتعلق بسيدنا محمد ﷺ؛ وأخرى بالتاريخ الإسلامي، وهذا الرأي يقصر اختصاص المستشرقين على الإسلام وحده، وقام العقيلي بتقسيم الاستشراق في كتابه "المستشرقون" في طبعته الأولى - إلى مدرستين: السياسية والأثرية، إلا أنه وضعه في طبعات تالية على أساس التقسيم الجغرافي. ينظر: فلسفة الاستشراق، أحمد سمائلوفيتش، مرجع سابق ص٢١٩-٢٢٢.

الأول: العقيدة والدين، فهناك المدرسة النصرانية التي تنفرع إلى جبهتين: كاثوليكية وبروتستانتية. والمدرسة اليهودية: التي كرست جهودها لخدمة الأهداف اليهودية العالمية، وغيرهما من المدارس التي تندرج ضمن هذه القائمة، كالأحادية والشيوعية.

الثاني: النشأة والمكان، حيث يمكننا تصنيف الاستشراق إلى مدارس ذات ملامح متقاربة نوعاً ما، كالآتي:

١- المدرسة الفرنسية، التي ركزت اهتمامها على حضارات الشرق المختلفة والدول الإسلامية، عن طريق الدين والسياسة والاستعمار. من أكبر مستشركي هذه المدرسة: دي ساسي^(١) وقد لقت المدرسة الفرنسية بالاساسية نسبة إليه.

٢- المدرسة الإنجليزية: وقد كان اهتمامها مركزاً على حضارات البلدان التي خضعت لحكمها، من أشهر مستشركي هذه المدرسة: مرجليوث^(٢).

٣- المدرسة الألمانية: توجهت نحو الشرق كله، ووصفت بعمق البحث ودقته، وأشهر مستشركيها تيودور نولدكه، مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) موضوع هذه الدراسة.

٤- المدرسة الروسية: حصرت اهتماماتها في منطقة آسيا الوسطى. وهناك مدارس غير ما تقدم، كالمدرسة الإيطالية والإسبانية والأمريكية والهولندية والبرتغالية^(٣).

١ - البارون دي ساسي ١٧٥٨ - ١٨٩٢، مستشرق فرنسي، انتخب رئيساً للجمعية الآسيوية سنة ١٨٢٢م، ألف في الدروز وعني بهم، ولقب بالبارون جزاء لجهوده وخدماته. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣- ١٩٩٣، التراجم مرتبة حسب الأبجدية ٣٣٤ - ٣٤٠. والمستشرقون، نجيب العتيقي، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٧٩/١

٢ - مرجليوث: (١٨٥٨-١٩٤٠) مستشرق انجليزي، أتقن العربية وكتب بها بسلاسة، وأستاذها في جامعة أكسفورد، وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق له آثار كثيرة تتصل بجميع فروع الحضارة الإسلامية. ينظر: المستشرقون، نجيب العتيقي، ٥١٨/١.

٣ - ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، التبشير الاستشراق الاستعمار، للميداني، دمشق: دار القلم، ط٥ ١٩٨٦م، ص١٢٤. والسباعي، الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣- ١٩٨٥م، ص٣٠.

الفصل الأول
المستشرقون وجمع القرآن
الكريم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

المستشرقون وجمع القرآن الكريم

يعدّ موضوع جمع القرآن الكريم أحد عناصر تاريخه، وأهم فرد من أفراد علومه، ومظهر عظيم من مظاهر حفظه وصيانته، لذا فقد أسهم فيه المستشرقون بنشاط ملحوظ، ونصيب ذي أثر لا يخفى، تعرضوا فيه لكل المعاني الفرعية التي تدرج تحته، وذلك ضمن المنهج المعتمد من لدن دوائر الاستشراق المختلفة، وهو المنهج الذي ستعرض له الدراسة في بعض مطالب هذا الفصل.

ولعل كتاب تاريخ القرآن للأستاذ نولدكه أهم هذه الإسهامات في بابيه بلا منازع، فهو عمدة في الدراسات القرآنية الاستشراقية عند المستشرقين بشكل عام، وستناقش الدراسة هذه الموضوعات بالتفصيل ضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: مصادر المستشرقين بواعثهم وأهدافهم.

اهتم المستشرقون بدراسة الإسلام بشكل عام، والقرآن وما يتعلق به من علوم بشكل خاص اهتماماً بالغاً، وذلك لما للقرآن من مكانة في تاريخ الأمة والحضارة الإسلامية واللغة العربية، فهو مصدر التشريع الأول في الإسلام، وكتاب العربية الخالد، والنص الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، وهو الكتاب الرائد في تاريخ النقد كله، إذ كشف عورات العقائد، وزيف المبادئ والتشريعات، وكان المستشرقون أنفسهم أول من شهد له بذلك.

كما أنه ظل عبر القرون مثار دهشة الناس جميعاً، فكما أعجز بالأمس الأقحاح من العرب، فإنه أفض اليوم مضاجع العلماء في الغرب، فعكفوا على دراسته، واهتموا به أيما اهتمام، ووقفوا منه مواقف شتى، فمنهم المتعصب الحاقد وهم كثير، ومنهم المعتدل المحايد وهم قليل، ومنهم بين بين^(١).

^١ - لاستقراء نماذج من هؤلاء، ينظر مقدمة كتاب: إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي، ص ٥ - ١٠. والمستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين علي الصغير، بيروت: دار المؤرخ العربي، ط ١ - ١٩٩٩، ص ١٤ - ١٥.

لكن لا يحق لنا أن ننكر ما طرأ على التوجه الاستشراقي الجديد من تحسن في هذا المجال، فهناك تغير ملحوظ نحو الأفضل، وإن كان فرقاً في الدرجة فحسب وليس في النوع، فمظاهر الشتم السافر للقران الكريم وللإسلام الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر وما قبله تلاشت أو ندرت، وهذا ما يقال من حيث النسبة، وإلا فلا ينبغي أن يذهب بنا حسن الظن مذهباً بعيداً، فشيخ اللاهوت يلاحق هذه الدراسات ويوجهها، ويظهر لها بين الفينة والأخرى، كما أن الدراسات المنحرفة ما زالت تفاجئنا وتصوب سهامها نحو القرآن وتاريخه وسائر علومه^(١).

لذا سنتركز الدراسة في هذا المبحث حول ما لدى القوم من منطلقات ومخططات تتعلق بمصادر الاستشراق وبواعثه، وأهداف المستشرقين من دراسة موضوع جمع القرآن.

^١ - ينظر: نحن والاستشراق، عمر لطفي العالم، ضمن رسالة الجهاد، ٨٨ع، ص ١٩٩٠م، ص ٨٦. و المستشرقون والحديث النبوي، محمد بهاء الدين، دار النفائس - عمان، ط ١ - ١٩٩٩م، ص ٩.

المطلب الأول : مصادر المستشرقين في دراسة جمع القرآن

قبل التعرض لبعض المصادر المعتمدة لدى المستشرقين في دراساتهم لمادة جمع القرآن الكريم، يحسن بنا -هنا- رصد بعض مواصفات منهجهم وملامحه في كيفية اختيارهم مصادر هذه الدراسات ومراجعتها، مع الإشارة إلى أن اختلاف مناهج المستشرقين وخلفياتهم الفكرية والثقافية التي ينطلقون منها في دراساتهم، جعل من مثل هذا الرصد أمراً شديداً التعقيد والتداخل، لا يمكن حصره وتصنيفه ببسر. ويمكن مناقشة موضوع مصادر الدراسات الاستشراقية في الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: منهج المستشرقين في اختيار مصادر دراساتهم

لقد بقيت الكتابات الغربية الأولى عن الإسلام مصدراً مهماً لدى الدارسين اللاحقين من الغربيين فيما بعد، خاصة بعد أن نالت هذه الدراسات وضعاً متميزاً على صعيد الدراسات العالمية، حيث درج اللاحقون منهم على توارث المصادر المعتمدة لدى أسلافهم القدامى، مما جعل البحث الاستشراقي عملاً تقليدياً يرمي إلى تكرار الشبهات نفسها التي مضغها المستشرقون الأوائل وعملوا على نشرها بشكل راتب قد يتخلف أحياناً، وبالتالي تكريرها وتمثلها، وانطبق عليهم تماماً ما قاله إدوارد سعيد حيث كشف عن هذه الحقيقة بقوله: " ليس في وسع إنسان في الغرب أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً متعلقاً به أو أن يقوم بذلك دون أن يأخذ في الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل"^(١).

ولعل ما يتمتع به هؤلاء من تعصب مقبوت تجاه كل ما يتصل بالإسلام من أمور قد كرس لديهم نوازع الاتباع، وعزز في جوانحهم عدم الخروج عن النسق التقليدي المعروف، لذا اعترف بعض المستشرقين بانحراف كثير من زملائهم عن الحياد بسبب تعصبهم الذي شدهم لذلك، فبرنارد لويس^(٢) مثلاً- يشير لأثار التعصب الديني الغربي الظاهر في مؤلفات عدد من

^١ - سعيد. إدوارد، الاستشراق، ص ٣٢.

^٢ - برنارد لويس مستشرق إنكليزي معاصر أظهر انتماءه للصهيونية، تخرج في جامعتي لندن وباريس، له مجموعة آثار، منها: اللغة السياسية في الإسلام. والغرب والشرق الأوسط. ينظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، مازن صلاح مطبقاني، الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٩٩٥م، ص ١٧-١٩.

علمائهم المعاصرين^(١)، مما ينفي صحة الفكرة القائلة بأن المستشرقين مجتهدون، يخطئون ويصيبون، كما ادعى ذلك بعض الباحثين المسلمين^(٢)، ذلك أن خطأ المجتهد مغفور، بل إنه مأجور حتى بخطئه، فهو يملك آلة البحث أولاً، ولم تشغله مقررات مسبقة قبل النظر في المسائل أو الخروج بالأحكام عن أن يكون عمله متجرداً ونزيهاً وموضوعياً ثانياً، وهي عناصر تفتقدها عامة الأبحاث الاستشراقية، فستان ما هما.

وفي هذا المجال يعترف لوبون^(٣) بقوله: "إننا لسنا مفكرين أحراراً في بعض الموضوعات، والمرء عندنا ذا شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية اللاشعورية التي استقرت وتبلورت بفعل الماضي الطويل وتأثير الأجداد والسلف.. وهكذا فإن أوامنا الموروثة والمستقرة في اللاوعي عن الإسلام والمسلمين قد تراكت عبر قرون كثيرة وصارت جزءاً من مزاجنا وطبيعة متأصلة فينا"^(٤).

كما أنهم يشتركون جميعاً باتباعهم منهجاً انتقائياً خاصاً في اختيار مصادرهم، تحكمه عوامل ومؤثرات خاصة أيضاً، فعلى الرغم من صدور كثير من الكتب الموثوق بها والمعتمدة في علوم القرآن بشكل عام، وفي جمع القرآن بشكل خاص، إلا أن المستشرقين يحاولون تجاوز أغلب هذه المصادر، فالمصنفات العربية المتعلقة بعلوم القرآن المعتمدة من طرفهم محدودة جداً بالنسبة إلى المصادر الاستشراقية^(٥)، ومع ذلك فبعضها تنقصه الصحة والسلامة، وبعضها الآخر كتابات جامعة تهدف إلى لمّ أطراف المسائل ووضعها في مكان واحد، بغض

١ - ينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، علي النملة، الرياض: مكتبة التوبة، ط١/١٩٩٨، ص١٩٧.

٢ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص١٤.

٣ - غوستاف لوبون: مستشرق وطبيب ومؤرخ فرنسي، ولد عام ١٨٤١م، عنى بالحضارات الشرقية وجاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية نوعاً ما مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره، من آثاره: حضارة العرب. ينظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٨٦.

٤ - فوزي. فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨، ص٦٥.

٥ - فمثلاً بلاشير في كتابه "مدخل إلى القرآن" اعتمد على مئة وثمانية وسبعين كتاباً، ليس منها سوى سبعة وأربعين كتاباً عربياً.

ينظر: مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، حسن عزوزي، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، (١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ، ٧-٩/١١/٢٠٠٦م): ١٦/٢٧.

النظر عن مدى تناسقها وسلامتها، فيهرع هؤلاء ليقننوا منها ما يخدم هدفهم ولو من طريق لي أعناق النصوص وبترها، وهكذا نجد بلاشير^(١) -مثلاً- وبرتون^(٢) وجليكريست^(٣)، يركزون في مجال جمع القرآن الكريم كثيراً على كتب محددة ويعتمدون عليها اعتماداً كلياً، لا لأنها كتب متخصصة في الموضوع، بل لأنهم يجدون ضالتهم فيها، من خلال التركيز على الموهوم من عباراتها.

فالمصادر القرآنية الموثوق بها -إذا ما استثنيت بعض الألفاظ الموهومة- ليس فيها ما يسعف القوم في توسيع ما يصبون إليه من الوصول إلى استنتاجات مزورة وأحكام مغرضة، فيلتجئون إلى ما يعينهم على بلوغ مقصودهم في مثل هذه الكتب، فإذا ما أضيف إلى ذلك جهلهم الذريع في التخصص المعنى والمدرس وثقافتهم المحدودة فيه بسبب بعدهم عن الأصول الأولى الأصلية له، أدركنا حينئذ شكل النتائج التي سترشد إليها هذه الدراسات وحجمها^(٤).

وفي مجال المادة المستخدمة من قبل المستشرقين فإنهم أول ما يركزون على الروايات الضعيفة، والأخبار المتضاربة، ويتصيدون المعاني الباطلة التي لا تصلح إلا لتلبية أهدافهم؛ من افتعال نوع من التشويش حول سلامة نقل القرآن الكريم والمحافظة عليه منذ لحظة نزوله فتمامه إلى الآن، ومروراً بحقب التاريخ الإسلامي كله، ومن ثم بناء أحكام فاسدة والخروج بنتائج مستهدفة تتفق تماماً مع منظورهم الاستشراقي.

أما الصحيح من الروايات والسليم من المعاني فإذا لم يتجنبوه، فإنهم يبالغون في نقده إلى حد إلغائه، فنراه -مثلاً- يتناسون الجمع البكري ليثبتوا ما روي من أن الذي جمع القرآن هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي روايات وإن صح إسناد بعضها، إلا أنها منكورة في أغلبها^(٥).

١ - بلاشير: مستشرق فرنسي ولد عام ١٩٠٠، أستاذ محاضر في السوربون، ومشرّف مجلة المعرفة الصادرة

في باريس باللغتين الفرنسية والعربية. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، ص ١٢٧.

٢ - السير ريتشارد برتون، (١٨٢١-١٨٩٠) مستشرق بريطاني رحالة، اهتم بالجغرافيا، له كتاب في جمع القرآن. ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٢ / ٤٨٦.

٣ - جون جليكريست، مستشرق ومنصر جنوب أفريقي معاصر، له كتاب (جمع القرآن).

٤ - ينظر: مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، حسن عزوزي، ص ٢٠ - ٢٢.

٥ - ينظر: جمع القرآن، دراسة تحليلية لمروياته، أكرم الدليمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٦م،

الفرع الثاني: نموذج توضيحي من مصادر المستشرقين في جمع القرآن

اتضح مما سبق بعض معالم المنهج الاستشراقي وحدوده في اختيار المصادر المعتمدة لدى المستشرقين عند خوضهم في مسائل جمع القرآن الكريم، فمن أبرز صفاتهم المشتركة التي تكاد تجمع غالبيتهم العظمى عليها أنهم انتقائيون، يستنون المصادر الأصلية المعنية ببحث الموضوع المعين من الكتب العربية، ويأخذون بمصادر ثانوية، أو لا تتصل بالموضوع الخاص بالدراسة، فهم -أولاً- لا يقدمون على نتائج المستشرقين أي نتاج، وهم -ثانياً- يحتفظون بعدد محدود من المصادر العربية التي لها حضور شبه دائم لدى معظم أبحاثهم ودراساتهم، من هذه المصادر العربية:

(تاريخ اليعقوبي)، (المصاحف) لابن أبي داود، (الفهرست) لابن النديم، (مروج الذهب) للمسعودي، (أسد الغابة)، لابن الأثير، (الإتقان) للسيوطي، (العقد الفريد) لابن عبد ربه، (مقدمة ابن خلدون) لابن خلدون، (الأغانى) للأصفهاني، (الحيوان للدميري)، وغيرها من كتب الأدب والتاريخ والإمتاع والتسلية، مثل كتاب (ألف ليلة وليلة)، والتي لا تعد مصادر صالحة لأي من موضوعات علوم القرآن، أو قد تكون صالحة للموضوع، إلا أنها شذرات قليلة، بجانب عدد متراكم من المصادر الغربية.

كما أنهم أحياناً يعتمدون على مصادر إسلامية أصلية، إلا أنهم يتبعون أسلوباً خاصاً بهم في معالجة الموضوعات والوصول إلى الأحكام، مبنياً على الانتقاء والإسقاط وبتن النصوص وتحريفها، فلو استعرضنا مصادر دائرة المعارف الإسلامية -مثلاً- عند تحرير مادة قرآن، التي كتبها المستشرق الدانمركي (ف.بول)، لوجدناه قد اعتمد المصادر العربية التالية:

- (تفسير الطبري)، (تاريخ وأخبار مكة) للأزرقي، (سيرة ابن هشام)، (طبقات ابن سعد)، (العقد الفريد) لابن عبد ربه، (الملل والنحل) للشهرستاني، (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، (الكشاف) للزمخشري، (تفسير البيضاوي)، (تفسير الجلالين).

وأما المصادر الاستشراقية التي اعتمدها، فهي تساوي تقريباً ما نسبته خمسة أسداس مجموع المصادر المعتمدة لديه، إذ بلغت تسعة وأربعين مصدراً، مما يشير إلى تحيز واضح، يعطينا تصوراً أولياً لمدى الحيادية التي يتغنى بها هؤلاء المستشرقون في دراساتهم^(١).

ومثال آخر: كتاب (جمع القرآن) لـ (جلكريست) حيث اعتمد على مصادر عربية قديمة، من أمهات كتب السيرة النبوية، مثل (سيرة ابن إسحاق)، و(ابن سعد) و(المغازي) الواقدي. وكتب الحديث: مثل (صحيح البخاري)، و(صحيح مسلم)، و(سنن أبي داود) و(سنن الترمذي)، وغيرها.

أما كتب التفسير وعلوم القرآن، وهو القسم الأهم الألقص بموضوع دراسته فإنه لم يعتمد إلا على كتابين فحسب، وهما: (المصاحف) لابن أبي داود، و(الإنشقاق) للسبوي.

لذا يلاحظ على دراسته أن أغلب مفاهيمها جاءت مغلوطة، تفيد نتائج تختلف تماماً عما فهمه عامة علماء المسلمين قديماً وحديثاً، فهو على سبيل المثال يورد ما ذكرته كتب الصحاح من آثار في غير ما موضع، ليستشهد بها على معاني معكوسة، فيرجع تردد زيد ﷺ إزاء المهمة التي أسندت إليه إلى عدم اهتمام الرسول ﷺ بجمع القرآن الكريم^(٢)، والصحيح أنه نفر من عمل كهذا لأنه لم يفعله رسول الله ﷺ.

أما عدم جمعه مكتوباً في مكان واحد فيمكن تعليقه بالآتي:
الأول: أنه لم يوجد من دواعي جمعه في صحف ما وجد على عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

والثاني: ندرة وسائل الكتابة.

والثالث: ترقبهم المستمر لنزول الوحي، واحتمال توارد الناسخ والمنسوخ.

١- ينظر: القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية، حميد بن ناصر الحميد، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، ٣٢/٣٠.

٢- وذلك حين قال له أبو بكر ﷺ: تتبع القرآن فأجمعه، فقال زيد: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ الخ الحديث. وهو جزء من حديث في صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ١٨٣/٦.

والرابع: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فنزوله كان على حسب الأسباب، أما ترتيبه فكان لأعتبارات أخرى.^(١)

بالإضافة إلى أنه ﷺ، لم يكن يعلم بوقت أجله.^(٢)

وكتعليقه على حديث أبي خزيمة، آخر سورة التوبة^(٣)، حيث فهم منه بأن بعض القرآن قد روي بطريق واحد، وأن كثيراً من القرآن لم يعلمه إلا القليل من الحفاظ، وهو فهم خاص بالمستشرقين ودوائرهم.^(٤)

وعلى الرغم من اختلاف الأخير عن سابقه من زاوية اختيار نوعية المصادر، إلا أن الملحوظ أن كليهما يشتركان في الاعتماد على مصادر استشراقية، تفوق المصادر الإسلامية بأضعاف، وهذا يعطي صورة واضحة لشكل المنهج المعتمد لديهما، فقد عملا على إسقاط الرؤية الغربية، على تاريخ القرآن ووقائعه، كما اعتمدا على النقول الباطلة، وإغفال الحقائق التي تدحض تلك الأقوال، ثم تشويشها أو إلغائها، والتعسف في إصدار الأحكام والوصول إلى النتائج، وكل ذلك يناقض ما يدعيه المستشرقون لأنفسهم من موضوعية وتجرد، فالموضوعية تلزمهم الرجوع إلى المصادر الأصلية، والتخلي عن الأحكام السابقة.

الفرع الثالث: مصادر نولدكه في جمع القرآن

وللإنصاف فإن منهج نولدكه يختلف اختلافاً نوعياً من هذه الناحية عن غالب زملائه المستشرقين، فقد نوع في مصادره وأضاف إليها مصادر متعددة في موضوعات رحبة، لكنه لم

١ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ص ١٥٣/١، ومباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، الرياض: مكتبة المعارف، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. ص ١٢٥.

٢ - ينظر: الوجيز في علوم الكتاب العزيز، محمد خازن المجالي، عمان: من منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٨ - ط ٤، ص ١٢٥.

٣ - ونصه: (فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجد ما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ...)) وهو جزء من حديث البخاري السابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ١٨٣/٦.

٤ - ينظر: جمع القرآن، جون جلكريست، كتاب مأخوذ عن الانترنت على الموقع: www.an-swering.com - islam.org\Arabic\Gilchrist\jam ص ٦٤.

يخرج من بونقة الانتقائية في اختيار الموضوعات، وسألني الضوء فيما يلي على جانب من مصادر تولدكه العربية كما جاءت في ملحقه في القسم الثاني كالآتي:

السيرة النبوية:

- ١- كتاب (سيرة ابن إسحاق) اطلع عليه بشكل غير مباشر بواسطة كتاب السيرة النبوية لابن هشام
- ٢- كتاب (المغازي) للواقدي
- ٣- كتاب (أخبار النبي) لابن سعد
- ٤- كتاب (المعارف) للدينوري
- ٥- كتاب (مختصر تاريخ العالم) للعباسي
- ٦- كتاب (فتوح البلدان) للبلانري
- ٧- كتاب (تاريخ العالم) للطبري
- ٨- كتاب (مروج الذهب) للمسعودي
- ٩- كتاب (الكامل) لابن الأثير^(١)

الحديث

- ١- كتاب (المسند) للإمام أحمد
- ٢- كتاب (صحيح البخاري)
- ٣- كتاب (صحيح مسلم)
- ٤- كتاب (سنن أبي داود)
- ٥- كتاب (سنن ابن ماجة)
- ٦- كتاب (سنن النسائي)
- ٧- كتاب (سنن الترمذي)
- ٨- كتاب (مشكاة المصابيح) للتبريزي^(٢)

^١ - تاريخ القرآن، تولدكه، ص ٣٥١ - ٣٦٥.

^٢ - المرجع السابق، ص ٣٦٧ - ٣٧٣.

سيرة الصحابة

- ١- كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر
- ٢- كتاب (أسد الغابة) لابن الأثير
- ٣- كتاب (الطبقات) لابن سعد
- ٤- كتاب (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي
- ٥- كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر^(١)

التفسير

- ١- كتاب (تفسير الطبري)
- ٢- كتاب (تفسير الثعالبي)
- ٣- كتاب (تفسير البغوي)
- ٤- كتاب (تفسير الزمخشري)
- ٥- كتاب (تفسير البيضاوي)
- ٦- كتاب (تفسير الرازي)
- ٧- كتاب (الدر المنثور) للسيوطي
- ٨- كتاب (تفسير الجلالين) للمحلي والسيوطي
- ٩- كتاب (تفسير الكاشي)
- ١٠- كتاب (حقائق التفسير) للنيسابوري^(٢)

كما أن المؤلف تناول أعمالاً خاصة حول أسباب النزول، ومداخل القرآن، والشواهد الشعرية وغيرها^(٣).

هذا، ويلاحظ على ترتيب نولده لملاحقه أنه أخرج كتب التفسير وعلوم القرآن، وكان ممن حققها التقديم، لأن دراسته هذه ذات طابع ومنطلق قرآني.

١ - المرجع السابق، ص ٣٧٣ - ٣٧٦.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٨٩ - ٤٠٠.

٣ - المرجع السابق، ص ٤٠٠ - ٤٠٩.

المطلب الثاني: بواعث اهتمام المستشرقين بجمع القرآن:

ليس من الصعب -على المطلع- معرفة سر توجه الغرب نحو القرآن الكريم، وسبب تركيزهم البحث على مسائله وعلومه، فقد أدركوا منذ وقت بعيد، أن سر عظمة الإسلام وتزايدهم المستمر، يكمن في تطبيق أحكام هذا الكتاب العظيم، فهو بمثابة روح الإسلام، الذي جعله ديناً شاملاً كاملاً صالحاً لكل زمان ومكان.

ولما لوقائع تدوينه وجمعه من الأثر الكبير، والأهمية القصوى، في الدلالة على العناية به ورعايته على امتداد تاريخه - إذ تعد أحداث هذا الجمع أحد أهم مظاهر سلامة نقله وكمال حفظه- فقد احتل هذا الجانب منذ وقت مبكر مكانة لا تكاد تدانيها منزلة من حيث الكتابة حوله، وتسليط الضوء عليه سلباً أم إيجاباً، من قبل أوساط مختلفة من البشر، مسلمين وغير مسلمين، مؤيدين ومعارضين.

لكن ما بلغت الانتباه، ذلك الجهد الذي قدمه جماعة من المستشرقين حول الموضوع نفسه، فقد أفنى بعضهم عمره، واستنزف كثير منهم جهده، كما ابتدع أغلبهم حوله مساحات واسعة، من الزيف والتضليل والافتراء المفضي إلى عدد من الشبهات.

وهكذا فقد تعددت الدوافع التي حدثت بالمستشرقين بأن يقبلوا على دراسة القرآن وتتبع مراحل تدوينه، فهناك دوافع عامة، تشمل جميع فروع الدين، بل كافة جوانب التراث الشرقي والإسلامي، كما أن هناك دوافع خاصة، تقتصر على مسائل جمع القرآن فحسب. ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

١- إذا ما عرفنا أن أغلب جهود المستشرقين تعد من وجهة نظر المسلمين أعمالاً غير محايدة، ليس بسبب الصراع الدامي بين المسلمين والنصارى، والذي جسدت الحروب الصليبية أحد أشكاله البارزة - فحسب- وإنما أيضاً بسبب ما رافق هذا الجهد من آثار ظاهرة، لقاعدة الانطلاق الدينية لديهم، ومعالم الدعوة التبشيرية المسيحية، التي تنادي بالثأر لمهد المسيح عليه السلام، ودفع كباح انتشار الإسلام، فجميع أساتذة اللغات الشرقية، كانوا من رجال اللاهوت أو من أتباعهم، كما شهد بذلك بعضهم^(١) فليس غريباً أن يدفعهم ذلك المسلك إلى التعصب والعداء،

١ - ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، بيروت: دار قتيبة، مقدمة عمر لطفي العالم، ص ٧ .

جعلهم يتصورون الإسلام عدواً لدوداً، وهذا ما أكده غير واحد من المستشرقين، فأورث هذا الهاجس في قلوبهم حقداً دفيناً لا يخمد أبداً^(١).

وبلاحظ على ما تقدم من أمور، أنها عوامل تتعلق بطبيعة الاستشراق، وبيئته، وظروف نشأته، فإذا أضيف لها ما يرتبط بمعظم المستشرقين من عوامل ذاتية، كقصورهم عن فهم كثير من مسائل علوم القرآن ولغته، مما دفعهم لادعاء وجود تناقض فيه، تبين للمتأمل طبيعة المخرجات الناتجة عن نظام تلك العملية الاستشراقية.

٢- لكن ما هو غني عن الإعادة، الإشارة إلى ما يعود للقرآن الكريم من عوامل، كان لها الأثر الكبير في تحريك همم الغرب وإثارة عواطفهم، كي يمضوا دون توقف في العمل على الطعن في سلامة القرآن الكريم وصيانيته، فالقرآن الكريم يحظى بمركز ديني وثقافي كبير لدى المسلمين، إذ ينظرون له بقدسية وجلال عظيمين، لأنه يمتاز بالكمال المطلق، فهو آية الدهور، ومعجزة العصور.

٣- زد على ذلك أن القرآن يعد أقوى كتاب نقدي في تاريخ البشرية جمعاء، فقد فضح زيف الشرائع السابقة، وكشف عوراتها، بإقرار المستشرقين أنفسهم، يقول المستشرق باريت: "المسلمون هم الذين بدأوا بالهجوم فليتحملوا تبعه عملهم"^(٢).

لذا صوب عدد منهم سهامهم نحو القرآن الكريم، وبالأخص نحو مسائل جمعه وتدوينه لأسباب، منها:

أ- أن إثارة الشبهات حول تدوين القرآن الكريم ووقائع نقله تعد طريقاً مختصرة للوصول إلى الهدف المرجو، ومعبراً سهلاً لتسويق ما لدى القوم من بضاعة، مقارنة بما سواها من مسائل علوم القرآن وأصول الدين، والمستشرقون يدركون أن الشك في نص يوجب الشك في آخر، ولذلك فهم يجتهدون في جمع روايات الاختلاف، لأن من توهم وجود شبهة ما فيه، فإنه سيقحم معها حزمة من الطعون والشكوك، ومن تسرب لخلده -على سبيل الفرض- حكاية من قال: إن القرآن لم يجمع كله زمن الرسول ﷺ، فإنه سيرضى بافتراض وجود الجهد البشري في

^١ - ينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، النملة، ص ٥٢ فما بعد.

٢ - العالم. عمر لطفي، نحن والاستشراق، ضمن رسالة الجهاد، ع ٨٨، ص ١٩٩٠م، ص ٨٦-٨٧. وينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القهار العاني. عمان: دار الفرقان، ط ١، ٢٠٠١، ص ٤٢-٤٣.

تشكيل نص القرآن، ومن أذعن لمثل هذه الخيالات، سيطعن لا محالة في سلامة القرآن الكريم، وبالتالي سيذهب به سوء الظن إلى اتهام كل حكم بني على هذا النص، وهكذا سيمضي به الشك شوطاً بعيداً، حتى يرى الدين أنواعاً لا حصر لها من الخرافات.

ب- أن المسلمين يطعنون في طريقة نقل الكتب السابقة، ويؤمنون بتغلغل يد العبث والتحريف فيها جميعها، فسعوا للرد على المسلمين بالمثل.

ج- لكثرة المنقول في هذا الباب من آثار صحيحة وغير صحيحة، مما يوهم وجود التناقض الظاهر بين الروايات الصحيحة، وحصول التناقض الحقيقي بينها وبين المتهافت من الروايات.

د- لأن الحديث حول وقائع الجمع من قبل المستشرقين يستميل قلوب غالبية الناس ويستهوئهم، لأنه يتحدث عن تاريخ وأحداث، فهو يشبه الدليل.

كل هذه الأمور كانت بمثابة دوافع وبواعث عملت على تحريك همم هؤلاء المستشرقين، لينطلقوا بعد ذلك نحو أهدافهم وغاياتهم.

المطلب الثالث: أهداف المستشرقين من دراسة جمع القرآن

هناك سؤال يأخذ مساحة غير قليلة من توقعات الباحثين حينما يحاولون الإجابة عليه، يمكن طرحه على أكثر من صعيد، وبأكثر من صيغة، ألا وهو: ما السر من وراء اهتمام الغرب بالشرق على الحالة التي مثلها تاريخ المستشرقين الطويل؟ قبل الإجابة المباشرة على مثل هذا التساؤل يجدر أن نذكر بذلك الجهد الكبير المبذول من قبل دول الغرب لدراسة تراث الشرق وحضارته، يتلخص في ذلك العدد الهائل من الدوائر والمراكز والمعاهد والمؤسسات، والكم الكبير من الباحثين الغربيين الذين تخصصوا في مختلف نواحي الحضارة العربية، استنفدت أعمالهم جزءاً ضخماً من ميزانيات دولهم، فضلاً عما رافق ذلك من معطيات فرضتها ضرورات عمل المشروع الاستشراقي والواقع الموجود آنذاك، مثل اختلاف اللغات وتعددتها ولزوم تعلمها، وتغاير المعتقد والعادات والثقافات، كل ذلك يجعلنا نتساءل -أولاً- عن سبب تجشم هذا المكان الوعر والثرن الباهظ الذي التهم مقدرات دول وشعوب بأكملها، كما يثير ذلك تساؤلاً مستمراً لدى المتابعين لحركة الاستشراق عن الدوافع والأهداف ثانياً.

ومع أن الجميع يقطعون بوجود أهداف ذات قيمة كبيرة -سلباً أو إيجاباً- فإنهم يفترون كثيراً في تحديد هذه الأهداف نظراً للمؤثرات الحسية أو النفسية، أو التصورات الذاتية، فمن اطلع على حجم التأثير الديني والتاريخي لديهم وصفهم بالحقق الديني والكرامية والعنصرية والنزعات الاستعمارية، ومن لامس حياته تأثير التقدم التقني والمادي، ولم يراع الجانب الديني أو الروحي، نعت عمل الاستشراق بالعلمية والموضوعية^(١).

وعلى الرغم من تداخل الأهداف مع الدوافع أحياناً، إلا أنه يمكن إجمال أهداف الاستشراق العامة -التي لا تقتصر على موضوع جمع القرآن خاصة- من دراسة القرآن الكريم وعلومه بالآتي:

- الهدف الديني، المقصود منه معرفة الإسلام لمحاربهه وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وهو ما قام به المنصرون لوقف انتشار الإسلام بين النصارى.

^١ - ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، محمد فتح الله الزياي، ص ٣٣. و الاستشراق والدراسات القرآنية، للعاني، ص ٢٩-٣٠.

- الهدف الاقتصادي التجاري، فالمستشرقون يكشفون عن الأحوال الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية للشرق، ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي، خاصة إذا أخذ بالحسبان تلك المصانع الضخمة التي تحتاج المواد الخام المذخورة في بلاد الشرق، والحاجة إلى أسواق استهلاكية مناسبة لتصرف بضائعها، فكان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى الجهة التي تحل جميع هذه المشكلات.

- الهدف العلمي، فقد كان لدى المسلمين أسس العلم الذي بنت أوروبا نهضتها الحديثة عليه عن طريق المستشرقين، الذين أوكلت إليهم مهمة ترجمة قوائم كبيرة من كتب الحضارة العربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تذكر إسهامات بعض المستشرقين القيمة والقليلة نسبياً تجاه حضارة الشرق وتراثهم.

- الهدف السياسي الاستعماري، حيث قدم المستشرقون معلومات موسعة ومفصلة عن الدول التي رغب الغرب في استعمارها والاستيلاء عليها، فخدموا بذلك سياستهم التوسعية.

- الهدف الثقافي، والمقصود منه نشر الثقافة الغربية بين المسلمين، وصبغ البلاد العربية والإسلامية بالطابع الثقافي الغربي^(١).

أما إذا اقتصر الحديث على مسألة جمع القرآن خاصة، فإن ما يطمح إليه المستشرقون من دراسة هذا الموضوع ما يأتي:

- ييغون الوصول إلى أن القرآن الكريم لم يحفظ كله في الصدور حين الحديث عن حفظه، ليؤكدوا نظرية تسرب الخلل إليه، بسبب اختلاف المرسوم أولاً، ولندرة وسائل الكتابة وصعوبتها ثانياً.

- محاولة تقرير مسألة التشابه المفترض بين القرآن الكريم وكتب أهل الكتاب السابقة من حيث ظروف النشأة وما تلاها من مراحل، إذ يستوجب اعتقاد مثل ذلك القول - ضمناً - بتعرض القرآن الكريم للتغيير والتبديل.

^١ - ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣ / ١٩٨٥م، ص ٢٠-٢٥.

- محاولة إظهار مرحلة جمع القرآن في مصحف زمن عثمان ؓ، بأنها منعطفٌ خطيرٌ، وحدثٌ شائكٌ، يطعنُ في نزاهة النص القرآني وسلامته.

- الانطلاق في دراسة القرآن الكريم من قاعدةٍ وضعها المستشرقون نصب أعينهم واستيقنوا بها، وهي أنه كتاب محرف عبثت به أيدي البشر، وتعرض للزيادة والنقصان لأغراض دينية أو سياسية.

- كانوا يأملون من مس هذا الجانب من تاريخ القرآن الكريم هدم الإسلام وتدمير عنوانه الكبير، وقتله بسلاح غير سلاح القتال وهو الاستشراق، على نحو سريع وفعال أكثر من مس غيره من جوانب الإسلام.

- يسعون للنيل من الصحابة الأبرار ؓ، ويشككون في أمانتهم وأخلاقهم، من خلال التأكيد على عدم اهتمامهم بالقرآن، وتضييعهم للأمانة التي كانت بحوزتهم.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المبحث الثاني: عناية الاستشراق الألماني بالدراسات القرآنية

قدم الاستشراق الألماني إسهامات ملحوظة في مجال الدراسات القرآنية جعلته يحتل دور الصدارة في الغرب بأكمله، يظهر هذا الدور من خلال التأثير الواسع في البحوث الاستشراقية في هذا المجال، فالدراسات الألمانية أضحت مرجعاً وعمدة لكل المستشرقين في كل ما يتعلق بشؤون القرآن، كما أن اللغة الألمانية ساعدت كثيراً في دعم هذا الجانب بسبب قوتها في مجال الدراسات الاستشراقية^(١).

وستجمل الدراسة - فيما يأتي - الحديث حول نشأة الاستشراق الألماني وأشهر مستشرقيه، وحول الجهود الألمانية في الدراسات القرآنية.

المطلب الأول : نشأة الاستشراق الألماني وأشهر مستشرقيه .

الفرع الأول: نشأة الاستشراق الألماني

بعد الاستشراق الألماني أحد أفراد الاستشراق الأوروبي الذي لم يتفق المؤرخون على فترة محددة لظهوره، إذ شمل اختلافهم مراحل متعددة من تاريخ الإسلام، فعلى حين يرجعه بعضهم إلى زمن الرسول ﷺ، حيث هجرة المسلمين إلى الحبشة، وبعث الرسل إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، وغزوة مؤتة التي كانت أول احتكاك عسكري مع النصارى، فإنه يذكر بعضهم أنه ظهر في القرن الثاني الهجري أيام الدولة الأموية، إذ ترعرع في الشام على أيدي الراهب يوحنا الدمشقي، ويعود به آخرون إلى الحروب الصليبية وما استقر في أذهان الصليبيين وقتها من صعوبة هزيمة المسلمين عسكرياً، كما يرى غيرهم أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس، هو السبب المباشر لانطلاقته، ويذهب غيرهم إلى أن بدايته كانت بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام (١٣١٢)م، وغيرها من الأقوال التي لا يعني هذه الدراسة - كثيراً - مناقشتها أو الخوض فيها بتوسع^(٢).

^١ - هناك مستشرقون تركوا لغتهم الأم وتبنوا اللغة الألمانية لنتاجهم العلمي، مثل جولدتسيهر المجري. ينظر: الاستشراق والدراسات القرآنية، للنملة، ص ٣٠.

^٢ - ينظر: الاستشراق، مازن مطبقاني، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، ٨/٢. وملاحظات على مساهمات المستشرقين في الدراسات القرآنية، شتيهان فيلد، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، ٢/١١.

لكن الجدير بالذكر أن كل هذه المظاهر نعدُّ من مقدمات الاستشراق، أو من قبيل إرهاباته، فبدايته الفعلية كانت في القرن السادس عشر حيث بواذر النهضة الغربية بشكل عام، وانطلاق العلاقة بين الألمان والمسلمين بشكل خاص، فقد سعى بعض مستشرقهم إلى تعلم وتعليم اللغة والخط العربيين، وقاموا بترجمة مخطوطات عربية في الفلك وابتدأت الطباعة بالحروف العربية، وتصدر المستشرقون آنذاك العديد من النشاطات الأكاديمية في الجامعات والمكتبات.

كما أنه تقدم كثيراً في القرن الثامن عشر، فيما يدعى بعصر التنوير الذي ظهرت فيه مواقف متسامحة تجاه القرآن، بسبب النزاع بين المتقنين والكنائس، ففي ألمانيا برزت أفكار جوته الداعية إلى تكافؤ الثقافات، وبالتالي إلى تكافؤ الأديان^(١).

وفي هذا القرن تصدرت المدرسة الفرنسية، التي تولى إدارتها المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي، معظم نشاطات الاستشراق، إذ قصدها المستشرقون من أنحاء أوروبا، ومن بينهم الجيل الأول من رواد مستشركي ألمانيا^(٢)، الذين اعتمدوا على المدرستين الفرنسية والإنكليزية كثيراً، وهؤلاء اهتموا بدراسة اللغة ونشر النصوص المحققة على نحو علمي فريد، وكان من نتاج مدرستهم، المستشرق وستفلد، الذي سجل شهرة وتفوقاً كبيرين في عهده.

واستمر الاستشراق الألماني في عهد هذا الجيل في الاهتمام بالمنهج اللغوي وتحقيق النصوص الذي أبدع فيه، إلى أن جاء جيل آخر اتخذ منحى أقرب إلى التاريخ الثقافي للإسلام، وكان ألفرد فون كريم^(٣) وتلميذه آدم ميتر^(٤) على رأس هذا الجيل.

١- ينظر: ملاحظات على مساهمات المستشرقين في الدراسات القرآنية، فيلد شتيفان، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، ٢/١١. وهي نظرة نسبية فسي التسامح، أي بالنسبة لمن سبقهم، وإلا فالمستشرقون عموماً عندما يتعرضون للإسلام وأصوله فإنهم يتعاملون معه بالمطارق لا بالأقلام.

٢- أمثال فلهم فرايتاغ، وهايزش فلايشر، وغوستاف فليغل.

٣ - (١٨٢٨-١٨٨٩)، ولد في فينا وتخرج في جامعاتها، عمل قنصلاً لدولته في مصر ثم في بيروت، عرف بجدته السياسي ونشاطه الاستشراقي، نشر جملة من كتب التراث، ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ١/٦٣٠.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت الدراسات النقدية حول الكتاب المقدس⁽¹⁾، كما نمت في ألمانيا الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم على أسس علمية نسبياً لا استعمارية، لأن مستعمرات ألمانيا كانت قليلة.

أثناء ذلك تأسست مدرستهم للغات الشرقية ببرلين عام ١٨٨٧، وظهر فيها عالمان كبيران ساعدا على التطور الجديد في الاستشراق الألماني، ألا وهما تيودور نولدكه، ويوليوس فلهاوزن⁽²⁾.

لكن توالى على ألمانيا تحولات سياسية وعسكرية كان لها أثر سلبي على المشروع الاستشراقي فيها، فالوحدة الألمانية تأخرت حتى عام ١٨٧٠، ونتائج الحرب العالمية الأولى ألقت بظلالها على جميع مناحي الحياة بما فيها العلمية، ودمرت الحرب العالمية الثانية أضخم مشروع أسس لتفسير القرآن الكريم في ألمانيا وهو في بداياته، حيث أتلفته بالكامل، فقد أنشئ في ميونيخ متحف للقرآن الكريم وذلك بعد أن قرر المجمع العلمي البافاري فيها جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه، وضبط قراءاته لنشرها، فتولى برجشترسير هذه المهمة الفريدة.

¹ - (١٨٦٩-١٩١٧) ولد في فرايبورج، وتخرج في جامعات ألمانيا، أستاذ اللغات السامية في جامعة بال بسويسرا، اهتم بالأدب العربي في العصر العباسي، ومن دراساته: (الدراسات الشرقية لنولدكه) ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٧٢٤/١.

2- يلاحظ أن الدراسات القرآنية عند المستشرقين قد تأثرت في بعض الأحيان بالمذهب المسيحي السائد في بعض البلاد الأوروبية، فالمدرسة الألمانية في الاستشراق تأثرت بالمذهب البروتستانتي الذي أهتم بنقد (الكتاب المقدس)، لينتقل هذا المنهج الجديد إلى الدراسات القرآنية، فأدخلت مصطلحات مثل: تاريخ النص، وتعدد المصادر، والنقد المصدري والنصي، وغيرها في دراسة القرآن الكريم، ومن أهم رواد هذا المنحى في المدرسة الألمانية: إيفالد، ونولدكه، وفلهاوزن، وهيرشفيلد، وفرانكيل، وشفالي، وبول كاله، وبرجشتراسر، وبريتسل.

3 - (١٨٤٤-١٩١٨) مؤسس علم (نقد الكتاب المقدس) ومؤسس (نقد القرآن الكريم). ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، ص ٤٠٨ - ٤١٠.

وقد جُمعت في ذلك المعهد آلاف النسخ من القرآن الكريم مطبوعاً أو مخطوطاً أو مصوراً، فُضِمَ المتخلف الصور الشمسية لسائر مخطوطات القرآن في أرجاء العالم، بالإضافة لآلاف المخطوطات باليد من جميع العصور، حتى ولو كانت ورقة واحدة، والمطبوعات الخاصة بتفسير القرآن وعلومه، وجعل لكل آية منه علبة خاصة يوضع فيها تفسير كل مفسر لها من عصر الصحابة إلى اليوم، بهدف المقارنة بين نصوص القرآن الكريم في مختلف نسخه المخطوطة، وتمّ تدوين كل آية في لوح خاص مع ما عُثر على كل رسم لها في مختلف المصاحف، وبيان قراءتها وتفسيرها المتعددة.

وقد بُذلت جهود كبيرة، وأنفقت أموال طائلة في تحضير هذا المشروع القرآني الذي حوى مخطوطات تعود للقرن الهجري الأول حتى القرن العشرين.

وبعد وفاة برجسترسير، انتدب المجمع المذكور بريتسل لاستكمال هذا المشروع.

ومن الغريب حقاً أن يتعرض هذا المعهد الذي خصصت له الجامعة جهوداً مادية وعلمية، ووفرت له جميع الوثائق اللازمة لمحاكمة النص أن يُدمر أثناء الحرب العالمية الثانية فيذهب هباءً منثوراً^(١).

وبعد الحرب الثانية فقد الألمان حقهم في امتلاك نسخة لدائرة المعارف الإسلامية التي هم أصحاب مشروعها، ولا ينسى بهذا الصدد الدور النازي في الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أهمل المشروع الاستشراقي ولم يهتم به.

وبعد صدور كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) الذي جمع فيه بين الاستشراق والاستعمار لم تعد تستعمل كلمة استشراق في ألمانيا، إذ يطلق عليه الاستعراب أو الدراسات الإسلامية.

وفي السنوات الأخيرة أخذ الاستشراق الألماني يركّز على دراسة اللغة المعاصرة، واللهجات العربية، ويهتم بمتابعة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية، وإقامة الندوات والمؤتمرات ذات الفعاليات المتنوعة، مثل مؤتمر الحوار العربي الألماني الذي أقيم في دبي في نهاية العام ٢٠٠٨م، وما يقوم به مركز جوته في الأردن من نشاطات ثقافية، إضافة إلى جهود الجامعات الألمانية على هذا

^١ - ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، بيروت: معهد الإنماء العربي، ط ١، ص ٢٠٠.

الصعيد، إذ يوجد في ألمانيا اليوم أكثر من خمس وعشرين جامعة تُعنى بالدراسات العربية والإسلامية، وتهتم بدراسة اللهجات العربية المحكية والأدب العربي المعاصر من شعر ونثر، وبالقضايا السياسية، والتيارات الفكرية، وبالقضية الفلسطينية، وبالمجتمع العربي والإسلامي^(١)، خاصة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

^١ - ينظر: المستشرقون، نجيب للعقيقي، ٦٧٩/٢ فما بعدها. وتاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ص ٥٤ فما بعدها.

الفرع الثاني: أشهر المستشرقين الألمان

كانت محطات نشأة مدرسة الاستشراق الألماني وتطورات مراحل تاريخها قد تأثر بفعل رواد هذه المدرسة، وسأعرض-هنا- بإجمال لعدد منهم:

١- يوهان جاكوب رابسكه (1716- 1774) مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا، اهتم بدراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية.

٢- جورج ولهلم فرايتاج (1788- 1861) تلميذ المستشرق الفرنسي دي ساسي، وأستاذ اللغات الشرقية بجامعة بون، له القاموس العربي اللاتيني أربعة أجزاء، اهتم بالشعر العربي القديم والإسلامي.

٣- غوستاف فلوجل (1802- 1870) تلميذ دي ساسي أيضاً، وصاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية.

٤- أرنولد (١٨٢٠ - ١٨٦٩) أستاذ العربية في جامعة هاله، نشر المعلقات السبع وذيها بالشروح والحواشي.

٥- هـ. إيفالد (1803- 1875) تلميذ دي ساسي، تخصص في فقه اللغة العربية واللاهوت، وقد تتلمذ عليه كل من يوليوس فلهاوزن وتيودور نولدكه.

٦- رودفي بارت (١٩٠١- ١٩٨٢) تخرج على يد المستشرق الألماني ليمان، له اهتمام خاص بالقرآن الكريم واللغة العربية وبعض الدراسات الإسلامية.

٧- فرانكيل (1855- 1909) تلميذ نولدكه، اهتم باللغات الشرقية، من آثاره كتاب (الكلمات الأجنبية في القرآن).

٨- يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤- ١٩١٨) مؤسس علم (نقد الكتاب المقدس) ومؤسس (نقد القرآن الكريم).^(١)

١ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ص ٢٦.

٩- فردريك شفالي (1863-1919) تخرج باللغات الشرقية على نولده، وأعاد طبع (تاريخ القرآن) لنولده في مجلدين، وقدم دراسة حول القرآن الكريم بمناسبة تكريم سخاو سنة ١٩١٥.^(١)

١٠- ثيودور نولده (1836-1930) تلميذ إيفالد، اهتم بالدراسات القرآنية، وبالشعر الجاهلي، وبقواعد اللغة العربية.

١١- كارل بيكر (1876-1933) ولد في أمستردام، تقلد منصب وزير الثقافة في بروسيا^(٢)، وشغل منصب أستاذ في معهد هامبورج الذي أنشئ لمساعدة الحكومة في التعامل مع الشعوب الشرقية، اهتم بدراسة التاريخ الإسلامي والأديان.

١٢- إد مالير (1857-1945) عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، اهتم باللغة العربية وعلومها، ومن أهم أعماله في مجال القرآن الكريم، (دليل القرآن)، اهتم بالفن الإسلامي.

١٣- كارل بروكلمان (1868-1956) صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي)، وتلميذ المستشرق نولده، اهتم بدراسة التاريخ الإسلامي.

١٤- هيلموت ريتز (1892-1971) درس على المستشرق الألماني بيكر، صاحب التحقيقات المتنوعة والمهمة، ومؤسس المكتبة الإسلامية بألمانيا عام ١٩١٨، عني بالثقافة الإسلامية^(٣).

١٥- أنا ماري شميل، مستشركة معاصرة، ولدت سنة (١٩٢٢) تجيد العديد من لغات المسلمين، اهتمت بدراسة الإسلام، وحصلت على جائزة السلام لأسلوبها المبدع، وكانت قد ترددت أنباء عن إسلامها، غير أنها لم تشهر إسلامها حتى وفاتها، ويصفها المفكر عبد الحلیم خفاجي في معظم كتبه بـ"مؤمنة آل فرعون"^(٤).

^١ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ص ٢٦.

^٢ - إحدى الولايات الألمانية.

^٣ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٢ / ٦٧٩ فما بعدها. وموسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي. وفلسفة الاستشراق، أحمد سمايلوفتش، ص ٢٢٣. والاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، ص ٣٣ فما بعدها.

^٤ - ينظر: مجلة دنيا الوطن، زاوية دنيا الرأي، مقال بعنوان: شميل عميدة الاستشراق الألماني، محمد سيف الإسلام، عدد ٢٩/٧/٢٠٠٥.

المطلب الثاني: جهود المستشرقين الألمان في دراسة القرآن الكريم وجمعه.

بغض النظر عن الدوافع والأهداف المقصودة من أعمال المستشرقين فإنهم قد بذلوا -لا شك- جهداً لا ينبغي تجاهله، يتعلّق بتراثنا العربي والإسلامي^(١)، تمثل هذا الجهد بحفظ المخطوطات العربية والإسلامية وتحقيقتها، وتأليف الكتب والدراسات حول الفكر العربي والإسلامي، وترجمة الأدب العربي إلى مختلف اللغات العالمية ومنها اللغة الألمانية، وتأسيس المجالات، وإنشاء متاحف التي تعنى بذلك.

وبهذا الصدد يذكر إسهام أدوات الاستشراق الألماني ومراكزه المنتشرة في أنحاء العالم، مثل: (المعهد الألماني للأبحاث الشرقية) الذي أنشأته جمعية المستشرقين الألمان في بيروت عام ١٩٦١، فقد اصدر هذا المعهد عشرات النصوص العربية المحققة، ومئات الكتب المؤلفة بالألمانية والانكليزية، وأقام المؤتمرات العلمية المتخصصة والمواسم الثقافية السنوية.

أما ما يخص القرآن الكريم، فقد كان انشغال المدرسة الألمانية بالنص القرآني متميزاً عن باقي جهود المستشرقين الآخرين، إذ تناول جمع منهم موضوعات متنوعة منه بالبحث والدراسة، شملت عقائده وتشريعاته وقصصه وبلاغته وإعجازه وغيرها، حتى ذكر بلاشير أنه "بفضل نولدكه ومدرسته، أصبح ممكناً من الآن فصاعداً، أن نوضح للقارئ غير المطلع، ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بتوعية، وليتخطى القلق الذي ينتابه في اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض"^(٢).

ولعل الاستشراق الألماني أوفر المدارس الاستشراقية نصيباً من ناحية التركيز على الدراسات القرآنية، وذلك لتقدم ألمانيا في المجال العلمي الإنساني قبل الحرب العالمية الأولى ولنزوع مدرسة نولدكه نحو تحقيق النصوص القرآنية ونشرها^(٣).

١ - فمثلاً يقول الدكتور صلاح الدين المنجد: "إن المستشرق الألماني وستفلد نشر من تراثنا القديم ما يعجز عنه مجمع علمي". ينظر: المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، صلاح الدين المنجد، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م، ص ١٠٩.

٢ - بلاشير، القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ترجمة رضا سعادة، ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤، ص ٢١.

٣ - الصغير، محمد علي حسين، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص ١٦٦.

ويمكن إدراج جهود المستشرقين الألمان في مجال دراسة القرآن الكريم ضمن الميادين

الآتية^(١):

١. ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية، سواء كانت هذه الترجمة مقبولة أم مرفوضة، وهو أوسع ميدان خاضه المستشرقون عامة مما يتعلق بالقرآن الكريم منذ وقت مبكر.

أما الألمان منهم فإن أقدم ترجمة لديهم، هي ترجمة شفايجر لمعاني القرآن الكريم، عام (١٦١٦م)، في مدينة نورنبرج، ثم ترجمة دافيد فريدرش ميجران، سنة ١٧٧٢م، ثم تلتها ترجمة أوبرهارد بوزين صدرت بعدها بعام في مدينة هاله، ثم ترجمة فاهل، ١٨٢٨م^(٢)، ثم ترجمة ليون أولمان (كاهن يهودي) عام (١٨٤٠م) في مدينة كريفلد، وبعدها بعام ترجمة جوستاف فلوجل ١٨٤١م، ثم ترجمة فريدرش ريكارت ١٨٦٦م، وكانت ترجمة شعرية، حققها ونشرها هارتمت بوبنسين، الأستاذ بجامعة إرلنجن بألمانيا عام (١٩٩٥م)، ثم ترجمة لانسروس جولدشميت عام (١٨٩٣م) في برلين، وهو كاهن يهودي أيضاً.

ومن أهم الترجمات الألمانية الحديثة ترجمة ماكس هيننج الصادرة عام (١٩٠١م)، وترجمة رودي بارت عام (١٩٦٦م)، وترجمة هانز تسيركر^(٣) عام ٢٠٠٣م.

وإذا كانت هذه آخر ترجمة ألمانية لمعاني القرآن، فإن عدد الترجمات الألمانية تطاول الثلاث وأربعين ترجمة تقريباً.

٢. الكتابة حول القرآن الكريم وعلومه، بما في ذلك ما يتعلق بمسألة تاريخه وجمعه، وقد جاءت على شكل نشر وتحقيق النصوص القديمة المتعلقة به، أو من خلال تصنيف الأبحاث والكتب المستقلة ذات الصلة بالقرآن الكريم وعلومه، ويعد هذا الجانب من الموضوعات التي أولاه المستشرقون الألمان عناية لا مثيل لها، وقدموا تجاهها جهوداً كبيرة لا يمكن -هنا-

^١ - عذ الصغير ما يتعلق بتاريخ القرآن الكريم هو الأول من حيث الأهمية. ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٦. لكن من يطالع واقع الجهد الاستشراقي سيشعر بأولية الترجمة القرآنية من هذه الزاوية.

^٢ - ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ٣٠٣.

^٣ - وهو أستاذ متفرغ في اللاهوت وعلوم القرآن بجامعة أيسن ودويسبورج، له كتابات أصيلة عن القرآن الكريم وتأويله وترجمته.

حصرها، وهذه قائمة ببعض الدراسات الاستثنائية الألمانية حول القرآن الكريم بهذا الخصوص:

- (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) المسمى: (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، وضعه المستشرق جوستاف فلوجل عام ١٨٤٢م.
- (القصص التوراتي في القرآن) ، هاينز شبييار صدر عام ١٩٣١م.
- (تاريخ القرآن)، الذي كان يدعى (أصل وتركيب سور القرآن).
- (القرآن الرسمي بالنظر إلى قراءة أهل مصر)، نشر بالمجلد العشرين من مجلة الإسلام، كلاهما للمستشرق تيودور نولدكه.
- (تاريخ علم قراءة القرآن).
- (مراجع القرآن وعلومه).
- (معاني القرآن) لابن منظور، تحقيق، نشر بمجلة إسلاميكا.
- (المتشابه في القرآن) للكسائي تحقيق، كلها للمستشرق بريتل.
- (النبوة في القرآن).
- (الأسماء والأعلام في القرآن).
- (اشتقاق لفظ القرآن)، كلها للمستشرق هوروفيتش.
- (دليل القرآنية)، للمستشرق مالير.
- (فهرست تفسير الطبري)، للمستشرق هوسلاتير.

- (القرآن والعربية)، للمستشرق كاله (١)، نشر بمناسبة ذكرى جولد تسيهر ١٩٤٨م.
- (الكلمات الأجنبية في القرآن)، رسالة دكتوراه للمستشرق فرانكيل، ليدن ١٨٧٨م.
- (مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن)، للمستشرق جوستاف فايل
- (مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن) نشر بمجلة الشرق المسيحي ١٩٥٣م.
- (النصرانية واليهودية في القرآن)، نشر بمجلة الإسلام ١٩٢٧م، كلاهما للمستشرق بومشتارك (٢).
- (مشروع لاستعمال أسلوب النقد في نشر القرآن)، عام ١٩٣٠م.
- (معجم قراء القرآن وتراجمهم)، نشر عام ١٩١٢م.
- (مشروع حواش على القرآن). نشره في ميونيخ عام ١٩٣٠.
- (قراءة الحسن البصري للقرآن)، نشر في مجلة اسلاميكا العدد الثاني عام ١٩٢٦م، كلاهما للمستشرق برجسترسر.
- (تاريخ القرآن)، الجزء الثالث بالاشتراك مع أوتوبريتسل، لايبزج عام ١٩٣٨م.
- (قواعد لغة القرآن في دراسات نولدكه)، للمستشرق كارل بيكر (١) نشر في مجلة الإسلام عام ١٩١٠م.

١ - (المولود ١٨٧٥) تخرج باللغات الشرقية في جامعات ماربورج وهاله وبرلين، من آثاره (نصوص سامرية)، و(النظم العربي والقرآن)، وغيرها. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، ص ٤٥٢-٤٥٦.

٢ - بومشتارك، مستشرق ألماني، مولود عام (١٨٧١) كتب في تاريخ فلسطين، المستشرقون، نجيب العقيقي، ص ٧٥٦/٢.

- (بحث في تفسير القرآن للمستشرق) هارتمان، مجلة الدراسات الشرقية ١٩٢٤م.

- (أسرار التأويل وأنوار التنزيل)، للبيضاوي، تحقيق المستشرق فرايتاج (٢).

هذه قائمة ببعض جهود المستشرقين الألمان في هذا الميدان، ذكرت على سبيل التمثيل لا الحصر، ويلاحظ عليها من خلال أسماء العناوين أنها مكتوبة قرآنية علمية متخصصة.

٣. القيام بأعمال ميدانية تركزت حول القرآن الكريم، مثل إقامة الجامعات والمعاهد والمراكز التي تعنى بتعليم اللغة العربية وما يتصل بالقرآن، والبحث في الآثار، وإنشاء المتاحف التي تطلع غير المسلمين على اللوحات الفنية المبدعة، والمصاحف النادرة، أوضح مثال لذلك مشروع ترميم حوالي ألف مخطوطة للقرآن الكريم عام ١٩٧٢م، التي تعود للمتحف الوطني في صنعاء، وكانت من مقتنيات الجامع الكبير، وتأتي أهمية ترميمها من كونها قديمة، تعود للقرن الأول أو الثاني الهجري، فهي تفيد في حصر التحسينات والتطورات المضافة إلى المصحف، وتؤكد مسلمة لا مناص منها، تذكر المشككين بسلامة النص القرآني.

ولا ينسى في هذا الصدد أعمال جمعية المستشرقين الألمان، أبرز الجمعيات الاستشرافية في العالم التي أسست لتضاهي الجمعيتين الفرنسية والبريطانية، على يد

١ - (١٨٢٨-١٨٨٩)، ولد في فينا وتخرج في جامعاتها، عمل قنصلا لدولته في مصر ثم في بيروت، عرف بجهده السياسي ونشاطه الاستشراقي، نشر جملة من كتب التراث.

٢ - لمعرفة هذه الدراسات وتراجم أصحابها يراجع: موسوعة المستشرقين، بدوي عبدالرحمن، مرتب حسب الأبجدية. والدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشيل جحا، ص ١٨٦ فما بعدها. والمستشرقون، نجيب العقيقي، ص ٦٩٢-٧٩٠. والدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه برودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة دار نولدكه العربي، ١٩٦٧م، ص ١١٣. والمستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، المنجد، بيروت دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م ص ١١٩. وتاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ص ٢٥٢ فما بعد.

المستشرق فليشر^(١) سنة ١٨٤٥م، ومن ذلك الحين قدمت العديد من الجهود والنشاطات، منها: إقامة المؤتمرات الدورية، ونشر الكتب والمجلات، وعلى رأسها مجلة المستشرقين الألمان، التي احتفظت بإسهام كبار المستشرقين الألمان، منذ سنة ١٨٤٧م إلى اليوم.

أما ما يخص موضوع جمع القرآن الكريم، فقد عني به المستشرقون الألمان عناية فائقة، إذ خصصوا له مصنفات مستقلة تارة، وبحثوه ضمن دراسات عامة تتعلق بالقرآن تارة أخرى. ومن جهودهم فيه:

- (جمع القرآن) لمؤلفه: جون جلكرايست.
 - الجزء الثاني من كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، عدله فيما بعد شفالي، وعنوانه: (جمع القرآن).
 - إسهامات المستشرقين الألمان في دوائر المعارف الغربية، عند تحرير مادة قرآن، كمشاركة نولدكه في هذا الحقل بدائرتي المعارف؛ الإسلامية والبريطانية^(٢).
 - مصنفات المستشرقين الشاملة لنواحي الحضارة الإسلامية المختلفة، حيث عرضوا لموضوع جمع القرآن، إما بالتفصيل أو بالإجمال، مثل كتاب (تاريخ الأدب العربي) لمؤلفه المستشرق: بروكلمان.
- وبهذه النبذة القصيرة يتبين أن جهود المستشرقين في مجال الدراسات القرآنية كبيرة وذات أثر ولا يمكن تجاهله، فقد كان انشغالهم بهذا الجانب متميزاً وواضحاً.

١ - (١٨٠١-١٨٨٨) مستشرق ألماني درس اللاهوت فألم بالشرق إمامة حبيبته إليه، تعرف إلى دي ساسي والتحق بمدارسه وحينما عاد إلى ألمانيا عين أستاذاً للغات الشرقية في جامعة درسدن. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق - يوهان فوك، مرجع سابق - ص ١٧٦ - ١٨٠.

٢ - يراجع: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٤.

المبحث الثالث: التعريف بـ (نولدكه) وكتابه (تاريخ القرآن).

المطلب الأول: التعريف بـ (نولدكه).

الفرع الأول: جانب من حياته:

تيودور نولدكه: ١٨٣٦ - ١٩٣٠، ولد في هاربورج (بألمانيا) وتعلم في جامعات غوتنجن وفيينا ولبدن وبرلين، وُصف بأنه يتمتع بفكر ثاقب وألمعية، وسرعة التقاط وذاكرة قوية، تعد الفترة التي تولى فيها إدارة الدراسات الاستشراقية في ألمانيا، عصراً ذهبياً للاستشراق الألماني، حتى أضحت مدينة ستراسبورغ في نهاية حياته حاضرة الاستشراق الأوربي كله، بل عمدة في مجال الدراسات القرآنية كاملة، وما ذلك إلا لما كان يتمتع به نولدكه من قدرة علمية فائقة، جعلت منه مالكاً حقيقياً لكل إبداع في هذا المجال. بل هو أحد أبرز اثنين من نتاج مدرسة إيفالد النقدية التي أرسى دعائمها دي ساسي، وكان إيفالد -التلميذ المباشر لدي ساسي- أول من طبق هذا المنهج المستمد من نقد العهد القديم على الدراسات الإسلامية والقرآنية^(١).

تلمذ عليه عدد من كبار المستشرقين مثل زاخاو^(٢)، وبروكلمان، وياكوب^(٣)، وشوالي.

وفي سنة ١٩٢٠ انتقل إلى مدينة كارلسروه (منطقة الرين الأعلى) حيث أمضى فيها ما بقي من عمره تحت رعاية ابنه الذي كان آنذاك مديراً للسكك الحديدية، إلى أن توفي في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠^(٤).

^١ - ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ص ٢٢٥. وموسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي ص ٥٩٥. والمستشرقون الألمان، صلاح الدين المنجد، ١١٥-١٢٥.

^٢ - (١٨٤٥-١٩٣٠) مستشرق ألماني، أستاذ كرسي في عدد من الجامعات، أسس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة ١٨٨٨م، ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٧٤٠/٢.

^٣ - (١٨٦٢-١٩٣٧) مستشرق ألماني، نال الدكتوراه من لبيزيغ سنة ١٨٨٧، مؤسس الدراسات التركية في ألمانيا، له آثار كثيرة في مجالات شرقية متعددة، ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٧٥٢/٢.

^٤ - ينظر: ترجمته في: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٣٧٩/٢ - ٣٨٢. وتاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ص ٢٣٢. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ٥٩٥ - ٥٩٨. والدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، ص ١٩٥.

الفرع الثاني: سيرته العلمية:

النشأة التي واكبت حياة نولده منذ صغره هيأت له امتداداً علمياً متميزاً على مستوى المستشرقين، فقد ترعرع في أسرة تقلد أفرادها مناصب علمية وإدارية، فدرس اليونانية واللاتينية على والده، وهضم قدراً كبيراً من الآداب اليونانية، فلما التحق في كلية غوتنجن سنة ١٨٥٣، أتقن ثلاث لغات سامية هي: العبرية، والسريانية، والعربية، كما استفاد من إيفالد في إتقان الفارسية والتركية والسنسكريتية، ومن وقتها أصبح عضواً فعالاً في الاستشراق، فلم يعرف من المعاصرين له من بلغ تحقيقه.

كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرمية والصابنية والحيشية وغيرها، وله تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسن، فضلاً عن معرفته بلغات الغرب، كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية^(١)، لذا يعدّ بحق محيي الدراسات المنثورة رداً من الزمن كالتركية والإيرانية.

وفي سنة ١٨٥٦ حصل على الدكتوراه ولما يتجاوز بعد العشرين من العمر، برسالة له عنوانها " أصل القرآن وتركيب سوره "، وفي سنة ١٨٦٠، ترجم رسالته هذه من اللاتينية للألمانية وأصبح عنوانها " تاريخ القرآن "، وهو موضوع هذه الدراسة، ثم توسع فيها كثيراً فيما بعد بالتعاون مع تلميذه شفالي.

ثمت مظهر واضح لنشاطه ومكانته العلمية هو رحلاته المتعددة لاستكمال دراسته والوقوف على المخطوطات، حيث ارتحل إلى ليبزيغ وليندين وجوتا وبرلين، كما كانت له زيارة إلى فيينا سنة ١٨٥٦، تمكن خلالها من الاطلاع على المخطوطات العربية، فضلاً عن اتصاله برموز المستشرقين الهولنديين من أمثال: (رينهارت دوزي^(٢)) وغيره، تقلد نولده مناصب علمية مرموقة، فقد عُيّن مُعيداً في جامعة جوتنجن سنة ١٩٦١ كلفه إيفالد بتدريس شرح العهد القديم واللغة العربية ونحوها.

١ - الزركلي، خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين بيروت، ط ٦ ١٩٨٦ م ٢ / ٩٦.

٢ - (١٨٢٠-١٨٨٣)، ولد في ليندن من أصول فرنسية، ذو شهرة واسعة، يعد أول فاتح للدراسات الأندلسية، أتقن العديد من اللغات العالمية، نال عدداً من الجوائز والأوسمة والألقاب بنظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ١٧٩/١.

وفي جامعة كييل (١٨٦٤ - ١٨٧٢) حصل على لقب أستاذ كرسي اللغات السامية
والسنسكريتية. ثم عُين أستاذاً للغات الشرقية في جامعة ستراسبورغ بين ١٨٧٣ و١٩٢٠. ولما
أصبحت المدينة فرنسية بعد الحرب العالمية الأولى؛ فإن أحداً لم يجرو على طرده منها؛ لكونه
جعل من ستراسبورغ مركزاً للاستشراق الأوروبي في تلك الحقبة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفرع الثالث: أعمال نولدكه وآثاره

نولدكه مستشرق موسوعي له آثار متنوعة وكثيرة، إذ فاقت أعماله السبعمائة ما بين كتاب وبحث، فقد أسهم في مجالات مختلفة سوى القرآن وعلومه كالمعجم العربي، والشعر والنحو العربيين، والتاريخ الإسلامي، والسيرة النبوية، ويعزى أسباب ذلك لما يأتي:

— عمره المديد (٩٤ سنة).

— إتقانه للغات عالمية متعددة.

— رحلاته المتكررة واطلاعه الواسع على أهم المخطوطات في اللغات السامية.

— دراسته للقرآن الكريم وللشعر الجاهلي دراسة متعمقة^(١).

— تطبيقه لمنهج تحليلي دقيق خاص به في تعامله مع النصوص، مما أحدث له ضجة في أروقة بعض الجامعات^(٢).

كل هذا، أثرى نتاج نولدكه ونما دراساته كثيراً خاصة في مجال القرآن الكريم، مما حدا بالمستشرق بيكر أن يعد فهرساً لأعماله في مجلة الإسلام ضمنها مئات العناوين.

ومن آثاره في مجال القرآن الكريم: أطروحته للدكتوراة (تاريخ النص القرآني) وهو الكتاب الذي جاءت هذه الدراسة بصدد نقد الجزء الثاني منه^(٣).

وله مقالة بعنوان: (القرآن الرسمي بالنظر إلى قراءة أهل مصر)، طبعة بولاق ١٩٢٤. نشرها في مجلة الإسلام ج ٢٠^(٤).

١ - ينظر: موسوعة المستشرقين عبد الرحمن بدوي، ص ٥٩٥.

٢ - مثل ما حدث في جامعة كييل عندما طبق منهجه في دراسة العهد القديم. ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ نولدكه)، رودي بارت، ص ٦٢.

٣ - وسيأتي التعريف به بشكل موسع بعد قليل في المطلب الثالث.

٤ - ينظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٤١/١.

وله أيضاً دراسات في لغة القرآن نشرت بعنوان: (مقالات جديدة في علم اللغات السامية) ١٩١٠. واشتملت على الموضوعات الآتية: (القرآن والعربية: خصائص أسلوبية) و(خصائص تكوين الجمل في لغة القرآن) و(كلمات أجنبية مستعملة عن عمد وعن غير عمد في القرآن)^(١). وفيما يخص المعجم العربي، فقد بحث (يورج كرايمر J. Kraemer) (١٩١٧- ١٩٦١) ملحوظات نولده على نسخته الخاصة من (معجم فرايتاخ G. Fretag) (١٧٨٨- ١٨٦١)^(٢)، ونشرها في "معجم استشهادات للغة العربية الفصحى"^(٣).

وله في مجال الشعر العربي كتاب: (مختارات من الشعر العربي) وهو ما يزال معتمداً في الجامعات الغربية كما ذكر رودي بارت^(٤)، وكتاب: (أبحاث لمعرفة شعر العرب القدماء). وفي مجال النحو العربي له كتاب: (في نحو اللغة العربية الفصحى).

وكتب في مجال السيرة المحمدية كتاب: (حياة محمد عرض مبسط).

وفي مجال التاريخ الإسلامي له كتاب (تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين) واشترك مع ولهاوزن وجولدتسيهر في إعداد كتاب (تاريخ العالم للمؤرخين) والذي صدر في بداية القرن العشرين في نيويورك^(٥)، وغيرها.

-
- ١ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد الصغير، ص ٣٠
 - ٢ - وهو معجم لاتيني في أربعة أجزاء، نشره في هاله : (١٨٣٠ - ١٨٣٧).
 - ٣ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٤٦٦/٢
 - ٤ - ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ص ٦٢.
 - ٥ - ينظر: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، فاروق عمر فوزي، ص ٥٦.

المطلب الثاني: مكانة تولدكه في الاستشراق الألماني

يشير سجل حياة تولدكه -الذي تقدم طرف منه- إلى مجد أثيل بين المستشرقين، امتطى صهوته منذ ريعان شبابه فمنحه مكانة سامية، جعلته محط أنظار مدارس الاستشراق ودوائره على نطاق واسع بشكل عام، فالمطالع لمواد دائرة المعارف الإسلامية -مثلاً- يلمس شيئاً من هذه الظاهرة بوضوح، فلكرائه الصدارة في كل ما يتعلق بالقرآن، وعلى نطاق المدرسة الألمانية بشكل خاص، إذ غدا من أكابر المستشرقين الألمان، وأحد أقطاب الاستشراق الألماني المشهورين، حتى لقب بشيخ المستشرقين الألمان^(١)،

من أجل هذا كله، وصف بأنه راسخ القدم في العلوم القرآنية، وأنه أرسى قواعد البحث العلمي للدراسات القرآنية التي جاءت من بعده، ولا غرابة في ذلك فهو وارث التركة الساسية بجدارة، وقسمها مع صنوه فلهاوزن، وإن كان بواسطة إيفالد، ولعل الصبر والجد والمثابرة والتضحية والتميز في الأسلوب والقدرة على الإبداع، تدخل ضمن أوصاف لمسها شركاؤه منه جراء العمل الميداني المشترك، فأسهمت في تبلور شخصيته على هذا النحو، فإذا ما أضيف لذلك جهوده في حقل الدراسات القرآنية، وعنايته الخاصة بالنص القرآني، أدركنا بجلاء سر شهرته ونبوع أمره.

ثمة أحد أهم مظاهر التميز المنسوب له، يتضح من خلال تقليده والسير على خطاه من قبل أفراد مدرسته، حتى عدت بعض أفكاره مسلمات، يتناقلها اللاحقون وينطلقون منها، ولو كانت غير قطعية أو من قبيل الأخطاء، ذلك لأنه في عداد المستشرقين الألمان العظام، على حد قول العربي:

إذا قالت حذام فصدقوها _____ فإن القول ما قالت حذام^(٢)

ولأنه يتمتع بقوة نفوذ واسعة، دمغت الأبحاث الاستشراقية أكثر من سبعين سنة بطابع شخصيته، وستعرض الدراسة- إن شاء الله- لشيء من هذا بتوسع أكثر فيما بعد^(٣).

١ - لقبه بذلك عبد الرحمن بدوي، ينظر موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي: ص ٥٩٥.

٢ - قيل: هذا البيت لدمسيم بن طارق، أحد شعراء الجاهلية، وقد جرى مجرى المثل، وصار يضرب لكل من يعتد بكلامه، ينظر: شرح ابن عقيل، ١/١٠٥.

٣ - عند الحديث عن أثر تولدكه فيمن جاء بعده في الفصل الرابع.

المطلب الثالث: التعريف بكتاب (تاريخ القرآن).

كانت نواة هذا الكتاب أطروحة دكتوراه، تقدم بها نولدكه سنة ١٨٥٦ بعنوان: "أصل القرآن وترتيب سوره"، نال بها مرتبة الشرف الأولى، لينتقد بها فيما بعد للحصول على جائزة مجمع الكتابات والآداب في باريس، فارتحل من أجلها وتوسع فيها، وأصبح عنوانها الجديد: "تاريخ القرآن"، تقاسم الجائزة هو وشبرنجر^(١) والمستشرق الإيطالي أماري^(٢) سنة ١٨٥٨، ثم قام بترجمتها من الفرنسية إلى الألمانية، واختار لها عنواناً جديداً هو: "تاريخ النص القرآني"، ليستهلك فيما بعد جهود ثلاثة أجيال من العلماء الألمان، مستغرقاً ما يزيد على السبعة عقود، بين الإعداد والترجمة والتصحيح والتحقيق، فمهمة إخراج هذا الكتاب الضخم أوكلت للمدرسة الألمانية التي فاقت جميع المدارس الأوروبية وقتها، حيث قام بهذا العمل ثلاثة من رواد الاستشراق الألماني ورموزه، فقد أعده للطبع المستشرق شفالي وتمكن من تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين نشر (ليبزج ١٩٠٩)، إلا أنه مات قبل معاينته، فقام المستشرقان برجشتراسر وبريتسل بنشر الجزء الثالث منه في ليبزج ١٩٣٥، ثم أعاد طبعه منقحاً عام ١٩٣٧.

يعد كتاب (تاريخ القرآن)، أهم كتب نولدكه على الإطلاق^(٣)، فهو أخطر وأهم وأوسع كتاب استشراقي يتعلق بالقرآن، حتى أصبح أصلاً في هذا الباب، فهو فوق تضمنه عصارة جهود أجيال متعاقبة، فإنه سجل شامل لموضوعات مهمة تتصل بالقرآن الكريم منذ نزول الوحي إلى القرن الميلادي التاسع عشر، وخاصة الجزء الثاني منه، لأنه يعطي الباحث كل ما يتطلبه من مؤلف علمي في موضوع جمع القرآن والمسائل المتصلة به^(٤)، وبالتالي فهو أخطر بحث أنجز في الدراسات الألمانية في بابيه؛ لما كان له من تأثير وإشعاع، وحضور دائم في كل الدراسات التي تعرضت بعده للقرآن الكريم^(٥).

١ - (١٨١٣-١٨٩٣) ولد في التيرول، تعلم في انسبورك وفيينا وباريس ورحل إلى لندن وتجنس بالجنسية البريطانية، اهتم بالطب العربي والسيرة النبوية وعلوم القرآن، موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ٢٨-٣٣.

٢ - أماري (١٨٠٦-١٨٨٩) مستشرق علماني إيطالي، ولد في بالرمو، تمتاز مصنفاًه بالجدة والعمق النسبي والسعة. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ٥١-٥٣.

٣ - ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودى بارت، ص ٢٧.

٤ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٣.

٥ - ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، ص ١٩٨.

اشتمل الجزء الأول منه على أصل القرآن الكريم، فُعرض للوحي ومصدر القرآن، والمكي والمدني من السور، مقسماً لها ثلاثة أقسام مكية، وواحداً مدنياً، حسب الأسلوب والمضمون، ذاكراً مميزات كل منها.

أما الجزء الثاني فخصصه لدراسة مسائل جمع القرآن الكريم كملابسات نزوله، وتدوينه، واختلافات مصاحف الصحابة رضي الله عنهم، ومعاني فواتح السور، وملحق بمصادر ما تقدم من كتابه.

وهذا القسم يعطي كل ما يتطلبه الباحث من مؤلف علمي بهذا الحجم في موضوع جمع القرآن والمسائل المتصلة بذلك^(١) وهو ما استقلت بعرض بنوده ونقدها، هذه الدراسة المتواضعة.

وخصص الجزء الثالث منه لمعالجة تاريخ نص القرآن، مستعرضاً القراءات القرآنية وبعض أسماء القراء، والرسم القرآني وخصائصه... الخ

لقد ألف هذا الكتاب على نحو جعله يحظى بتقدير واحترام فائقين من قبل المستشرقين عموماً، حتى قال عنه المستشرق رودري بارث: "على من يريد الاشتغال علمياً بالقرآن على أي نحو أن يعتمد على كتاب نولده - تاريخ القرآن - ذلك الكتاب الذي سيظل حافظاً لقيمه العلمية على مر الأيام"^(٢). وقال عنه المستشرق يوهان فوك: "أحدث هزة كبرى، وفي هذه الرسالة عولجت مسائل نشوء القرآن وجمعه ووصوله بحصافة، وفي معرض المناقشة النقدية للسور حقق لسائر مباحث القرآن التاريخية أساساً متيناً"^(٣) أما الزنجاني فيعتبره "من أهم ما ألفه الإفرنج في تاريخ القرآن؛ إذ بحث فيه صاحبه بتضلع عميق، وحاول أن يكون موضوعياً بقدر الإمكان"^(٤).

١ - الصغير. محمد حسين، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص ٢٣.

٢ - بارث. رودري، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولده، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة: دار نولده العربية، ١٩٦٧م، ص ٢٧.

٣ - فوك. يوهان، تاريخ حركة الاستشراق، ص ٢٣٣.

٤ - الزنجاني. أبو عبد الله، تاريخ القرآن، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٣٥ م، ص ٧١. لكن يبدو أن محاولاته كلها قد أخفقت، وللإنصاف فإني قد أوافقه بأن نولده كان ذا عبقرية فذة، لكنني لا أشك كذلك أنه كان متجنباً على الإسلام وأصوله في أغلب تقاريره، وستظهر هذه الدراسة جانباً من ذلك في الفصول القادمة إن شاء الله.

وعلى كل حال، فكتاب نولدكه يعد تحولاً مميزاً لمسار البحث الاستشراقي في الدراسات القرآنية، لذا يمكن الجزم -على الأقل على مستوى المستشرقين- بأن لهذا الكتاب مكانة مرموقة، تتجلى مظاهرها الرئيسية فيما يلي:

— أنه عمدة في الدراسات القرآنية، إذ هو المصدر الأول بلا منازع، ولا يستغني عنه من يريد الاشتغال بالقرآن أو علومه على أي نحو كان.

— أنه ألصق كتاب بالدراسات القرآنية على الإطلاق، فهو كتاب متخصص في هذا الباب.

— أنه أجمع كتاب لمسائل قرآنية متنوعة طالما تفرقت في بطون كتب استشراقية متعددة.

— أنه على قدر كبير من الموضوعية والتجرد نسبياً، فأسلوبه في طرح المسائل ومناقشة الآراء يضيف على البحث نوعاً من ذلك لدى المستشرقين.

— أنه ساهم من خلال كتابه: (تاريخ القرآن) في فتح عمق جديد في الدراسات التاريخية للقرآن، لم يسبق إليه.^(١) وكل ما ذكر حول هذا الكتاب من مزايا مقصور على ما يخص المستشرقين لا المسلمين.

لكن ما هو جدير بالتعقيب أن الكتاب من وجهة النظر الإسلامية يحتاج لجهد متواصل من قبل المؤسسات والمراكز الإسلامية، التي تعنى بالاستشراق وبالبحث العلمي، لتبيين أخطائه، وكشف افتراءاته، وإيصالها للقارئ الغربي، بأسلوب علمي مقنع، ليلمس بنفسه مدى التجني المذهل على القرآن والإسلام، فالكتاب ملئٌ بالتحليلات والتقريرات الخاطئة والجريئة التي تستهدف أصول الإسلام، وتشكك في أهم قواعده ومبانيه.

^١ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٢.

المطلب الرابع : منهج نولدكه في دراسته

الفرع الأول: منهجه العام

يصدر المستشرقون في تعاملهم مع الإسلام وتراثه عن رأي متقارب إن لم يكن ثابتاً، فهم يحتفظون بخطوط عريضة، ذات قواسم مشتركة لا يكادون يفلتون منها، ونولدكه أحد رموز هذا التيار المتسق نوعاً ما، بل هو أستاذ لمدرسة تعد في الميزان الاستشراقي، إحدى المدارس الرائدة، كان بعض بديهياتها الأهم بشرية القرآن وإنكار نبوة الرسول ﷺ، فالنتائج المنتظرة - إذن - يمكن رصدها وتوقعها، لكن مع تباين شكلي قليل، وإذا أمعنا النظر في منهج نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن)، ألفناه يتمتع بما يلي:

- يربط الدراسات القرآنية بالدراسات اللغوية والمناهج (الفيلولوجية)^(١)، فهو يعتمد في بحث الظاهرة القرآنية، بشكل أساس على المنهج اللغوي المقارن، وقد سرى لدى المستشرقين ما يشبه الاعتقاد بأن الفيلولوجي محيط بكل شيء يتصل باللغة موضوع البحث، وهذا في حد ذاته يعد من أكبر عيوب الاستشراق^(٢).

- بالإضافة إلى اعتماده في فهم الأحداث والوقائع التي أشار إليها القرآن الكريم على المنهج التاريخي النقدي، والهدف من التمسك بالمنهج التاريخي إقامة صلة سببية بين الحدث والنص، فنولدكه يتعامل مع النص القرآني كنص بشري، يخضع للنقد والتحليل^(٣).

لكن عدم تخلي نولدكه عن الفلسفة الاستشراقية أدى به إلى الولوج في بحر عميق من الأوهام، والغرق في وادٍ سحيق من الظلام، يظهر بوضوح من خلال كتاباته التي تشكو تكرر الانتقائية في اختيار المصادر، والتسرع في إصدار الأحكام والشتائم المبطنة.

- إن الجانب الأكثر خطورة في منهج نولدكه هو أنه أخلّ حتى بالعلم الذي اختص فيه أي (الفيلولوجيا) لأنه بدا في جوانب عديدة من كتابه (تاريخ القرآن) حالماً ومتوهماً، فقد

١- يقصد بالمناهج الفيلولوجية: تلك التي اهتم أصحابها بدراسة اللغة ونشر النصوص المحققة على نحو علمي فريد.

٢ - ينظر: الاستشراق الإسرائيلي، محمد جلاء، القاهرة: العربي للنشر، ١٩٩٥، ص ٥٠.

٣ - ينظر: المرجع السابق، ص ٤٢.

خرق بهذا المنهج - وهو رجل متخصص بدراس العلم بمؤسسات عريقة في الغرب - خرق كل المعايير والمناهج التي انبنت عليها الفيلولوجيا.

ولو تابعنا نولدكه وحاكمناه إلى المنهج الذي يدعيه ويتغنى به، لأحصينا عليه قدراً كبيراً من المثالب والعيوب، لأن المذهب الفيلولوجي في العرف الغربي هو اختصاص نو مناهج محدّدة ومبادئ عامة مُعترف بها ومُجمع عليها من طرف الدارسين الغربيين المختصين، فهو لا يدعي لنفسه تجاوز حدوده ولا الدخول في نزاع مع العلوم الأخرى، فمن يكتب وفق قانون الفيلولوجيا عليه أن يتمسك بقواعدها وبمناهج البحث التي أرسيت منذ عهد، وأن يستثمر ما آلت إليه البحوث السابقة واللاحقة، لا أن يتكبد طريقها ويرميها عن قوس واحدة.

- نحا بدراسة القرآن منحى جديداً، إذ يولي القرآن شيئاً من الاحترام على أنه كتاب المسلمين المقدس، في حين كانت الدراسات الاستشراقية السابقة له، تتعته بالزيف والخرافة^(١)، وهي سمة تكاد تكون عامة في التوجه الجديد للاستشراق^(٢).

- يستقصي بعض وجهات النظر في المسألة الواحدة، من مصادرها العربية الأصلية، وخاصة إذا تعلق الأمر بما يقرره أو يؤيد وجهة نظره^(٣).

- على الرغم من أن النظرة الانتقائية الغالبة لمنهج الرجل في اختيار معلومات مصادره، إلا أنه يلتزم بالرجوع إلى المصادر المعنية للصيقة بالدراسات القرآنية ذات الاختصاص بقدر أكبر من عامة المستشرقين، ويولي مصادر دراساته عناية واضحة، حيث أتبع هذا الجزء (جمع

١- عزوزي. حسن، مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، ٥/٢٧. لذا فقد وفر عبد الرحمن بدوي (نولدكه)، من احتسابه في قائمة السطحيين من المستشرقين نوعاً ما، في كتابه: (دفاع عن القرآن)، ينظر: مقدمة الكتاب، ترجمة كمال جاد الله، القاهرة: الدار العالمية للكتب والنشر بدون تاريخ، ص ٧-٨.

٢ - إذ أن صور التحامل المفرط على الإسلام والقرآن منذ العصر الوسيط قد خفت وهجها إلى درجة كبيرة. ينظر كتاب: الإسلام في تصورات الغرب، محمود حمدي زقزوق، ص ١٤. بينما هيمن على الإدراك الأوروبي منذ القرون الوسطى الموقف السلبي الصريح تجاه الإسلام، كما أقرّ بذلك المستشرق الروسي: (جورافسكي)، ينظر: مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، عبدالله يوسف، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد: ٥٧، ص ٩.

٣ - ينظر: المستشرقون والقرآن، عمر لطفي العالم، ص ١٥٣.

القرآن) بملحق، أتى فيه على جميع مصادر الدراسة المتعلقة بموضوعي الوحي وجمع القرآن، ثم حكم عليها كلها بطريقته الخاصة^(١).

- يعد رائد المنهج التاريخي الاستشراقي في ترتيب سور القرآن وآياته، وهو ما يعرف بالترتيب الزمني للقرآن، ففتح بهذا باباً واسعاً ليتخذه المستشرقون فيما بعد وليجة للطعن في سلامة القرآن وصحة أحكامه^(٢). لذا فقد وصفه بعض الباحثين المسلمين بأنه عالج مشكلة تأريخ السور والآيات بمنهجه العلمي الدقيق^(٣).

- يطرح المسائل المختلفة بأسلوبٍ ذكي، يشعر المطلع للوهلة الأولى بالموضوعية والتجرد التامين، فيظهر مرة بصفة المخالف المنكر لما تواطأ عليه المستشرقون من معارف عن الإسلام، ويدخل مرة أخرى من باب المثبت للشيء المنافع عنه، من باب التسلل الفكري^(٤)، وهو في الحقيقة يقصد إثبات نقيضه، فمثلاً استغنى عن قول: إن نصف الآيات المجموعة على عهد عثمان رضي الله عنه لا يوثق بأنها تعود لتركة محمد، بقوله: "أما الآيات فيجوز لنا أن نثق بأن نصفها نقل إجمالاً كما وجد في تركة النبي صلى الله عليه وسلم". لذا نعتة بعض المعجبين بأنه: "حاول في كل ما كتب أن يكون مثال العالم المتجرد العقلاني، فلم يتجن في أبحاثه على الإسلام، ولم يحاول أن يدعي معرفة أشياء لم يكن يعرفها، ولهذا جاءت آراؤه واضحة جلية وخاضعة لصفة التجرد بعيدة عن الهوى والتضليل"^(٥). وقيل في حق كتابه: "لا يتضمن هذا الكتاب أية إساءة إلى التنزيل القرآني"^(٦).

- ١ - ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه، ص ٣٤٥ - ٤٢٩.
- ٢ - ستعرض الدراسة بالتفصيل لبدعته في هذا المضمون في الفصل الثالث.
- ٣ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٢.
- ٤ - التسلل الفكري: أن يقوم نولدكه بالثناء والإطراء لجانب من الدين، ليدخل شبهة أو أكثر لجانب آخر. ينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القهار العاني، ص ٥٩.
- ٥ - جحا. ميشال، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص ١٨٨.
- ٦ - مسوح. جورج، تاريخ القرآن (كتاب ونعرات طائفية) مقال في جريدة النهار، ٢٠٠٥/٩/١٨. وسيرى المطلع على هذه الدراسة، في الفصلين الثاني والثالث، كم تتطوي هذه الأحكام على ترديد أعمى، ومغالطة مقبنة، لا مبرر لها، وأن ما نسب إلى نولدكه من أحكام بريئة، لم يكن سوى عبارات نارية صوبت من يد رام حاذق واثق من الوصول لهدفه.

ونجد المؤلف يورد الأفكار بأسلوب الاحتمال لإضفاء ثوب الموضوعية والجمال.

- بيني غالب كلامه على مناقشة الآراء التي يطرحها ابتداءً على أنها مسلمات، ليضطلع بمهمة مناقشتها وإبطال بعضها أو جملتها فيما بعد، كما أنه يلمح تارة ويفترض الاحتمالات تارة ويُغالط أو يُدلس تارة أخرى، ويؤول كثيراً ويختفي وراء النصوص الشرعية مما يشعر القارئ بالتناقض والاضطراب، وعدم الصراحة والوضوح في آرائه النهائية، فهو - مثلاً - فتح الطريق أمام القول بتحريف القرآن ثم بدا مدافعاً عنه، حتى بدا فيه متناقضاً بين السلب والإيجاب في الموضوع^(١).

- يتبع دي ساسي وإيفالد في تكريس المنهج النقدي في أبحاثه، إذ قام بنشره وتوسيعه في أوساط المستشرقين من بعده، حتى عدّ مؤسس الدراسات النقدية في القرآن الكريم، كما أنه يعالج مسائل القرآن بالمنهج النقدي نفسه الذي طبقه على العهد القديم، وبالمناسبة؛ فقد عين نولدكه أستاذاً لنقد التوراة في جامعة كييل سنة (١٨٦٤).

- يعتمد تطبيق المنهج الإسقاطي في دراسته، فيرى أن الظروف التي تعرضت لها الكتب السابقة، هي نفسها التي أنتجت نص القرآن. فهو يرجع ما في القرآن إلى ما في العهد القديم بقوله: "ومن المعروف أن كثيراً من الغرائب الموجودة في نص العهد القديم إنما تعود إلى ظروف مماثلة"^(٢)، أي إلى ظروف مماثلة لما في القرآن.

ويلاحظ حال قيامنا باستقراء كتاب (تاريخ القرآن) أنه بني على هذا العنصر المقيت كلامه كاملاً بحيث لا يكاد يسلم منه فرع من موضوعاته أو صفحة من صفحاته.

- يعتمد نولدكه في التعامل مع روايات الجمع المنهج نفسه المعتمد لدى سائر المستشرقين، فهو يستبعد ما تفيد الروايات الإسلامية، ويذهب إلى استنتاجات عقلية يوازن بينها ويقرر ما يراه مناسباً.

^١ - الصغير. محمد حسين، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص ٢٤.

^٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣١١.

- لا يخرج عن الأطر العامة التي التزمها المستشرقون حيال أصول الدين، فعلى الرغم من محاوراته ذات المظهر العلمي لزملائه وردة لبعض أقوالهم دون محاباة^(١)، واتباعه لمنهج منطقي صارم في البحث، فكل ذلك لم يوقه شر الغرق في أخطاء منهجية قاتلة، كما أنه يخرج بين الفينة والأخرى بتناقضات عجيبة، لا تلتئم والمنهج العلمي الذي حاول أن يدمج دراسته به منذ البداية.

ولعل هذا المسلك هو أبرز ما ألب عليه الباحثين المسلمين، وجعلهم يتوجهون إليه بنقد لاذع^(٢). كما أنه لم يستطع كتم عدائه للشرق، وتحيزه الواضح مع أبناء جنسه، فكان "هيليني النزوع، أظهر حبه لليونان بطريقة تثير الاستغراب، هي إظهار كره لا ريب فيه للشرق، الشرق الذي كان بعد كل حساب موضوع دراسته كباحث"^(٣).

- اتباع نولدكه لأسلوب ذكي في عرضه لمضامين كتابه، يشد القارئ الغربي إليه بطريقة عجيبة، فهو -من جانب- يظهر بموقف المدافع عن الإسلام، فيحاور زملاءه المستشرقين ويرد بعض آرائهم، ويستطرد -من جانب آخر- في تسليط الضوء على أمور لا تحتاج كل هذا التركيز، كما أنه يورد بعض المسائل المحسومة والمعاني المقطوع بها لدى المسلمين بأسلوب الاحتمالات القابلة للنقاش والأخذ والرد، ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

١- ما يخص الجانب الأول، وهو ظهوره بموقف المدافع عن الإسلام ومحاورته لبعض المستشرقين، فأمثلته متناثرة كثيرة، منها: ما ردّ به على دي ساسي وفايل اللذين زعما أن ما ورد في سورة آل عمران بشأن موت الرسول ﷺ أدخل عمداً في نص القرآن الكريم، بحجة أن عمر لم يسمع بالآية من قبل، يقول: "يتنافى الرأي الذي يدلي به فايل وما يدلي به عن عالم

^١ - فهو -مثلاً- يرد قول أستاذه دي ساسي، الذي جزم باختلاق أبي بكر رضي الله عنه -لآيات موت الرسول في سورة آل عمران، بنليل أن عمر لم يعرفها من قبل. كما يرفض ما زعمه فايل من تحريف سورة الأحقاف. ينظر نولدكه، تاريخ القرآن، ٣١١/٢ - ٣١٩.

^٢ - مثل قولهم: لقد كانت مباحث بعض المستشرقين قد انحرفت عن الطريق العلمي المعهود، مما جعل بحوثهم تظهر شاذة، تدل على الحقد والتعصب الذميمة، ومن هؤلاء نولدكه*. ينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القهار العاني، ص ٨٥.

^٣ - سعيد. ادوارد، الاستشراق، ص ٢٢٠. وحتى الباحثين المسلمين الذين خصوا الاستشراق الألماني ورموزه بأحاسيس طيبة، فإن بعضهم، استثنى أبحاث نولدكه المتعلقة بالقرآن الكريم، من هذه الروح، ينظر: المستشرقون الألمان، صلاح الدين المنجد، ٧/١.

محمد الفكري، ويستحيل علينا أن نأتي بذرة من البرهان على أن محمداً، على الأكل في السنوات الأخيرة من حياته، أثار الشك بين المؤمنين في إمكانية وفاته...^(١).

لكنه على طريقة أغلب المستشرقين في هذا المجال، حيث ما يفتأ حتى يعود ويثني على كتابات زملائه، ويقدمها على أهل الفن والتخصص واللغة من علماء المسلمين، فيذكر أنه استعان في مجال الحديث الشرعي بأبحاث (جولنتسيهر) العميقة، أما بخصوص السيرة فهناك دراسات قام بها كل من (سخاو) و(بروكلمان) و(كتاني^٢) وتبقى آثار كثيرة لم يكشف عن مصادرها، لكنه لم يرد أن يتحول هذا الملحق إلى سجل غث بالأسماء والعناوين، وسيخصص ربع هذا الملحق للأبحاث المسيحية الحديثة^(٣).

فبحسب رأيه أبحاث المستشرقين عميقة وجادة، أما أبحاث المسلمين فهي عقيمة ومبتورة، وهذا لعمرى في القياس شنيع^(٤)، يكشف عن ضبابية في الرؤية تورث العمى لاشك، لأن البحث العلمي المتزن أظهر عكس هذه النتائج تماماً، وتوصل إلى أن أبحاث هؤلاء في مجال الإسلام لا تستحق جزءاً من هذا الإطراء فضلاً عنه كله.

ثم يستدل لذلك بأمور، منها: أن النبي ﷺ كان يركز على أنه بشر، وأن هناك مواضع أخرى في القرآن الكريم تحدثت عن موته ﷺ، وأن آيات سورتي آل عمران والزمر منسجمتان مع السياق الذي وردتا فيه تماماً.

٢- وأما استطراده فيما لا حاجة حقيقية فيه إلى تطويل، فأمثل له بما ذكره من نسخ مصاحف الصحابة ؓ، إذ أحصى عددها وأسماء أصحابها مترجماً لهم، وترتيب السور في بعض النسخ، مرة بحسب (الفهرست) ومرة بحسب (الإتقان)، وما ينفرد به بعض المصاحف من السور، ومقارنة هذه المصاحف مع بعضها البعض ومع النسخة الرسمية، معرجاً على النسخ القرآنية الغامضة والمشكوك فيها، منتهياً بأحوال النسخة الرسمية أي مصحف عثمان ؓ^(٥).

١ - المرجع السابق، ص ٣١٢.

٢ - أمير كتاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦) ولد في رومة، وتخرج في جامعتها، جمع ثروة هائلة، سخرها للاستشراق. ينظر: موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، ص ٤٩٣ - ٤٩٦.

٣ - ينظر: تاريخ القرآن، تولدكه، ص ٢٤٥.

٤ - جزء من بيت شعري تمامه: (تعضي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا مجال في القياس شنيع)

٥ - ينظر: تاريخ القرآن، تولدكه ص ٢٦٢ - ٢٧٨.

وهو في كل ذلك يتوسع ويتعمق ويستنئج ويهول الأمر ليصنع منه قضية تطعن في سلامة القرآن وتواتره.

٣- وأما مناقشته للأمور المفروغ منها عند المسلمين بطريقة تشعر بتطرق الاحتمال أو الأخذ والرد المفضي إلى الشك والشبهة فكثيرة، منها: محاولته إثبات أن أبا بكر رضي الله عنه لم يجمع القرآن الكريم، فهو يرى أن أول جامع للقرآن هو عمر رضي الله عنه، وأن إقحام أبي بكر في الأمر نتج بوساطة نظرة المسلمين إليه، فيقول: "إن النظرة إلى اشتراك أبي بكر مربوطة باشتراك سلفه الحقيقي أو المفترض في العمل. إذا كان عمر هو أشجع الخلفاء، فإن أفضلية أبي بكر في أنه كان من أول المؤمنين ومن أقرب المقربين لمحمد. لهذا لا بد أن يكون بدا لكثيرين مستغرباً ألا يكون إنسان كهذا قد عمل على جمع القرآن. وربما تحولت هذه الرغبة التقوية تدريجياً إلى تصريح تاريخي"^(١). ولذا نجده يستعيض عن قوله (جمع أبي بكر) (بجمع زيد بن ثابت الأول). ويقول أيضاً: "وإذا كان لا بد من أن يكون خليفة هو الذي يبر عملية الجمع، فإن عمر هو الشخصية التي يمكن أن نفكر بها. تشير إحدى الروايات المختلفة بوضوح العبارة إليه، وتعتبره الروايات الأساسية الخليفة الذي حرك عملية الجمع وأدارها"^(٢).

ونجده يستدل على تأييد ما ذهب إليه بما عرف من قصر مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، يقول: "إن حكم أبي بكر الذي دام سنتين وشهرين قصير نسبياً إذا ما أخذنا بالحسبان صعوبة جمع النصوص المبعثرة كما تتحدث عنه الروايات. خصوصاً إذا كان البدء بالعمل قد تم بعد معركة اليمامة، ما يعني أن الفترة المتبقية من حكم أبي بكر كانت خمسة عشر شهراً"^(٣).

فمثل هذه الأخطاء - وهي وفيرة في كتاب (تاريخ القرآن) - تلقي في الذهن تأكيداً لذلك القدر المشترك بين المستشرقين من المخزون العدائي المتكرر، وإن كان هناك تفاوت بينهم فهو في الدرجة فحسب، إذ أن بعضهم أكثر مغالاة وتعصباً من الآخر.

١ - تولدكه، تاريخ القرآن ، ص ٢٥٥

٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٥

٣ - المرجع السابق، ص ٢٥٢.

لذا نلقي نولداكه يندخل بشخصيته ورايه وهواه الخاص، فيفسر الحوادث، ويناقش النصوص الشرعية من وجهة نظره، ويلقي ظللاً مشوشة تقوم على تغيير معالم الصورة الأصلية وتشويهها.

الفرع الثاني: جوانب تحسب له

انطلاقاً من المنهج القرآني الذي يقتضي منا أن لا نبخس الناس أشياءهم، فإني أؤكد أن نولداكه على الرغم مما خرج به من نتائج لا تتفق وأصول البحث العلمي، فقد لاح في ثنايا حديثه شذرات من مظاهر تنتسب للموضوعية وتتصل بالبراعة، تتمثل هذه المظاهر في جوانب متعددة من مادة كتابه، لكنها لا تكاد تذكر مقارنة بمظاهر تحيزه وتعصبه وإساءته المتعمدة لأصول الإسلام ورموزه، فالظاهر -إن- أن الجانب الحسن لدى نولداكه، عبارة عن فلتة نادرة نسبياً، لا يستقيم وجه الاستشهاد بها حتى مع حسن النية المفرط إذا ما قيست بالسياق العام للكتاب، لأنه قد يظهر له فيها مآرب أخرى، لذا سأدع قياسها بالسياق جانباً - الآن - لألقي الضوء على بعض هذه المظاهر فأقول:

لقد سبقت الإشارة إلى أن الأستاذ نولداكه رجل موسوعي حيث عركته الخبرة العلمية عمراً مديداً، تركت لديه قدرة فائقة على محاكمة الآراء وتقييمها، يلمسها المطلع في ردوده ومراجعاته، وفي تقريراته وطول نفسه، التي تتميز بها كتاباته الكثيرة بعامه، و (تاريخ القرآن) الذي عرضت لجزء منه هذه الدراسة بشكل خاص.

والملاحظ أن الجانب المنير يتجلى في كتاب نولداكه حين لم يتعلق الأمر بما تواطأ عليه المستشرقون قديماً من مسلمات صبغت إنتاجهم بلون من التحيز، وندرة في الموضوعية أو العلم أو التجرد، أو خلوه منها تماماً فتراه حينئذ يمتاز بالرد المفحم، والقدرة على الوصول إلى الرأي السليم الحاسم لو أراد، ويكفي للاستدلال لهذا بأن نولداكه نفسه قد نقد كتابه وأشار إلى بعض سلبياته، فلما عرض عليه الناشر عام ١٨٩٨م أن يعيد نشره وطباعته ثانية رفض لأسباب عديدة لم يذكرها، واقترح أن يوكل الأمر إلى تلميذه (شفالي). فنولداكه لم يكن راضياً عن سخافات كتابه (تاريخ القرآن) حتى مع التعديل الذي أجراه شفالي فيما بعد كما اعترف هو في معرض تقديمه للطبعة الجديدة، لأن إصدار الأحكام من غير ثروة يعدّ صبغة عامة للكتاب ولم يطرأ عليها تغيير يذكر في التعديل الجديد، فهو يقول: "وقد قام بقسدر الإمكان

بجعل الكتاب الذي أنجزته بسرعة قبل نصف قرن مراعيًا المستلزمات الحاضرة، أقول -
والحديث ما يزال لنولدكه- بقدر الإمكان لأن آثار الوقاحة الصبيانية لن يمكن محوها بالكلية
من دون أن يعاد تأليف الكتاب من جديد^(١).

وبدا له -أيضاً- أن كثيراً مما ضمنه في الكتاب سابقاً غير مسلم به لاحقاً فيقول: "بعض
ما قلته حينذاك بقليل أو كثير من الثقة انعدمت تقني به لاحقاً"^(٢).

وأحسب أن هذا موقف شجاع منه واعتراف مهم يُحسب له على مستوى ثقافته
ومرجعيته، وحبذا لو فهمه المستشرقون فيما بعد، إنز لأراحو واستراحوا.

ولهذا نجد ملامح الندم بادية في عبارة نولدكه حينما سئل مرة في آخر حياته إن كان
يشعر بالندم، لأنه لم يمض تلك العقود من السنين في دراسة تعود بالفائدة على الجنس
البشري كالطب والكيمياء أو أي فرع آخر غير الدين واللغات والفلسفة؟ فأجاب بقوله: "إذا
كان من ندم فلأنتني درست علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج قاطعة وحاسمة"^(٣)

ومن هذه الجوانب أيضاً اعترافه بأن عثمان ؓ: "كان رجلاً تقياً مؤمناً، يستبعد أن يقوم
بتحريف كلام الله. إضافة إلى ذلك فلم يكن في اللجنة إلا أموي واحد. أما من بين أعضائها
فكان عبد الله بن الزبير ينتمي إلى عائلة منافسة لبني أمية، وكان زيد بوصفه كاتباً للنبي
أرفع من أن ينحاز إلى عثمان بصورة غير جائزة"^(٤).

وهذا التقرير الصريح يردّ اتهام نولدكه والمستشرقين فيما بعد الذين قرروا أن الخليفة
الثالث عثمان ؓ قد شكّل لجنة الجمع على نحو يرضي مصالحه الخاصة، ومطامعه
الشخصية.

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص xxx1.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص xxx1.

٣ - عزوزي. حسن، دراسات في الاستشراق ومناهجه، فاس: الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ٥٣.

٤ - نولدكه، تاريخ القرآن ص ٣٢٠.

كما أنه يرد اتهام القائلين باستخفاف عثمان بمجموعات الصحابة القديما ﷺ بقوله: "فلا يستحق دحضا خاصا. فقد سبق لنا أن أتينا بدليل على أن نسختي زيد كانتا متساويتين، وأن مصحف عثمان لم يكن إلا نسخة عن مصحف حفصة"^(١).

كما أنه أقرّ بصعوبة تسلل العبث إلى النص الأصلي للقرآن الكريم بقوله: "هكذا كان عدد كبير من الشواهد على النص الأصلي متوفراً، ما كان سيؤدي إلى فضح كل تعديل جسيم للنص، وإذا اشتمت وراء ذلك نوايا شريرة فإنها كانت ستثير موجة عارمة من الغضب"^(٢)

وهو يقدر أهمية الحفظ في الصدور في سلامة القرآن الكريم: "تضاف إلى المرجعيات الرقابة المكتوبة المرجعيات الشفوية. فحتى لو كانت كل النسخ التي سبقت نسخة عثمان قد أتلقت أو اندثرت، لوجد بالتأكيد عدد كاف من الأشخاص الذين كان في وسعهم أن يكملوا مما حفظوه في الذاكرة المواضع المحذوفة. وقد كان ذلك سهلا للغاية. فأولئك الحفظة كانوا وهم على قيد الحياة سنداً هاماً للعمل على جمع القرآن."^(٣)

وقال في حق ابن مسعود ؓ: "لكن مهما كان لهذا الرجل من دافع مهم لأن يغضب على عثمان بسبب إهمال نسخته الخاصة من القرآن، فهو لم يرمه مرة واحدة بتهمة التحريف. وهذا ما ينطبق أيضاً على غيره من أعداء هذا الحاكم الكثيرين"^(٤).

ومن جانب آخر يورد احتمالات النقص الذي طرأ على القرآن الكريم في عهد عثمان ؓ، متمثلاً بما يسمى سورة النورين، ليقرر من خلال مقارنة السورة المزعومة بأسلوب القرآن الكريم العام، ومن خلال مجالات اللغة والتاريخ وما لدى الشيعة من ثقافة ومصطلحات خاصة؛ كذب هذه القطعة المفتراة وأنها من وضع الشيعة، فقد أثبت بالدليل القاطع أن هذه السورة موضوعة، وأنها ليست من أصل القرآن، يقول:

"بهذا نحصل على دليل قاطع بأن سورة النورين هي وضع شيعي. ولا يمكن تحديد زمن نشونها بدقة، بسبب نقص معرفتنا بالأدب الشيعي المنحاز، ويبدو أن المفسرين الشيعة علي بن

١ - المرجع السابق، ص ٣٢٠.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٢٠.

٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٢٠.

٤ - المرجع السابق، ص ٣٢١.

إبراهيم القمي (القرن الرابع للهجرة) ومحمد بن مرتضى (ت سنة ٩١١هـ) لم يعرفا السورة، وإلا لذكراهما في مقدمة تفسيريهما للقرآن..^(١).

لذا تميّز كتابه بردود مفحمة لما أثاره الشيعة حول القرآن الكريم، وهي ردود يعتد بها بالقياس إلى ظروف نشأة المؤلف وخصوصياته.

لكن أحد أهم مظاهر قدرة نولده على الحكم والتدقيق يجليه بوضوح ذلك الملحق الذي قصد منه تقييم مصادر كتابه في ختام جزء جمع القرآن، أقتصر منه على قطعة حول عمل المسعودي في (مروج الذهب) يقول: "يشكل العمل المشهور (مروج الذهب) لصاحب الأسفار الكثيرة، العالم الظريف أبي الحسن علي بن حسين المسعودي (ت ٣٤٥) تبعاً لتاريخ الدولة والثقافة والأدب. غير أن الحيز المستعمل للحديث عن النبي أصغر بكثير من أن يأتي المؤلف فيه بجديد، أو حتى أن يتمكن من نشر مزاياه الكتابية. كما هو الحال عند ابن قتيبة، يعرض المسعودي مادته بحرية، ويستعمل العدة الثقيلة للإسناد على نحو نادر للغاية. ويذكر من مؤلفي السير الأوائل ابن هشام، وابن إسحاق، والواقدي وابن سعد والطبري. أخبار الخلفاء الأوائل قليلة جداً. وبشدة اهتمام نولده فقط عند الحديث عن علي الذي تملأ فترة ولايته القصيرة من الصفحات ضعف ما يشغله الحديث عن أسلافه الثلاثة مجتمعين"^(٢).

فهو في تقييمه هذا لم ينس أن يشير إلى نواحي فكرية أو ثقافية كالتشيع أو التمهذب أو غيرها كما رأينا.

ويمكن القول ختاماً بأن نولده قد كرس منهجاً جديداً في الدراسات القرآنية من أبرز ملامحه الرجوع إلى المصنفات العربية اللصيقة بمجال القرآنيات مباشرة، في الوقت الذي كان فيه المنهج الاستشراقي القديم يعتمد على عدد محدود من هذه المصادر.

وللإنصاف فإن منهج نولده يختلف اختلافاً نوعياً من هذه الناحية عن غالب زملائه المستشرقين، فقد نوّع في مصادره وأضاف إليها مصادر متعددة في موضوعات رحبة.

^١ - المرجع السابق، ص ٣٣٥.

^٢ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٣٦٤.

فهذه نماذج قُدمت للتمثيل على بعض الجوانب المنهجية والأسلوبية المستخدمة من قبل
نولدكه، وستتولى الدراسة نقدها وتقييمها مع سائر أفكاره في الفصول المقبلة بحول الله تعالى.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني
موقفه نولدكه من جمع
المقرآن الكريم

© Arabic Digital Library, Yarmouk University

الفصل الثاني: نولده وجمع القرآن الكريم

إن مسألة جمع القرآن الكريم في الروايات الإسلامية قد مرت بمراحل ثلاث: كتابته في العهد النبوي، ثم تلاه الجمع البكري، وأخيراً نسخ القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد وجه نولده سهام مطاعنه ومزاعمه إلى هذه المراحل كلها، وتضمن كتابه جملة من النتائج والتقريرات التي لا تتفق مع أصول البحث العلمي في بيان دين الإسلام، لذا سيخصص لكل مرحلة من هذه المراحل مبحث مستقل، لعرض أفكار نولده كما هي وفق مقتضيات الأمانة والتجرد العلميين، ثم نقدها نقداً علمياً موضوعياً بعيداً عن الإفراط والتفريط إن شاء الله تعالى.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المبحث الأول: جمع القرآن في زمن النبي ﷺ

يمكن توضيح موقف نولدكه من جمع القرآن في المرحلة النبوية ونقده، ضمن المطالب

الآتية:

المطلب الأول: دعوى تصرف النبي ﷺ في القرآن الكريم.

بحسب رأي نولدكه فإن لدى النبي ﷺ مساحة غير محدودة لتعديل نص القرآن الكريم أو إسقاط شيء منه أو إضافته، ويمكن إبطال هذه المزاعم في الفروع الآتية:

الفرع الأول: دعوى أن القرآن الكريم من عند النبي ﷺ.

يقول نولدكه "أود أن افترض الأمر نفسه حيث يلجأ محمد في المدينة، إلى توسيع آيات سابقة بواسطة إضافات صغيرة أو استطرادات، أو حتى حين يستبدلها بنص جديد ذي مضمون مختلف أو يلغيها. كان يلجأ لهذا لكي يرخي القيود التي وضعها، من خلال الآيات المثبتة بالكتاب، حول حرمة النبوية دون انتباه"^١

الرد:

إن القارئ لما كتبه المؤلف حول موقف النبي ﷺ من القرآن الكريم يخالجه إحساس مؤكد بتوقعات نولدكه حول القرآن، فهو بزعمه أشبه بمذكرات أو يوميات كتبها النبي ﷺ أو كتبها الصحابة عن حياة النبي ﷺ لهم كامل الحرية في التفتيح والتصريف، ومعلوم أن القرآن الكريم غير هذا تماماً، فهو كلام الله المعجز الذي ليس للنبي فيه إلا التبليغ فحسب، قَالَ تَمَّال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي بِغَيْرِ قَدَرٍ إِنَّ أَتَمَّ النَّاسِ إِلَّا مَا يُؤْتَى الْوَحْيَ أَنَا خَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي فَكَانَ يَوْمَ

مَطْمِينٍ ﴿١٥﴾﴾ بونس: ١٥.

ويمكن إجمال نقض دعواه حول ذلك بالحجج التالية:

الحجة الأولى:

كان العرب وقت نزول القرآن حريصين على معارضة القرآن، وكان النبي ﷺ يتحداهم دائماً به، ولو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ، لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، ومع هذا لم يطبقوا

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٣٨.

معارضته، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغاً، بحيث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال. لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيألفوا قرآناً، ومن المعلوم أن الجماعة تبتدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد، فلو اجتمع مائة شاعر مثلاً لتأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد ألف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان (٤٨٩)، فإذا كان أحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن؛ فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته؟ ولكن هيهات؛ فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن ما كانوا لهم أن يأتوا بمثل آية منه ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨.

وإن تعجب فالعجب من تأكيد نولدكه المتكرر على أن للرسول ﷺ يداً في صياغة القرآن الكريم أو في إنتاج شيء منه، على الرغم من أن الشواهد التي تخالف هذا كثيرة ومتوعة، فالتفكير السليم والنظر القويم يرفضان الاستماع لمثل ما تفوه به نولدكه بهذا الخصوص، فضلاً عن شهادة التاريخ والواقع، فمحمد ﷺ رجل أُمِّي، نشأ في بيئة لم تعن بالفلسفة وطرائقها، فهل يعقل أنه أتى بهذا الإعجاز التشريعي المتكامل دون أي تناقض؟ إن نظرة القرآن الكاملة الشاملة للكون والحياة لو كانت من صنع محمد ﷺ لما كان بشراً (٢).

الحجة الثانية:

إن الرسول ﷺ جاءهم بالقرآن وقد مكث فيهم عمراً من قبله، ولم ينزل على قريش من السماء فجأة، فقد عرفوا طباعه وأخلاقه، ولم يكونوا يتهمونه بنميمة أو نقيصة، ومع ذلك ما استطاعوا أن يستركوا عليه حرفاً واحداً، أو معنى صائباً.

١ - ينظر: دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، عبدالمحسن بن زين بن متعب المطيري، رسالة لنيل درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم في القاهرة، ٢٠٠٣م، الكويت: دار البشائر الإسلامية، د.ط، ص ١٨٠.

٢ - ينظر: آراء المسترقين حول القرآن الكريم وتفسيره "دراسة ونقد"، عمر بن إبراهيم رضوان، الرياض: دار طيبة للنشر، بلا تاريخ، ١/٣٨٤.

الحجة الثالثة:

إنه يستحيل أن يؤلف شخص كتاباً دون أن تنعكس عناصر بيئته أو بعضها في إنتاجه، فلكل مجتمع أوضاعه الخاصة، واتجاهات جماعته وأفكارهم وميولهم، ولو كان القرآن من تأليفه ﷺ لوجد شيء من ذلك.

الحجة الرابعة:

إن في القرآن عتياً ولوماً للرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۚ (٢) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٣) أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى ۖ (٤) فَأَنْتَ لَهُ صَدِّقٌ ۖ (٥) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَبُ ۚ (٦) عِبَسَ: ٧-١

﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَنْ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ التوبة: ٤٣ ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ مَرْفَقٍ﴾ التوبة: ١١٣ ﴿لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَ اللَّهِ سَبَقًا لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٨ ، ﴿وَتَخَشَىٰ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَىٰ﴾ الأحزاب: ٣٧

فلو كان القرآن من عنده ﷺ لما سمح لنفسه أن يضع هذه الآيات التي تعاتبه والتي سيقروها الأجيال المتلاحقة من بعده.

فمخالفة القرآن الكريم لبعض اختياراته ﷺ، برهان ساطع في تبديد رأي نولدكه ومزاعمه حول إمكان تصرفه ﷺ فيه^(١).

الحجة الخامسة:

هناك سؤال في غاية الأهمية يستوجب طرحه في المقام، وهو: لماذا ينسب محمد ﷺ ما عمله إلى غيره؟ خاصة وأن القرآن كلام رفيع، يشرف من انتسب إليه؟ إن تبرؤ محمد من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه؛ في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبتها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في

^١ - ينظر المرجع السابق ٣٩١/١ فما بعد.

أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلخاً؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلث قيمته وأمنت تهمة، حتى إن منهم من ينش قبر الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمّا أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلبده الدهر بعد^١

وقد رد الله تبارك وتعالى على من ادعى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَخَذْنَا مِيثَاقَ الْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا يَنَّهُ الرِّينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُونَ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٨ ومع ذلك أيده الله بالنصر والتمكين في الأرض.

الحجة السادسة:

إن أسلوب القرآن مخالف لأسلوب كلامه ﷺ، فهناك تغاير ظاهر بين الأسلوبين، ما كان ليصعب على العرب الخالص التفريق بينهما، مما يدحض هذه الفرية. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في معرض إبطاله هذا الزعم: "إن في القرآن جانباً كبيراً من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعليم. ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجه الصحيح كما وقع؟ يقولون إن التاريخ يمكن وضعه بإعمال فكر ودقة فإساسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى، فيقولون إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية - لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجملة ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين، لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تتله يد الأميين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن"^(٢)

^١ - المطيري. عبدالمحسن بن زين بن متعب، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، ص ١٨٢.

^٢ - دراز. محمد عبد الله، النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ط ٣، ١٩٧٤م، ٣٦-٣٧.

فأحاديثه ﷺ ليست كالقرآن أسلوباً ومذاقاً وروحاً وألفاظاً وتراكيباً، على الرغم من أن الموضوعات والأفكار والمبادئ التي تدور حولها هذه الأحاديث هي نفس ما جاء في القرآن.

لذا فللقرآن تأثير عجيب على نفوس قارئيه ومستمعيه، فما استمع إليه مستمع إلا أخذ بطريقته، حتى أشد الناس عداوة له لم يستطيعوا أن يقاوموا الرغبة الملحة التي استولت عليهم في الاستماع إلى القرآن لذا يقول عنه الوليد بن المغيرة: " إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه"^(١)

الحجة السابعة:

إذا كان أساطين البلاغة والفصاحة من مشركي قريش قد شهدوا بأنه يستحيل أن يكون القرآن قول بشر، فإن أساطين اللاهوت في العصر الحديث قد أجرى الله تعالى هذه الشهادة على ألسنتهم، ويكفي للرد على نولذكه في هذا المقام أن أسجل ما شهد به بعضهم:

يقول القس الإنجليزي (مونتجمري وانت)^(٢):

١ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الإيمان بالرسول، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد السعيد بسيني زغلول، ١٥٦/١.

قال العراقي: ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد، ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقية وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه. ينظر: المغني عن حمل الأسفار، لأبي الفضل العراقي، الرياض: مكتبة طبرية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تحقيق: أشرف عبد المقصود، ٢٢٣/١.

٢ - مونتجمري وانت، مستشرق بريطاني، ولد في كريس فايف في ١٤ مارس ١٩٠٩ والده القسيس أندرو وانت، عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي أدنبره ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس. عمل رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبره في الفترة من ١٩٤٧-١٩٧٩، أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها: "محمد في مكة" و "محمد في المدينة"، وقد تقاعد قريباً ويعمل حالياً راعياً لإحدى الكنائس في منطقة إدنبرة.

ينظر: الاستشراق، مازن مطبقاني، بحث مقدم لندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، (١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ، ٧-٩/١١/٢٠٠٦م) ٤١/٢.

"إن القرآن هو وحي الله المباشر إلى محمد .. إنه صادر عن الله، وبالتالي فهو وحي، وليس كلام محمد بأي حال من الأحوال، ولا هو نتاج تفكيره، وإنما هو كلام الله وحده، فصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة لأهل مكة أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين، وهناك إشارات إلى أنه موجه إلى الجنس البشري قاطبة، وقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام في العالم كله، وقبله بشر من كل الأجناس تقريباً .. وهو يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته، لأنه يتناول الإنسانية .. إننا نؤيد بصدق محمد وإخلاصه عندما يقول: إن كلمات القرآن ليست نتجة أي تفكير واع منه. وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التي أوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي، لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله.."^(١).

ويقول العالم الفرنسي موريس بوكاي: "لقد قمتُ بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث.. فأدركت أنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث..."^(٢).

وقال هنري دي كاستري: "إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى، آيات لما سمعها عبثة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشي" الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القوس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى عليه السلام.. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغاييرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً عليه السلام يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الأذان ويؤثر في القلوب.. لخر ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة

١ - عمارة. محمد، القرآن يتحدى، ص ١١.

٢ - بوكاي. موريس، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٢٠٠٣، ص ١٣.

والأخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل أن النبي ﷺ ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه، لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب..^(١).

وهناك ما لا يحصى من مثل هذه الاعترافات والحقائق المدوية التي لا يستطيع أحد إخفاءها ولا مجال لذكرها الآن فأضرب عنها الذكر صفحاً لمناسبة المقام، لكن ما هو حري بالتقرير ختاماً: أن الكلام حول إمكانية صياغة الرسول ﷺ للقرآن، أو اختراعه له من عند نفسه أمر مرفوض من قبل الجميع، ومخالف لكل الأدلة والبراهين، فلقد يسر الله تعالى لحفظ كتابه أوثق الطرق وأعلاها قدراً، فالعرب ذوو ملكات في الحفظ لم يمانئهم فيها شعب أو أمة، وكان النبي ﷺ كلما نزل عليه شيء من الوحي يأمر كتاب الوحي بكتابته فور سماعه، وسرعان ما ينتشر بين الناس.

وما جمع في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما هو عين ما حوته صدور الحفظة، وما نقش في قراطيس الكتبة، فسلم القرآن بذلك من أي عبث أو تحريف، وعلى امتداد تاريخه الطويل، وتحقق فيه وعد الله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَظِيرُونَ ﴿١﴾ ﴾ الحجر: ٩

ولعل أصل هذه الفكرة قد تسلسل لذهن نولدكه من جهة معالجته الطويلة لمضامين الكتاب المقدس، فظن أن الكتب المقدسة كلها سواء، وأن نتائج الأبحاث هناك تتسحب ضرورة على القرآن الكريم.

والحق أنه لا سبيل للمقارنة مطلقاً بين القرآن الكريم وهو الكتاب العظيم الذي نزل نبياناً لكل شيء، فجمع الدين كله أصولاً وفروعاً، عقيدةً وشريعةً، وأخلاقاً وأمثالاً ووعظاً، وبين الأنجيل المحرفة المتناقضة التي لم تزد على كونها يوميات للسيد المسيح عليه السلام، يظهر فيها لكل ذي بصيرة ملامح العبث والتناقض والتزيد والتقول على الله بغير علم.

١ - الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، القاهرة: مطبعة الشعب، ١٩١١م، ص ٢٢-٢٣.

الفرع الثاني: قصة ابن أبي السرح^(١)

لقد اتخذ نولدكه من ردة عبد الله بن أبي السرح - على أنه من كتاب الوحي - جسراً ليشكك في أمانة الرسول ﷺ ونزاهة كتبة الوحي، فيقول:

"ولا بد من أن محمداً منح المقاطع القرآنية شكلها النهائي الذي احتفظت به، من خلال تلاوته إياها من أجل أن تحفظ أو تدون. هذا ما يبدو من القصة التالية التي يرويها معظم المفسرين تعليقا على سورة الأنعام^٢ ٦: ٩٣. حين أملى محمد مطلع سورة المؤمنون ٢٣ على عبد الله بن أبي سرح الذي كان يستخدمه أحيانا ككاتب للوحي، أصيب هذا بالاندھاش من وصف قدرة الله الخالق فصاح: ﴿قَبَّارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٤. فأمره النبي أن يكتبها لأنها هكذا نزلت. يتضح لنا إذاً، أن كلمات عبد الله بدت لمحمد ملائمة فاتخذها في هذا الموضع ارتجالاً"^(٣).

الرد:

ما استدلل به نولدكه على تدخل النبي ﷺ في مضمون القرآن بما أورده من قصة ابن أبي السرح، فالجواب عنه بما يلي:

أولاً: إن المؤلف يتحدث عن هذه القصة وكأنها حقيقة لا تقبل الشك، ولم يزنها بميزان العقل الذي درج على امتطائه كلما اصطدم بخبر صحيح، ولم يلتفت إلى أنها افتراءات من قبل ابن أبي السرح في فترة ارتداده، لذا فأقول: إن كونه كان من كتاب الوحي، أمر مشكوك فيه، بل مرفوض، لما يلي:

١ - عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري، أسلم قبل الفتح، ثم ارتد فأهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان - أخوه من الرضاعة - فعاد مسلماً، وكان صاحب الميمنة في الحرب مع عمرو بن العاص في فتح مصر. ثم ولي مصر في عهد عثمان، ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ولم يبايع علياً ولا معاوية، ومات سنة ٥٩هـ، في آخر عهد معاوية. وقال الذهبي: "الأصح وفاته في خلافة عليّ عليه السلام". ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. ١٠ - ١٩٩٤م، ٣/٣٣-٣٥).

٢ - وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّكَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ بِشَرِّ مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ الأنعام: ٩٣. والرقم الأول: يعود للسورة، والرقم الثاني: يعود للآية.

٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٤٣.

١- إن روايات القصة مقصورة عليه هو وقت رده، وليس هناك واقعة حقيقية حدثت،
"فقال لهم: إني كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يملي علي: "عزيز حكيم" فأقول:
أو عليم حكيم؟ فيقول: "نعم، كل صواب"^(١).

وروي في ذلك أنه (لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر
وامراتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل وعبد
الله بن خطل ومقيس بن صبابه وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، فأما عبد الله بن خطل
فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد
عماراً وكان أشب الرجلين فقتله وأما مقيس بن صبابه فأدركه الناس في السوق فقتلوه
وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة أخلصوا فإن آلهتكم لا
تغني عنكم شيئاً ها هنا فقال عكرمة والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني
في البر غيره اللهم إن لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن أتى محمداً ﷺ حتى
أضع يدي في يده فلأجده عفاوا كريماً فجاء فأسلم وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح
فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه
على النبي ﷺ قال يا رسول الله بايع عبد الله قال فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى
فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث
رأني كفت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت
إلينا بعينك قال إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين)^(٢).

قال ابن تيمية بعد أن ذكر قصته: "وجه الدلالة أن عبد الله بن أبي السرح افتسرى
على النبي ﷺ أنه كان يُنمُّ له الوحي ويكتب له ما يريد فيوافق عليه وأنه بصرفه حيث
شاء، ويغير ما أمره به من الوحي فيقره على ذلك، وزعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله إذ

١ - ينظر: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، بيروت: دار المعرفة،
ط١٤٠٠هـ، ٣/٣٦.

والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، يوسف بن عبدالله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق
علي البجاوي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٦٠م، ١/٢٧٨.

٢- رواه النسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب: الحكم في المرتد، المجتبي من السنن، أحمد بن شعيب أبو
عبد الرحمن النسائي، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، تحقيق: عبدالفتاح
أبو غدة، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها، ٧/١٠٥. قال الألباني: صحيح.

كان قد أوحى إليه في زعمه كما أوحى إلى رسول الله ﷺ وهذا الطعن على رسول الله ﷺ وعلى كتابه والافتراء عليه مما يوجب الريب في نبوته قدر زائد على مجرد الكفر به والردة في الدين وهو من أنواع السب^(١)

ولا يخفى أن الدخول في الإسلام، كان في نظر المشركين جريمة لا تغتفر، فأراد أن يكسب ود المشركين ليسامحوه على جريمته، وهذا افتراض منطقي لأنه كان يخشى أن يقتلوه. وعندئذ إن صح النقل عنه هو يكون شكله كالاتي: (كان ابن أبي سرح، بعد ارتداده وعودته إلى مكة، يشيع بين المشركين بأنه كان يكتب الوحي للنبي وكان يغير في ألفاظه والنبي يوافقها) فيجب أن تقرأ على لسانه هو، لا على أنها بعض نصوص الدين.

٢- إن مدة إسلام ابن أبي سرح قبل رده كانت قصيرة جداً، فالترجم تذكر أنه أسلم قبل فتح مكة، يقول ابن عبد البر: "أسلم قبل الفتح، وهاجر وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد مشركاً وصار إلى قریش بمكة"^(٢)

وإذا علمنا أنه لم يذكر عنه مشاركته في أحداث ووقائع قبل الفتح، كغزوة الأحزاب وبنى المصطلق وفتح خيبر مثلاً، تبين لنا أنه أسلم قبل الفتح بقليل، وأنه ارتد سريعاً، فمتى كتب الوحي؟

كما أنه لا يصح الربط بينه وبين قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ شَيْءٌ ﴾ الأنعام: ٩٣. لأن هذه الآية من سورة الأنعام، وهي مكية، لذا نجد السيوطي يستبعد قول بن الحصار "باستثناء تسع آيات نزلت بالمدينة"، لما ورد أنها نزلت جملة في مكة، وهناك قول يفيد بأنها نزلت في مسيلمة^(٣).

أما حكاية سورة "المؤمنون" فغير صحيحة للسبب نفسه، لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة -أيضاً- مكية^(٤).

١ - ابن تيمية. أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس، الصارم المملول على شاتم الرسول، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٧، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودي، ٢/٢٣٠.

٢ - ابن عبد البر. يوسف بن عبدالله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/٢٧٨.

٣ - ينظر: الإنتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١/٥٨.

٤ - ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الأوسي، ٩/٢٦.

٣- ذكر الحافظ العراقي في ألفية السيرة النبوية أسماء كتاب الوحي المعروفين، فبعد أن أحصاهم عقب بقوله:

ونكروا ثلاثة قد كتبوا
ابن أبي سرح مع ابن خطل
وارتد كل منهم وانقلبوا .
ولم يعد منهم إلى الدين سوى
وآخر أبهم لم يسمى لي .
ابن أبي سرح وباقيهم غوى^(١).

فعبارة الحافظ عند ذكر هؤلاء الثلاثة اختلفت عما سبقها، إذ تفيد أنه ليس متأكداً من كونهم كتاباً للوحي، فنجده يقول: (ونكروا...).

إزاء ما تقدم يظهر جلياً للعيان، أن عبد الله بن أبي سرح ليس من كتاب الوحي، وأن قصته منسوجة، اختلفها هو وقت أن كان مرتداً، وليس بعد الكفر ذنب.
ورحم الله العلامة القاضي عياض إذ يقول: "إن قلت فما معنى ما روى أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركاً وصار إلى قریش فقال لهم إني كنت أصرف محمداً حيث أريد كان يملئ عليّ عزيز حكيم... الخ"^٢ وبعد أن ذكر القاضي قصة ابن أبي السرح السابقة قال:

إعلم ثبتنا الله وإياك على الحق ولا جعل للشيطان وتبليسه الحق بالباطل إينا سبيلاً، أن مثل هذه الحكاية أولاً لا توقع في قلب مؤمن ربياً، إذ هي حكاية عن ارتد وكفر بالله، ونحن لا نقبل خبر المسلم المتهم فكيف بكافر افتري هو ومثله على الله ورسوله ما هو أعظم من هذا؟ والعجب لسليم العقل يشغل بمثل هذه الحكاية سره وقد صدرت من عدو كافر مبغض للدين مفتر على الله ورسوله ولم يرد عن أحد من المسلمين ولا ذكر أحد من الصحابة أنه شاهد ما قاله وافتسراه على نبي الله، ﴿ إِنَّمَا يَمْتَرِي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥]. وما وقع من ذكرها في حديث أنس رضي الله عنه وظاهر حكايتها فليس فيه ما يدل على أنه شاهدها، ولعله حكى ما سمع، وقد علل البزاز حديثه ذلك وقال: رواه

^١ - العراقي. الحافظ عبد الرحيم بن الحسين، ألفية السيرة النبوية المسماة: نظم الدرر السنية في السيرة الزكية، تحقيق وتعليق: محمد بن علوي المالكي، دار المنهاج، دون طبعة وتاريخ، ص ١٢٥.

^٢ - اليعقوبي. العلامة القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الأندلسي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة ٣، ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م، ١٣٢/٢.

ثابت عنه ولم يتابع عليه، ورواه حميد عن أنس قال: وأظن حميدا إنما سمعه من ثابت، قال القاضي أبو الفضل وفقه الله: ولهذا والله أعلم لم يخرج أهل الصحيح حديث ثابت ولا حميد، والصحيح حديث عبد الله بن عزيز بن رفيع عن أنس رضي الله عنه الذي خرج أهل الصحة وذكرناه، وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه إلا من حكايته عن المرتد النصراني^(١)

ثانياً: بالرغم من ذلك سيفترض الباحث صحة ما قيل: من أنه كان أحد كتاب الوحي، ليرد بالآتي:

إن عمل ابن أبي السرح لم يتكرر من أحد سواه، بل هي حادثة لا نظير لها في تاريخ القرآن كله.

ثم إن النبي ﷺ أوقف ابن أبي السرح عن كتابة الوحي بعد رذته مباشرة، بل أهدر دمه^(٢).

وإن ابن أبي السرح لم يكن الكاتب الوحيد للوحي، بل قد بلغ تعداد الكتبة نحو الأربعين ونيفاً كلهم من خيرة الصحابة، وأعلامهم توثيقاً^(٣).

كما أن موافقة القرآن لأحد الناس لا يطعن في نزاهة القرآن بحال، وهناك موافقات متعددة للصحابة لم يستشف أحد ممن شهد التنزيل منها خلافاً تبليغياً أو عبثاً من جهة الرسول ﷺ حاشاه، وذلك كما روي عن أنس قال (قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ اللَّهَ فِي ثَلَاثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيً وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ وَبَلَّغَنِي مُعَانَبَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَبِدْتُنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُمْ حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ قَالَتْ يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْظُهُنَّ أَنْتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدِلَهُمْ آزُوجًا غَيْرًا مِنْكُمْ مُسَلِّمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَدْ نَبَّئَتْ عَيْدَانِ سَوَّيَاتٍ فَأَبَكَرْنَا﴾ التحريم: (١٥).

١- المرجع السابق، ١٣٣/٢.

٢- ينظر: الصارم المسلول، لابن تيمية، ١٢٨/٢.

٣- ينظر: كتاب الوحي، أحمد عبد الرحمن عيسى، الرياض: دار اللواء، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ص ٣٧.

٤- رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة، ٤/١٦٢٩.

والمعول عليه في الأمر قوة إعجاز القرآن الكريم والقصور عن الوصول لمثل تراكيبه أو نظمه.

ثم إن الكتابة كانت تعدّ عملية توثيقية خوف النسيان فحسب، أما المعول الأول عليه بعد حفظ الله عز وجل، كان حفظ الصحابة الذين أوتوا ملكة الحفظ، وقوة الذاكرة كسائر العرب^(١).

والسؤال الذي يطرح نفسه أخيراً؛ لو كان ابن أبي سرح قد تأكد من عدم صدق الرسول ﷺ، فكيف عاد للإسلام مرة أخرى وتمسك به وقايل من أجله؟

إن هذه القصة التي استغلها أغلب المستشرقين -ونولده ليس بدعاً في ذلك، فهو يتبع أقوال من سبقه منهم- ليس فيها في الحقيقة مطعن، لأن تاريخ القرآن الكريم وواقعه يرد هذه المزاعم، فهناك أعداد لا تحصى من البشر يحفظونه ويرددونه تعلماً وتعبداً، منذ لحظة نزوله وحتى يومنا هذا.

الفرع الثالث: سؤال ابن أم مكتوم

يقول نولده: "يدلنا المثل التالي على أنه قام أحياناً بإجراء إضافات إلى ما كان مكتوباً، كما يناسب أغراضه: حين وبخ القرآن أولئك الذين قعدوا عن الحرب، أتى أعميان على محمد وسألا بخوف عما إذا كان اللوم يصيبهما أيضاً؛ عندها أمر محمد زيد بن ثابت بأن يضيف بعض الكلمات التي يستثنى فيها المصابون بعلّة جسدية من اللوم"^(٢).

الرد:

في المثل الذي ذكره نولده حول سؤال (ابن أم مكتوم عن موقف أولي الضرر من الخروج للجهاد) ليستدل على إضافة شيء من قبل النبي للقرآن ليس له فيه متعلق، ولا يصلح دليلاً لنفي نسبة القرآن الكريم إلى الله عز وجل، فقد روي أنه (لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتُولُونَ مِنَ

١ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ١/ ٤٤٨ -

٤٤٩.

٢- نولده، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

الْمُؤْمِنِينَ ﴿ النساء: ٩٥، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَجَاءَ بِكِتَابٍ فَكَتَبَهَا وَشَكَأَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ضَرَارَتَهُ
فَنَزَلَتْ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَوْمُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ النساء: ٩٥^(١).

فالوحي يجيب عن التساؤلات إجابات شافية، باعتبارها قضايا عامة ومطروحة في كل زمان ومكان، وتمثل حاجات الناس طوال الحياة لا حاجة خاصة فحسب.

إن نزول القرآن بهذا الشكل مقصود للشارع الحكيم ومناسب لمرحلة التعليم والتعلم، وليس كما يدعي نولده حين قال: قام أحياناً بإجراء إضافات إلى ما كان مكتوباً، كما يناسب أغراضه.

ولو كان الأمر كما ادعى المؤلف لاستوجب ذلك نفور كتاب الوحي خاصة وتركهم الإسلام جملة، لأن القرآن أكد أَيْمًا تأكيد أنه نزل من قبل الله تعالى، وكتاب الوحي كانوا قريبين من الرسول ﷺ مطلعين على دقائق أحداث هذه الظاهرة المشهورة آنذاك، فلو تبين لهم خلاف ما أخبر به القرآن الكريم لضاقت صدورهم به، ولانتزعت ثقتهم بمصدره، ولقلبوا له ظهر المجن^(٢)، ولرووا بأمانة بالغة تلك المواضع التي تنتسب لغير الوحي دون وجل أو إحجام، كما نقلوا من قبل دقائق الأمور، وتفاصيل الأحداث صدرت عنه ﷺ، فلما لم يصدر عنهم شيء من ذلك ثبت بما لم يدع مجالاً للشك أن القرآن كله كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى ولو كان جزء من عبارة مثل: ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ النساء: ٩٥.

والقصة^(٣) بتمامها تعد أحد مظاهر سلامة القرآن الكريم، فحتى عبارة قصيرة مثل: ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ النساء: ٩٥ يؤمر الكاتب بتدوينها، وإثباتها في مكانها المنصوص عليه دون أن يكون لأحد فيه اجتهاد يذكر.

إن لا يصح ما سجله نولده من أن النبي ﷺ:

١ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر) ٢٤/٤.

٢ - يقال: (قَلَبَ لَهُ ظَهَرَ الْمَجْنُونِ) مثل عربي يضرب لمن كان لصاحبه على مؤذة ورعاية ثم خال عن العهد. ينظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١٠١/٢.

٣ - تم ذكرها وتخريجها في الصفحة السابقة.

"كان يلجأ لهذا لكي يرخي القيود التي وضعها، من خلال الآيات المثبتة بالكتاب، حول حريته النبوية دون انتباه"^(١).

بل هو زعم باطل، وافتراء على رسول الله ﷺ، واتهام له بأنه كان يتصرف في القرآن من عند نفسه، لأنه يحوجه الدليل، وتنقصه الحجة لتأييد زعمه، والصواب خلاف ذلك تماماً، لأنه ﷺ - لم يكن له أي تصرف في متن القرآن إلا بما يؤمر به، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْهُ مِمَّنْ قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ آيَاتَ الْكِتَابِ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية: ١٨، ومهمته الأولى هي البلاغ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المائدة: ٦٧، ولو كان له فيه يد لأتى على نحو آخر قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢. فزعمه هو افتراء على الحقيقة والقرآن والتاريخ و النبي ﷺ، الذي لم يكن له تدخل في القرآن إلا استدعاء الكتب لتدوينه ثم تحفيظه وتعليمه، وتبيينه للناس.

الفرع الرابع: دعوى الأصل الكتابي للقرآن الكريم.

حاول الكاتب أن يثبت أن البيعة الكتابية من يهود ونصارى هي التي أمدت محمد ﷺ بما جاء به الناس من قرآن، فمرة يدعي أن حدث موته ﷺ جسد هذا الجانب، ومرة يذكر أن أفكار القرآن جاءت بسبب اطلاع محمد ﷺ الجيد على اليهودية والنصرانية، لذا ستتناول الدراسة هذا الأمر في الفرعين التاليين:

الفرع الأول: قصة موت الرسول

يذهب نولدكه إلى أن قصة موت الرسول ﷺ حكاية (مفبركة) عن آخرها، أصلها موجود عند أهل الكتابين، مبني على أن موت النبي ليس أمراً طبيعياً، وقد اختلفت في عهد عثمان من قبل ابن سبأ، فيقول:

*..استناداً إلى نماذج يهودية ومسيحية إنه من البديهي ألا يموت نبي أرسله الله موتاً طبيعياً، بل أن يختطف بطريقة عجائبية"^(٢)

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

٢ - المرجع السابق، ص ٣١٣.

وعلى الرغم من أن المؤلف رفض ما يتصل بهذه الشبهة من تقريرات، لأنه أوردها في معرض رفضه لرأي (فايل) وغيره من المستشرقين، إلا أنه يستحسن دحضها بسبب طرحها وورودها من قبله ابتداءً ولو كانت على لسان غيره.

الرد:

هذا يدين المستشرقين باستمرار، يرتضون الضعيف والمردود ويوسعونه، وينفرون من الصحيح والثابت ويؤولونه، ونولده ليس بعيداً عنهم فهو واحد منهم، بل من كبرائهم، فهو لما علم أن هذه الرواية صحيحة أسرع في ردّها ورفضها بشدة. ولنلق الضوء الآن على جوانب القصة كما وردت ليتمكننا بعد ذلك اكتشاف على ما يطمح إليه المستشرقون من التعلق بهذه الفرية:

إن الآية نزلت في أحد وكانت معلومة للصحابة ويحفظونها^(١)، وقصة وفاته ﷺ ثابتة صحيحة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أقبل أبو بكر ﷺ على فرسيه من مسكنه بالسُّحِّح^(٢) حتى نزل فنزل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حيرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبلته ثم بكى فقال: يا بني الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها. قال أبو سلمة فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عنه خرج وعمره ﷺ يكلم الناس فقال اجلس فأبى فقال اجلس فأبى فتشهد أبو بكر ﷺ فمال إليه الناس وتركوا عمر فقال أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٤ والله لكان الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزلها حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه فتلقاها منه الناس فما يسمع بشرًا إلا يتلوها^(٣).

^١ - ينظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد محمد أبو شهبه، الرياض: دار اللواء، ط ٣، ١٤٠٧هـ -

١٩٨٧م، ص ٢٩٦.

^٢ - والسُّحِّح: بضم المهملة وسكون النون بعدها حاء مهملة، منازل بني الحارث بن الخزرج وكان أبو بكر متزوجاً فيهم.

^٣ - أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، ٧١/٢.

هذه هي حكاية اختلاف الصحابة رضي الله عنهم لما هالهم مصابهم بفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل تُحْفِقُ نولدكه من الإسناد أو اطلع على علة خفية جعلته يحكم على القصة بأنها مفبركة؟ لا أظن شيئاً من ذلك حصل، إنما اضطر إلى هذا التقرير كما هو واضح بتأطير فكري وديني مسبق، وفي تقديري لو سبق لعلم نولدكه أن الرواية مردودة عند علماء المسلمين لكان له أمر آخر معها تبرره ظروف لحظتها ليس أكثر.

فدعوى المؤلف حول شبهة الأصل الكتابي للقرآن الكريم بقوله:

"..ألا يموت نبي أرسله الله موتاً طبيعياً، بل أن يختطف بطريقة عجائبية"^(١).

لا يعتدّ بها، لأن الرواية في ذلك صحيحة، ولأن ظروف الحادث الجلل جعلت من قول الراوي: (وَاللَّهِ لَكَانَ النَّاسُ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا) أمر منطقي للغاية ولم يفهم منه أحد من المسلمين أن هذه الآية اخترعها أبو بكر وقتنذ، ولم يخطر ببال أحد من المسلمين -أيضاً- أن الإرث اليهودي أو النصراني لديهم قد استدعى اختلاق هذه القصة عندهم، لأن موت النبي في نظر المسلمين مصيبة لا تساويها مصيبة.

لكن يظهر أن نولدكه قد استلهم ظروف النشأة التي رافقت حياة الكتاب المقدس، والإرث الثقيل والمتراكم خلال مئات السنين فيه، فأراد أن يسقطه على القرآن الكريم ليصل إلى أن فيه من الخرافات كما في الكتب السابقة.

الفرع الثاني: دعوى اعتماد القرآن الكريم على اليهودية والنصرانية

يدعي المؤلف أن محتوى القرآن مأخوذ عن اليهودية والنصرانية، فيقول:
"إن اطلاع محمد على اليهودية والنصرانية كان جيداً إلى الحد الذي كان ممكناً في عصره في مكة. وقد اعتمد على هذين الدينين إلى درجة أنه نادراً ما توجد فكرة دينية في القرآن ليست مأخوذة عنهما."^(٢)

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ٣١٣.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٤٣.

الرد

إن القرآن لا ينكر وجود اليهودية ولا النصرانية، بل ينتقد انحرافاتهما عن التوحيد، ويصح مزالمتهم في الطريق، ويرفض ضلالتهم وخرافاتهما في كل شيء.

فلما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة واجه بيئة جديدة، وهي بيئة أهل الكتاب، وكان شخصاً عظيماً مشهوراً، ولم يكن وحيداً في لقاءاته مع الناس، فحركاته كلها مراقبة من جميع أهل المدينة، لذا يستحيل على من هذا حاله أن يأخذ من الناس شيئاً وينسبه إلى الله تعالى، وهو يعلن أنه تلقى القرآن من الله تعالى لا من الناس، إن لافترض أمره، ولتركه أتباعه وابتعدوا عنه، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

فما الذي يصلح للاقتباس من أعمال هؤلاء وأسفارهم؟

إن موقف القرآن من الأفكار الكتابية هو الرفض الكامل لكل ما أفسدوه في كتبهم وعقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم، فهو لا يقرّ اليهود على اتهامهم لله تعالى بالبخل كما قالوا ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ هَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ المائدة: ٦٤ ولم يسامحهم في افتراءاتهم على الأنبياء والملائكة، ولم يسكت على النصارى لما قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ولم يتسرب إلى جسمه خطأ تاريخي أو علمي أو فني من جملة الأخطاء التي تغص بها كتبهم، فكيف يستقيم بعد هذا كله أن تكون خرافات أهل الكتاب أصلاً لكتاب أنقذ الإنسانية كلها من الضلال إلى النور؟ لا أعتقد أنه سيقبل عقل عاقل أن يكون ما حرفة اليهود والنصارى من كتبهم وأكاذيبهم مصدراً للقرآن الكريم، لأنه سيكون عندئذٍ من قبيل العبث والمغالطة قسي مقتضيات المنطق وأصول البحث العلمي.

كما أن العلم الحديث قد أثبت خطأ الكتاب المقدس في كثير من مسائله، ولم يستترك على القرآن أي وجه في ذلك، ولو كان القرآن الكريم قد اقتبس منه لكانا في الحكم سواء، ولما اختلف عنه أمام علماء الطبيعة ورواد الفضاء، وهذا الطبيب موريس بوكاي يرد على دعاوى المستشرقين بأن القرآن الكريم قد نقل من الكتاب المقدس، فيقول:

"عندما نحلل مفهوم نشأة الكون في القرآن الكريم يتبين لنا لأول وهلة مدى التباين بين ذلك المفهوم، وبين ما جاء بالكتب السماوية الأخرى، وهذه النتيجة - في حد ذاتها - تنفي تماماً

الادعاءات المضللة لمؤلفين غربيين عن التشابه بين القرآن الكريم والكتب السابقة، واتهامهم لمحمد - ﷺ - باقتباس القرآن الكريم من التوراة والإنجيل^(١).

وهناك دليل واضح على صفاقة القول بالأصل الكتابي للقرآن، وهو دليل لا يقبل التأويل أو التحوير، يتمثل في السؤال الآتي: لم حارب أهل الكتاب القرآن، ولم ناصبوه العداة ووقفوا منه موقف الخصم الألد، قديماً وحديثاً، ولم يرفضونه جملة وتفصيلاً إن كان قد جاءهم بما هو موجود لديهم كما يدعون؟ بل ألم تكن الهجمة الشرسة من جهة الغرب اليوم والمتمثلة في الاستشراق والاستعمار والتبشير والعلومة إلا ردة فعل حقيقية لنقض القرآن الكريم لما هو عندهم؟

إن نولدكه لا يدرك طبيعة القرآن الكريم لذا فهو يزعم أن القرآن استمد من الأفكار اليهودية والنصرانية، وقرر أن أصل فواتح السور يهودي، فهذا خلط ليس عليه دليل، إذ أن عدد السور المفتحة بهذه الحروف سبع وعشرون، كلها مكية سوى البقرة وآل عمران، فكيف تأثر ﷺ باليهود في خمس وعشرين سورة وهو لم يلتق بهم أو يجاورهم؟

المطلب الثاني: دعوى نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن الكريم

يقول نولدكه: "إذ من المحتمل أن يكون في السنوات الأولى من رسالته، حيث لم يكن له بعد أتباع، قد نسي بعضاً مما أنزل عليه، قبل أن يُطلع عليه أحداً"^(٢).

ويقول: "وهو لم ينس - هذا بحسب رواية المسلمين وبحسب شهادة القرآن نفسه - بعض المقاطع وحسب، بل قام أيضاً بتعديل بعضها عن قصد"^(٣).

ويقول: "في وقت مبكر كان كل شيء يحفظ في الذاكرة التي كانت تخون النبي في بعض الأحيان. لهذا تراه في سورة البقرة ٢: ١٠٠/١٠٦ يعزي المؤمنين بقوله إن الله سوف يمنحهم بدل كل آية ذهب ضحية النسيان آية أفضل"^(٤)

١ - بوكاي. موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ١٧٢.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٢.

٣ - المرجع السابق، ص ٤٤.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

استنتج نولدكه أن الرسول ﷺ أضاع شيئاً من القرآن الكريم، وقال: هذا بحسب روايته المسلمين وبحسب شهادة القرآن نفسه، وهو يعني بشهادة القرآن ما جاء في سورة البقرة: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ آيَةً تَمَلَّهُمْ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٥﴾ ١٠٠/١٠٦:٢. وفي سورة الأعلى: ﴿ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ ﴿٨٧﴾:٦، كما أشار في حاشية الصفحة نفسها.

ويعني بالحديث: ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت (سمعت رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال يرحمهُ اللهُ لقدْ أذكرتني كذا وكذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا)^(١).

الرد:

وسأبين فيما يلي مدلول ما تقدم من آيات وآثار لنستطيع الحكم على صحة دعوى المدعى أو خطئه وذلك ضمن الفروع الآتية:

الفرع الأول: آية سورة البقرة

وهي قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ آيَةً تَمَلَّهُمْ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٠٦

قد يكون معنى "آية" في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ آيَةً تَمَلَّهُمْ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، قال ابن عاشور: "والآية في الأصل الدليل والشاهد على أمر". قال الحرث بن حلزة:

من لنا عنده من الخير آيات ... ثلاث في كلهن القضاء

ووزنها فعلة بتحريك العين عند الخليل وعينها ياء أو واو قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها والنسبة إليها أبي أو أوى. ثم أطلقت الآية على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَتِيفًا ﴾ الإسراء: ٥٩ وتطلق الآية على القطعة من القرآن

^١- رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن وهل يقول نسبت آية كذا وكذا، ١٩٣/٦.

المستلمة على حكم شرعي أو موعظة أو نحو ذلك وهو إطلاق قرآني قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ١٠١ ويؤيد هذا أن من معاني الآية في كلام العرب الأمانة التي يعطيها المرسل للرسول ليصدقها المرسل إليه وكانوا إذا أرسلوا وصاية أو خبراً مع رسول أرفقوه بأمانة يسمونها آية لا سيما الأسير إذا أرسل إلى قومه برسالة كما فعل ناشب الأعرور حين كان أسيراً في بني سعد بن مالك وأرسل إلى قومه برسالة وأراد تحذيرهم بما يببته لهم أعداؤهم الذين أسروه فقال للرسول قل لهم كذا بآية ما أكلت معكم حيساً. وقال سحيم العبد:

ألكني إليها عمرك الله يا فتى ... بآية ما جاءت إلينا تهاديا
ولذا أيضا سمو الرسالة آية تسمية للشيء باسم مجاوره عرفاً^(١).

١- إن كلمة "نسيها" فيها قراءتان، أحدهما: "نساها" بالهمز، أي نؤخرها^(٢)، فلا تكون دالة على النسيان، وفُسِّر النسيان كذلك بمعنى ترك العمل، فالمعنى ألا يترك العمل، إلا بما شاء الله ترك العمل به فينسخه، وعلى هذا -أيضاً- تخرج الآية عن محل الاستشهاد.

٢- وحتى على فرض أن المقصود منها النسيان فحسب، فليس فيها دليل يؤيد الإخلال بنزاهة النص الكريم، ذلك أن نسيانه ﷺ -كما يفيد نص الآية موضع الاستشهاد- كان بأمر الله تعالى، لا دخل له ﷺ فيه، قال ابن عطية: "والصحيح في هذا، أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت قرآناً، جائز^(٣)."

كما أن مجئ الآية على صورة الشرط، يمنع حصول الجواب دون حصول الشرط، وألغى الشرط يكثر أن تدخل على المعنى المستحيل مثل قوله تعالى: ﴿ تَوَكَّأَنَ فِيهَا آيَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٢ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٥. فضلاً عن أن هذا النسيان إن وقع منه ﷺ، فهو

١- ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتلوين، بيروت: مؤسسة التاريخ، ط١ - ٢٠٠٠م، ٦٣٧/١ - ٦٣٨.
٢- ابن زنجلة. عبد الرحمن، حجة القراءات، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٤، ص ١٠٩.
٣- ابن عطية. أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت: دار ابن حزم، ط١ - ٢٠٠٢. ص ١٢٢.

نسيان عارض من طبائع البشر، فهو ﷺ معصوم قبل التبليغ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له فجانز، ولا يتنافى هذا مع سلامة القرآن الكريم، وأما النسيان المستمر فمحال عليه ﷺ^(١).

بالإضافة إلى أن ما استدلل به من اختار جواز مطلق النسيان عليه ﷺ، آثار لا تصح، قال ابن عاشور: «ومما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى: {ننساها} أنه إنساء الله تعالى المسلمين للآية أو للسورة، أي إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبي ﷺ إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلاً على النسخ، واستدلوا لذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر^(٢) قال: «قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله ﷺ، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف، فغديا على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال لهما: إنها مما نسخ وأنسي فالهوا عنها، قال ابن كثير هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف وقال ابن عطية هذا حديث منكر أغرب به الطبراني وكيف خفي مثله على أئمة الحديث^(٣)».

الفرع الثاني: آية سورة الأعلى

ثانياً: أما قوله تعالى: ﴿سَتُورُكَ فَلَا تَنسَخْ﴾ الأعلى: ٦ فجملة القول فيها ما يأتي:

١. إن (لا) في الآية نافية، وليست ناهية، بدليل إشباع السين، قال الأوسى بعد أن ذكر احتمال أن تكون ناهية: «وفيه أن النسيان ليس بالاختيار فلا ينهى عنه^(٤)» قال القرطبي بعد أن ساق آراء العلماء في المسألة: «والأول -يعني كون لا نافية- هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً، وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراءة^(٥)».

١ - ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ص ٧/٢.

٢ - المرجع السابق، ٧/٢.

٣ - الأوسى. شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط ١-٢٠٠٠م، ٤٤٣/٣٠.

٤ - القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ١٨/٢٠.

وفي هذا تظمين من الله لرسوله ﷺ بأنه لن ينسى من القرآن شيئاً، فهي تدل على عكس ما أراد نولدكه الاستدلال بها عليه.

٢. إن الاستثناء في الآية معلق على مشيئة الله إياه، ولم تقع المشيئة، بدليل ما وعد الله به رسوله ﷺ من قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَيْنِنَا جَمَعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ ﴾ (القيامة: ١٧)

٣. قد يكون الاستثناء في الآية صورياً لا حقيقياً، فهو للتبرك، وليس هناك شيء استثنى. فالألووسي ينقل عن الفراء بأنه تعالى ما شاء أن ينسى النبي ﷺ شيئاً وأن هذا الاستثناء يشبه قوله سبحانه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَيْنًا وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٦) مع القطع بأنه تعالى ما شاء ذلك، وقوله سبحانه ﴿ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر: ٦٥) مع أنه ﷺ لم يشرك البتة.

والحكمة في هذا الاستثناء الصوري: بيان فضل الله وإحسانه على النبي ﷺ وأُمَّته، إذ لو أراد تعالى أن ينسيه لأنسائه^(٥). وقد يكون هذا الاستثناء حقيقياً، وأن المراد به منسوخ التلاوة، فيكون المعنى: أن الله تعالى وعد بأن لا ينسى نبيه ﷺ ما يقرؤه، إلا ما شاء - سبحانه - أن ينسيه إياه بأن نسخ تلاوته لحكمة.

وعلى هذه الأقوال؛ فلا تعلق لنولدكه بهذه الآيات، إذ لا يفهم منها أن النبي ﷺ قد نسي حرفاً واحداً مما أمر بتبليغه .

الفرع الثالث: الحديث

والجواب عما أراده نولدكه من إيراده الحديث الشريف ما يأتي:

أولاً- إن روايات الحديث لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول ﷺ من أحد أصحابه كانت قد انمحت من ذهنه الشريف جملة، بل غاية ما تفيد أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة صاحبه، وليس غيبة الشيء عن الذهن كمحوه منه، فالنسيان

١ - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي،

٢٦٧/١-٢٦٨.

هنا بسبب اشتغال الذهن بغيره، أما النسيان التام فهو مستحيل على النبي ﷺ، لإخلاقه
بوظيفة الرسالة والتبليغ^(١).

ثانياً: ليس في الحديث الذي أورده نولدكه حجة للتشكيك في صحة كتابة القرآن وجمعه،
فالآيات التي ادعى أنه أنسيها النبي ﷺ كانت مكتوبة ومحفوظة لدى عدد من أصحابه ﷺ
الذين تلقوها عنه، وإنما غاية ما فيه الدلالة على أن قراءة ذلك الرجل ذكرت النبي ﷺ
بالآيات وكانت قد غابت عن ذهنه الشريف فترة، وليس في الخبر إشارة إلى أن هذه
الآيات لم تكن ممّا كتبه كتّاب الوحي، ولا ما يدل على أن أصحاب النبي ﷺ كانوا نسوها
جميعاً، حتى يخاف عليها الضياع.

قال الباقلاني^(٢): وإن أردت أنه ينسى القدر الذي ينساه العالم الحافظ بالقرآن، الذي لا يُنسب
صاحبه إلى بلادة، فإن ذلك جائز بعد أدائه وبلاغه، والذي يدل على جوازه أنه غير مفسد
له، ولا قادح في آياته، ولا مفسد لكمال صفاته، ولا مسقط لقدره، ولا منزل له عنه، ولا
معرض بتهمته^(٣).

بقي شيء يجب أن أختتم به هذا المطلب، يتعلق بما ذكره نولدكه من أن هناك آيات فقدت
من مصحف ابن مسعود بواسطة النسخ، فقد روي أنه استظهر آية ودونها ثم أمسى لا يعرفها،
فسأل النبي ﷺ عما حدث فأجابته بأنها نسخت.

وعلى الرغم من أن الكاتب رفضها بقوله: "لا يمكن الركون إلى هذا النوع من
التصاريح، حتى ولو كانت تستحق التصديق"^(٤) إلا أنه أوردها على سبيل الشبهة والطعن، لأنه
قال: حتى ولو كانت تستحق التصديق.

١ - المرجع السابق، ٢٥٩/١، بشئ من التصرف.

٢ - هو القاضي محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، الإمام العلامة، سيف السنة ولسان الأمة، المتكلم على
لسان أهل الحديث، صاحب التصانيف، وكان يُضرب المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقة إماماً بارعاً. صنف في
الرد على الرافضة والمعتزلة وغيرهم من الفرق، مات في ذي القعدة سنة 403 هـ . ينظر: سير أعلام النبلاء،
شمس الدين الذهبي، (١٧/١٩٠).

٣ - نكت الانتصار لنقل القرآن، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد زغلول سلام،
الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧١م، ص. 312

٤ - ينظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله ابن سلامة، ص ٥. ونواسخ القرآن، لابن الجوزي، ص ٣٤.

فما يجب على المستشرقين أن يعلموه، أن موضوع النسخ ليس محل اتفاق بين المسلمين،
ومن أنكره منهم فسراً الآيات المحكوم بنسخها تفسيراً لا يتوقف على القول بالنسخ، وعلى
القول به يسقط استشهاده نولدكه من أساسه.

ويمكن إجمال حقيقته بالقول: إن الله تعالى شرع حكماً ما، ثم رفعه ونسخه وأبدله حكماً
آخر غيره، بما يناسب التدرج التشريعي، الذي هو صفة من صفات التشريع الإسلامي^(١).
فموضوعه يختلف تماماً عن إشكالية قطعية ثبوت القرآن وعدمه، فهما قضيتان منفصلتان، لا
تمت إحداهما إلى الأخرى بصلة.

١ - ينظر: أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، دمشق: دار الفكر، ط ١ - ١٩٨٦، ٩٣٣/٢ - ٩٣٧.

المطلب الثالث: دعوى حول تدوين القرآن الكريم وحفظه

لنولدكه آراء مختلفة حول تدوين القرآن الكريم وحفظه، تتسم بالغرابة والشذوذ والبعد عن المنهج العلمي، ويمكن إجمال مزاعمه حول ذلك فيما يلي:

الفرع الأول: تدوين القرآن الكريم

ذهب نولدكه إلى أن القرآن لم يدون على عهد رسول الله ﷺ، مستدلاً بما روي من آثار يفهم من ظاهرها ذلك، كخبر (قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء) (١).

وهدف نولدكه من هذا الزعم إلى التشكيك في حفظ القرآن، والطعن في الكتابة، وليبيان أن القرآن أوكل في جمعه إلى ذاكرة الصحابة رضياً، الذين يعتبرهم ما يشترك فيه البشر جميعاً من النسيان والخلط والوهم، ليصل أخيراً إلى أن الخلل قد تسرب إلى القرآن الكريم.

وهذه فرية لا تقوى على الوقوف أمام الروايات الصحيحة الثابتة الدالة على أن القرآن الكريم قد تم تدوينه في عهد النبي ﷺ، والأدلة على ذلك تفوق الحصر، منها:

١- اتخاذه ﷺ عدداً من الصحابة يدوتون ما ينزل عليه من القرآن، ويعرف هؤلاء بـ (كتاب الوحي).

٢- ما روي عن زيد بن ثابت رضياً قال: (كنا عند رسول الله ﷺ نُؤلف القرآن من الرقاع) (٢) أي: نجمعه لترتيب آياته من الرقاع.

٣- ما ورد عن زيد بن ثابت قال: فَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

١ - أخرجه الديرعاقولي في فوائده، ينظر فتح الباري، ابن حجر، (٦٢٧/٨)، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ٢٦٩/١. وقد رواه الطبري عن الزهري مرسلًا مرفوعًا، ينظر: تفسير الطبري، المقدمة (٢٨/١). وهو أثر موقوف على زيد، وإسناده حسن، لأن من رواه إبراهيم بن بشار، قال عنه البخاري: صدوق، وقال عنه ابن حجر: حافظ له أو هام. ينظر: كتاب جمع القرآن، أكرم الدليمي، ص ١٠١.

(٢) رواه الترمذي، باب في فضل الشام واليمن، ح ٣٨٨٩، ٤٦٩/١٢.

مَا عِندَهُ حَرِيصٌ فَلْيَكُفُّمُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَهْوتٌ رَجِيدٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ التوبة: ١٢٨ - ١٢٩ (١)

وهذا صريح الدلالة في أن القرآن كان مكتوباً في السطور، محفوظاً في الصدور، قبل الجمع البكري، في عهد الرسول ﷺ.

٤- ما ثبت عن الذراء قال: «لما نزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء: ٦٥ قال النبي ﷺ: ادعوا فلاناً، فجاءه ومعه الدواة واللوح - أو الكتف - فقال: اكتب ﴿حَيْزُ أُولَى الضَّرِيرِ﴾ النساء: ٩٥... الحديث (٢).

والمؤلف على علم بذلك كما أقر هو بقوله: "عدا التدوين الذي كان محمد نفسه وراءه، ربما كانت هناك أيضاً عمليات تدوين أخرى.. (٣)". والإقرار سيد الأدلة.

٥- يدل نهي النبي في أول الأمر عن كتابة شيء غير القرآن على أن تدوين القرآن كان بأمر من الرسول ﷺ، وأن الصحابة إنما ينفذون ما يطلب منهم.

٦- فالثابت أن فكرة تدوين الوحي كانت قائمة منذ نزوله، وهناك كتبة الوحي الذين كان منهم: الخلفاء الراشدون، ومعاوية، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

٧- وتجدر الإشارة إلى أن إطلاق لفظ الكتاب على القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى، يشير إلى أنه كان مدوناً في السطور، على هذه الوسائل المتوافرة آنذاك.

٨- أما حديث زيد: (قبض النبي ولم يكن القرآن جمع في شيء) (٤)، فقد بين العلماء المراد منه، وهو أن القرآن لم يجمع في كتاب واحد على غرار ما حدث فيما بعد، لأسباب معينة، يرجعها العلماء إلى عدم الحاجة إليه في هذا العصر لوجود النبي ﷺ مرجعاً للناس، إضافة

1 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨٢/٦.

2 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: كاتب النبي ﷺ، ١٨٤/٦.

3 - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٣٩.

4 - سبق تخريجه ص ٩٨.

إلى تنجيم القرآن وترقب النسخ.

٩- فالشبهة أنت من جانب عدم وجود مصحف يجمع القرآن كله في حياته ﷺ، لذا يجب التفريق بين تدوين كل القرآن وبين جمعه في مصحف واحد، أما عن التدوين؛ فمما لا شك فيه أن القرآن كله كتب بين يدي النبي ﷺ.

١٠- ومعلوم أن الجمع قد يطلق ويراد منه معاني متعددة كما تقدم، منها: تدوينه كاملاً على وسائل الكتابة، فلم يجمع القرآن في مصحف واحد بين لوحين في حياة النبي ﷺ ولا في صدر خلافة أبي بكر ﷺ، لكنه كان مكتوباً آنذاك متفرقاً، على الرقاع وغيرها، إملأ منه ﷺ، وبقيت كما هي لم يطرأ عليها أي تغيير من أي نوع، ولما قتل سبعون رجلاً من حفاظه دعت الحاجة إلى جمع ما كتب مفرقاً في مصحف واحد في منتصف خلافة أبي بكر، باقتراح من عمر رضي الله عنهما.

وفي تقديري إن نولدكه يخلط بين مصطلحي تدوين القرآن وجمعه، وإلا لم ظهر رأيه نشاراً ولم يوافق -على الأقل- بعض زملائه المستشرقين مثل بوهل وغيره، الذين رأوا - حال شططهم- أن القرآن لم يدون إلا في المرحلة المدنية دون مكة؟

إن ليس صحيحاً ما يردده نولدكه من قوله: " ألا يكون القرآن قد جمع كاملاً في أيام النبي أمر بديهى. ذلك أن رسول الله استدعى بشكل مفاجئ وغير متوقع من المسرح الأرضي"^(١) وإن كان هناك بدهة أو حسم في الأمر؛ فهو لم يتجاوز عقول المستشرقين وأتباعهم، فمثل هذا السلوك يعزز في النفس وجهة نظر إدوارد سعيد من الاستشراق بشكل عام، فهو لم يكن مبالغاً حين كشف الاستشراق وفضح نواياه.^(٢)

فكل ذلك جزء من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، التي تدل على أن القرآن قد كُتب كله على عهد النبي ﷺ.

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٤٠.

٢ - ينظر: الاستشراق، إدوارد سعيد، ص ٢٩ فما بعد.

الفرع الثاني: عدد جامعي القرآن

بقي شيء يذكر هنا، فقد تحدث نولدكه حول عدد جامعي القرآن زمن النبي ﷺ، مشيراً إلى عدد من الروايات المتضاربة في شأن الجامعين وتعيينهم، فيقول: "لا تختلف آراء الروايات المختلفة في شأن عدد من تدعوهم جامعين للقرآن، بل أيضاً في أسمائهم، فأكثر ما تقع عليه الأسماء الأربعة الآتية: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد الأنصاري..."^(١) ثم يستمر في ذكر عدد من الأخبار المخالفة لهذه الرواية، عازياً لها في الحاشية إلى مظانها.

تنصب هذه الشبهة حول تواتر نقل القرآن الكريم؛ لأنه إذا كان عدد الصحابة الذين نقلوا القرآن عن الرسول محصوراً بما أفادته هذه الروايات، فإن القرآن لم يتوافر في نقله شروط التواتر.

وعلى الرغم من أن نولدكه ذكر ما يفيد بأن عدد جامعي القرآن وفق الروايات المخالفة يفوق خمسة عشر، وهو ما يأتي على الشبهة من أساسها، لأن عدداً مثل ذلك كفيلاً بإطلاق معنى التواتر على هذا العمل، إلا أنه أورد الأمر على سبيل الشبهة للطعن في سلامة القرآن، وللاستدلال على قلة الاعتناء به من قبل الصحابة ﷺ.

لكن نهافت هذه الشبهة يتضح من خلال معرفة حال الأمة الذين تلقوا القرآن، فقد كانوا يتفخرون ويتسابقون إلى حفظ القرآن؛ كالذي ثبت عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ إني أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني لرحلت إليه..)^(٢).

كما أنهم جعلوه في المقام الأول من عنايتهم واهتمامهم، فكانوا يتنافسون في تلاوته وحفظه وفهمه، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأعريفُ أصواتَ رُفقاءِ الأشعرِيِّينَ

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٤١. وهو يريد بهذا ما صح عن أنس أنه قال: (مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة...) الحديث رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، ١٨٦/٦.

^٢ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه ﷺ، رقم: (٦٤٨٦) ١٤٨/٧.

بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ وَأَعْرَفَ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَسْوَاجِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ نَمَّ أَر
مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ^(١).

لذا فإن القرآن كان شغلهم الشاغل، وكانوا يتعلمون العشر آيات فلا يتعدونها وينتقلون إلى غيرها حتى يحفظوها ويعملوا بما فيها، وجيل كامل هذا حاله لا يعقل بحال أنه لم يحفظ القرآن منهم سوى خمسة أو ستة أنفار، بل الواقع الذي يجب أن يُعترف به أن خلقاً لا يحصى من الرجال والنساء، والصغار والكبار، قد حفظوا القرآن وأتقنوه وضبطوه^(٢).

وما فهم من روايات حصرت حفظ القرآن وتلقيه بعدد محدد من الصحابة فليست على إطلاقها، وليس الحصر مراداً منها ولا متعيناً فيها، فهو حصر نسبي أو إضافي لا حقيقي^(٣) فينبغي -إن- حملها وفهمها على مقاصد آخر، فقد يقصد منها أنه لم يجمع جميع القرآن عن الرسول ﷺ ويأخذه من فيه تلقياً غير ذلك العدد المذكور، والباقي - وهم الأكثر - لم يتلقوه كاملاً عن الرسول، وقد تحمل على أنه لم يجمعه في حياة الرسول ﷺ وينتصب لتلقيه لغيره من الصحابة بأمر من الرسول ﷺ إلا ذلك العدد المذكور، دون أن يعني ذلك أن غير هؤلاء من الصحابة لم يكونوا يحفظون القرآن أو بعضاً منه؛ أو تحمل على من اشتهر من الصحابة بحفظ القرآن والتصدي لإقرانه أكثر من غيره. أو أنه لم يجمع أحد منهم القرآن مكتوباً لنفسه إلا هؤلاء المذكورون، وقد يكون مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار وهم أبي ابن كعب وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل و زيد بن ثابت وأبو زيد^(٤).

فالروايات تحتمل جميع هذه التأويلات، وعندئذ لا يصح لأحد أن يستدل بها على قصر حفظ القرآن من الصحابة على عدد قليل، خاصة وأن صيغ هذه الروايات تضاربت في العدد،

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر، ١٣٠/٥ و مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأشعرين، رقم: (٦٥٦٣) ١٧١/٧.

٢ - ينظر: مدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، ص ٢٦٦.

٣ - ينظر: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

٤ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١/ ٣٣٥ - ٣٢٦. ومدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، ص ٢٦٥.

فبعضها قصره على أربعة، وبعضها على خمسة أو أكثر، كما أن بعضها ذُكر من بين الحفظة
أبا الدرداء أو زيد بن ثابت وأخرج غيرهما^(١).

قال السيوطي: "وقد استتكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة، وقال المازري: لا يلزم
من قول أنس: "لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، لأن التقدير أنه لا يعلم
أن سواهم جمعه وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد! وهذا لا يتم إلا
إن كان لقي كل واحد منهم على انفراد وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي ﷺ
وهذا في غاية البعد في العادة وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك.

قال: وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه فإننا لا نسلم حمله
على ظاهره سلمناه ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك سلمناه لكن لا يلزم من
كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حفظ مجموعة الجم الغفير وليس من شرط
التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه بل إذا حفظ الكل ولو على التوزيع كفى"^(٢).

فإذا ما أضيف لذلك ما صح أنه قُتل يوم بئر معونة سبعون ممن جمع القرآن من
الصحابة، وما روي أيضاً أنه قتل في وقعة اليمامة نحو هذا العدد^(٣)، فكم عدد من لم يُقتل ممن
حضرها، ومن لم يحضرها، ومن بقي بالمدينة أو بمكة أو غيرهما؟ وبه يتبين خطأ تولدكه في
محاويلته الإلماح إلى هذه الشبهة عن طريق استغلال وجود روايات صحيحة تذكر ذلك.

وبهذا يتبين أن الروايات التي استند إليها أصحاب هذه الشبهة لا تكفي على أن القرآن لم
يحفظه أو لم يجمعه غير أولئك المذكورين من الصحابة، بل الواقع يشهد بخلاف ذلك، ويتبين
أيضاً أن نقل القرآن قد توافر فيه شروط النقل المتواتر، ولا يلتفت إلى كل قول يقول بخلاف

^١ - فقد تناوبت على هذه الروايات الأسماء الآتية: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد،
وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وعثمان بن
عفان، وعلي بن أبي طالب، وتميم الداري، وأبو عبيدة، وعقبة بن عامر، ومجمع بن جارية، وأبو أيوب،
وعبيد بن معاوية.

^٢ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ٢٤٥/١.

^٣ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

ذلك، لأنه من الإفك الذي لا يرتضيه ذو بصيرة ينشد الحق(١). وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿٩٠﴾ الحجر: ٩٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

^١ - قال السيوطي: "وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة، ولا متمسك لهم فيه، فإنا لا نسلم حمله على ظاهره... الإتيان في علوم القرآن، ٣٣٤/١.

المطلب الرابع: دعوى عدم اهتمام النبي ﷺ بالقرآن الكريم

يقول نولدكه: "قهل كان للنبي فعلاً أن يتوقع، كما يزعم فايل، أن الخلاف سينشب بعد وقت قصير من وفاته حول حرفية ما نزل عليه، وهو الرجل غير المتعلم الذي لم يعرف تعظيم الحرف بتاتاً، إن تفكيره الذي انصب بالفطرة على الأهداف القريبة لم يكن في وسعه تصور المنحى الذي سيأخذه الإسلام بعد وفاته، وقد أوكل لربه العناية بالأمر البعيدة، وربما لم يشغله مصير القرآن، بقدر ما فكر في اختيار من يخلفه"^(١)

فقد توصل نولدكه عن طريق منهجه إلى أن الرسول ﷺ لم يهتم بالقرآن الكريم.

الرد:

- إن مظاهر اهتمام الرسول ﷺ بالقرآن الكريم لا تخفى على أحد، ويمكن بيانها فيما يلي:
- (١) إن مضامين المطلب السابق، تعد أحد أهم مظاهر العناية الفائقة من قبله ﷺ بالقرآن، فقد تقدم حرصه ﷺ على تدوين كل ما ينزل عليه من الوحي ولو كان بعض آية.
 - (٢) مراقبته ﷺ لما يمليه على الكتابة بعد انتهاء الوحي، ومراجعتها لها ثم تقييمه لأخطائهم إن وجدت، فقد روي عن زيد بن ثابت قال: (كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَشْتَدُّ نَفْسَهُ وَيَعْرِقُ عَرْقًا شَدِيدًا مِثْلَ الْجَمَانِ، ثُمَّ يُسْرَى عَنْهُ، فَأَكْتُبُ وَهُوَ يُمَلِّي عَلَيَّ، فَمَا أَفْرَغَ حَتَّى يَنْقَلَّ، فَإِذَا فَرَّغْتُ، قَالَ: اقْرَأْ، فَأَقْرَأُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقَطٌ أَقَامَهُ)^(٢).
 - (٣) يتجلى هذا الجانب من اهتمام النبي ﷺ بالقرآن في حثه المستمر لأصحابه بالتمسك به وحفظه، وتعليمه، وقرأته، وتلاوة آياته بمجرد نزولها، وعدم مجافاته، ومما روي من الحث على حفظه، قوله ﷺ: « مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فَاسْتَنْظَرَهُ وَحَفِظَهُ أَنْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَشَفَعَهُ

١- نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

٢- قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون إلا أن فيه: (وجدت في كتاب خالي) فهو وجادة. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بيروت: دار الفكر، طبعة ١٩٩٢، ١٨٤/١.

في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار^(١)، بل كان ﷺ يتابع بنفسه تعليم القرآن لكل داخل في الإسلام.

٤) إن ذلك العدد الضخم من كتبة الوحي وحفظه القرآن الذين تخرجوا في المدرسة النبوية، لهو دليل مهم على العناية والرعاية الفائقتين اللتين أولاهما ﷺ للقرآن وحملته، وحسبك ما يقال عن كثرتهم على عهد الرسول ﷺ، و بعد عهده أن قُتل منهم سبعون في غزوة بدر معونة، و قُتل سبعون وقيل أكثر من ذلك في معركة اليمامة.

٥) بالإضافة إلى أنه ﷺ قد قصر التدوين في بداية الأمر على القرآن وحده، ومنعهم من كتابة أي شيء بجانبه ولو كانت سنته المطهرة، حيث قال ﷺ: (لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَّبَ عَنِّي قَالَ هَمَامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ مَتَّعِمًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)^(٢). ومن أجاز له كتابة شيء كان لعذر، كقوله ﷺ: (..فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: اكْتُبُوا لِي قُلَانٍ..)^(٣).

٦) إن من يطالع سيرة النبي ﷺ ليدرك دونما أدنى شك أنه كان يحيا بالقرآن وللقرآن وينتظر الوحي بفارغ الصبر ويشتاق للقياء، (وكان لصدرة أزيز كإزيز المرجل)^(٤) و(تفطرت قدماه مما كان يقوم به الليل)^(٥) وكان مطمئناً إلى مستقبل القرآن، وأنه محفوظ بحفظ الله تعالى له، وأن الأمة بخير ما استمسكت به، فهو حبل الله المتين المفضي للنجاة من كل كرب ومحنة، فقد أوصى أمته به وقال ﷺ: (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله)^(٦).

١- رواه أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢- ١٩٩٩م مسند علي بن أبي طالب، رقم: (١٢٧٨) ٤٢٠/٢.

٢- رواه مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم. رقم: ٧٧٠٢، ٢٢٩/٨.

٣- رواه البخاري في كتاب العلم، باب: كتابة العلم، ١١٧/١.

٤- رواه النسائي في سننه، كتاب صفة الصلاة، باب: البكاء في الصلاة، وصححه الألباني، ينظر: النسخة المذيلة بأحكام الألباني.

٥- رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الفتح، ١٣٥/٦.

٦- رواه مسلم في كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ، ٨٨٦/٢، رقم: (١٢١٨).

٧) إن أحد مظاهر اهتمام الرسول ﷺ بالقرآن تتبين من حصول كتابة القرآن الكريم في الفترة الأولى المبكرة من البعثة، ومن أدلة ذلك ما يأتي:

أ- ما كان من قصة إسلام عمر بن الخطاب، وصحيفة أخته ﷺ.

فقد روي عن أنس بن مالك قال: (خرج عمر متقلدا بالسيف فقيل له: إن خنتك وأختك قد صبنوا، فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب، وكانوا يقرؤون طه، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت له أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ؟ فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ طه^(١)).

ب- ما ذكره الباقلائي من أسماء كتبه القرشيين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن أرقم وخالد بن سعيد والزيبر وحنظلة وجهيم بن الصلت وغيرهم كثير ﷺ^٢.

٨) أ يصلح بعد هذا كله أن يلقي الكلام على عواهنه^(٣) ويتهم ﷺ بأنه لم يهتم بالقرآن ولم يفكر به؟ ثمة عذر لنولدكه أنه انشغل زمنا بنقد الكتاب المقدس الذي لقي حنقه حال تولي الناس حفظ كراريسه واعتمادهم في إخراجهم، باعتراف علمائه "فكتاب النسخة المعتمدة المنقحة للكتاب المقدس مدعومين ب٣٢ عالما من كبار العلماء مؤيدين ب٥٠ طائفة يحكمون أن مصدر هذا السفر ليس الله، بل ربما صموئيل"^(٤)

١ - رواه الدارقطني في سننه، كتاب الطهارة، باب: في نهى المحدث عن مس القرآن، دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦ - ١٩٦٦، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، ١/١٢٣.

ثم قال الدارقطني: القاسم بن عثمان ليس بالقوي.

٢ - ينظر: الانتصار للقرآن، أبو بكر بن الطيب الباقلائي، ص ٤١٣ - ٤١٤.

٣ - أصله مثل عربي يقول: (رمى الكلام على عواهنه) إذا لم يبال أصاب أم أخطأ. ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ١/١٣٥.

٤ - ديدات. أحمد، الاختيار بين الإسلام والنصرانية، ترجمة: أكرم ياسين الشريف، مكتبة العبيكان، ط١ - ٢٠٠٨، ص ٢٣٢.

لذا فقد أحب الرجل أن يشرك القرآن بنتائج دراساته هناك، لكنه -حتماً- غير معذور بل ومدان
أيما إدانة لإصداره هذه الأحكام على سبيل التقول والتزويد والتزوير، لا لشيء إلا اللهم الحقد
والحسد الذين غننتهما محافل التنصير وزوايا الرهبان.

وجملة القول: إن الله تعالى أخلف ظنهم تماماً، وإن القرآن الكريم، والرسول الأمين ﷺ، غير ما
يدّعون بتأتاً.

وبعد، فهذه جملة القول في نقد أفكار نولدكه حول مسألة جمع القرآن في عهده ﷺ، ومنه
يتبين أن القرآن قد دُون في عهده ﷺ كاملاً، وفي ذلك ردٌّ على من زعم أن القرآن لم يدون في
عهده ﷺ.

نسأله تعالى أن يجعلنا من الحافظين لكتابه والمحافظين عليه، والقائمين عليه حق القيام،
أمين .

المبحث الثاني: جمع القرآن في زمن أبي بكر ؓ

المطلب الأول: دعوى أن الجامع الأول هو عمر ؓ

نسب جمع القرآن الكريم لأكثر من واحد من الصحابة، منهم عمر وعلي وزيد وسالم ؓ، ولم يتحس نولده لنسبته لأي منهم سوى لعمر ؓ، فهو مثلاً يرفض كل ما ورد في شأن جمع علي ؓ، بقوله:

"..لا شيء من الصحة في هذا كله، فمصادر هذه الأخبار تفاسير قرآنية شيعية وكتب تاريخية سنية ذات أثر شيعي مشكوك بأمرها، ذلك أن كل ما يرويه الشيعة عن ولي شيعتهم الأعلى، غير موضوعي ومنحاز بجملته، ومن حيث المضمون تناقض هذه الأخبار وقائع التاريخ الأكيدة كلها"^(١).

ويستبعد نولده قيام أبي بكر ؓ بجمع القرآن، ويفسر نسبته إليه بما يشبه الخيال، أو الخرافات والأساطير، ويرى أن أول جامع للقرآن هو عمر، الذي قتل ولم يتمه هو الآخر، فيقول:

"إن النظرة إلى اشتراك أبي بكر مربوطة باشتراك سلفه الحقيقي أو المفترض في العمل. إذا كان عمر هو أشجع الخلفاء، فإن أفضلية أبي بكر في أنه كان من أول المؤمنين ومن أقرب المقربين لمحمد. لهذا لا بد أن يكون بدا لكثيرين مستغرباً ألا يكون إنسان كهذا قد عمل على جمع القرآن. وربما تحولت هذه الرغبة التقوية تدريجياً إلى تصريح تاريخي"^(٢).

الردّ

إن نقد موقف نولده في رمية الإسلام بالخرافات سيأتي في المبحث الثاني من الفصل الثالث، ولكن تبادر الدراسة -هنا- لتؤكد بأن الحقيقة التي لا تقبل الشك، أنه ليست ثمت خرافات في الإسلام، فهو يتلاءم مع حاجات البشر، فالعقل يقبله ويستتير به، والقلب يطمئن إليه ويرتضيه.

^١ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٢٤٤.

^٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٥.

لقد تجاوز أو تجاهل نولداكه عن عمدا، الروايات الدالة على أن أول من أمر بجمع القرآن الكريم هو أبو بكر رضي الله عنه، بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن الذي قام بهذا الجمع هو زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، من مثل:

١- قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل الإمامة وعنده عمر، فقال: أبو بكر إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم الإمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرآن في المواطن فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن... الحديث^(١).

٢- وروي عن علي رضي الله عنه قال: رحمة الله على أبي بكر رضي الله عنه؛ كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف، وهو أول من جمع بين اللوحين^(٢).

أما ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان، فقتل يوم اليمامة. فقال: إنا لله، وأمر بجمع القرآن فكان أول من جمعه في المصحف^(٣). وهو الأثر الذي قصده نولداكه بقوله "تشير إحدى الروايات المختلفة بوضوح العبارة إليه"^(٤).

فإن إسناده لا يصح، لأنه أثر منقطع، وإن صح فيكون معناه: أول من أشار بفكرة الجمع على أبي بكر، ولم يزل يراجع حتى شرح الله صدره لها.

قال الحافظ ابن حجر: "وهذا منقطع، فإن كان محفوظاً حمل على أن المراد بقوله: فكان أول من جمعه، أي: أشار بجمعه في خلافة أبي بكر، فنسب الجمع إليه لذلك"^(٥).

يتبين جلياً مما سبق أن جمع أبي بكر رضي الله عنه كان واقعة فعلية، لا شعور وتمني انقلب إلى كذبة من تلقاء محبي أبي بكر رضي الله عنه من المتقين، ثم روجت على أرض الواقع كما يفهم من كلام المؤلف حين قال: "وربما تحولت هذه الرغبة التقوية تدريجياً إلى تصريح تاريخي"^(٦).

١ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨٣/٦.

٢ - رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف، باب جمع القرآن، ص ١١-١٢.

٣ - المرجع السابق، باب جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه القرآن في المصحف، ص ١٦.

٤ - نولداكه، تاريخ القرآن، ص ٢٥٥.

٥ - ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (٦٢٨/٨).

إن تلك الصورة الباعثة على النقرز والخجل والبكاء والضحك، التي ظهر بها نولده وهو يبحث عن سبب مقنع من وجهة نظره لنسبة الجمع الأول لأبي بكر رضي الله عنه؛ فلا يدري ما السبب، أهى الخرافات؟ أم المتقون عبر التاريخ الإسلامي؟ أم هي عائشة؟ أم هو زيد الذي نسب الجمع إليه أكثر من مرة؟ تناقض واضح لا يستقيم، وتضارب متكرر منه، يدعو إلى القلق، وصفاقة تلقي بالقارئ في دوامات لا تنتهي.

أما ما استدلل به نولده على تأييد ما ذهب إليه من قصر مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، إذ يقول: "إن حكم أبي بكر الذي دام سنتين وشهرين، قصر نسبياً إذا ما أخذنا بالحسبان صعوبة جمع النصوص المبعثرة كما نتحدث عنه الروايات. خصوصاً إذا كان البدء بالعمل قد تم بعد معركة اليمامة، ما يعني أن الفترة المتبقية من حكم أبي بكر كانت خمسة عشر شهراً"^١، فإنه لا يحتاج لمزيد كلام، ذلك أننا نملك أمثلة عديدة في العصر الحاضر لأناس حفظوا القرآن كاملاً، في وقت أقصر من هذه المدة، فإذا أخذ في الاعتبار الفرق بين الحفظ في الصدور والجمع كتابة، من حيث حاجة كل منهما للجهد والوقت من جهة، والتباين المشهور بين شعوب العصرين في قوة الذاكرة، وأيضاً قصر الهمم على الاشتغال بالقرآن من جهة أخرى، تبين بكل جلاء إمكانية حصول هذا الجمع دون غرابة أو عجب.

فإذا ما أضيف لكل ذلك توارد النقل الصحيح لدى عامة المسلمين على أن الجمع الأول إنما كان في عهد أبي بكر، تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن أحكام الأستاذ نولده في هذا الصدد عارية تماماً عن الصحة، ومخالفة لجميع ضرورات المنطق والواقع.

١ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٢٥٥.

٢ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٢٥٢.

المطلب الثاني: دعوى نولدكه حول واقعة اليمامة^(١).

شكك نولدكه بأن تكون واقعة اليمامة سبباً في حصول جمع أبي بكر رضي الله عنه، قال: "إن رباط جمع القرآن بمعركة اليمامة رباط ضعيف جداً"^(٢)
إن ظاهرة حروب المرتدين، رويت واشتهرت وعم ذكرها الأفاق، وخاصة ما كان من أمر بني حنيفة، الذين ظهر بينهم مسيلمة الكذاب أحد أدياء النبوة، وذلك أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله، واستخلف المسلمون أبا بكر الصديق، ارتد بعض العرب، ومنعوا الزكاة، فأرسل إليهم أبو بكر الصديق سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية من يقاتلهم، ووقعت مقتلة عظيمة، فنيبت فيها خلانق لا تحصى، حتى عرف المكان الذي قتلوا به بحديقة الموت"^(٣)

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: مَا نَعَلِمُ حَتَّىٰ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيدًا، أَعَزَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ، وَيَوْمَ بَنِي مَعُونَةَ^(٤) سَبْعُونَ، وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ. قَالَ: وَكَانَ بَنُو مَعُونَةَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ عَلَىٰ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ.^(٥)

١- اليمامة هي الصقع المعروف شرقي الحجاز ومدينتها العظمى حجر اليمامة، والمراد بأهل اليمامة من قتل بها من الصحابة في الواقعة مع مسيلمة، ادعى النبوة وقوى أمره بعد موت النبي صلى الله عليه وآله بارتداد كثير من العرب فجهز إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمع كثير من الصحابة فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله وقتله وقتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة. قيل سبع مائة، وقيل أكثر. واليمامة هي دار بنى تميم. ينظر: «مرعاة المفاتيح»، شرح «مشكاة المصابيح»، لعبيد الله بن محمد المباركفوري، نشر إدارة البحوث الإسلامية والدعوة، بالجامعة السلفية، بالهند، ط/١٤٠٥، ٣/١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ٦/٦٣٩.

٢- المرجع السابق، ص ٢٥٣.

٣- ينظر: البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ، بيروت: مكتبة المعارف، بدون تاريخ (١/٣٣٠).

٤- بنو معونة: مكان شرقي المدينة، بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وقعت في السنة الرابعة للهجرة، قتل فيها سبعون من القراء. ينظر: السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك ابن هشام، حققها مصطفى السقا وزميلاه، بيروت: دار الخير، ط ١، ١٩٩٢م، ٣/١٤٧.

٥- رواه البخاري في صحيحه كتاب: المغازي، باب: من قتل من المسلمين يوم أحد، ٥/١٠٢.

قال الحافظ في الفتح: وهذا يدل على أن كثيراً ممن قتل في وقعة اليمامة كان قد حفظ القرآن، لكن يمكن أن يكون المراد أن مجموعهم جمعة، لا أن كل فرد جمعة. (١) ومقصود الحافظ بلفظ الجمع: الحفظ في الصدور لا الكتابة.

ولا شك أن أكثر هؤلاء القتلى كان ممن حفظ شيئاً من القرآن، غير أن المشهور أن القتلى من الحفاظ يومئذ كان سبعين رجلاً. (٢)

لقد أفرعت هذه الوقعة عمر رضي الله عنه، فهب ليقول لأبي بكر رضي الله عنه: "إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحْرَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقِرَاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقِرَاءِ فِي الْمَوَاطِنِ... وَإِنِّي لَأُرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ" (٣)، فرأى أن مثل هذا العمل فيه مصلحة الدين، والمحافظة على تواتر الكتاب الحكيم.

لكن الشبهة التي ترد هنا تتلخص بسؤال حول تخوف عمر رضي الله عنه، فلم يخش من قتل القراء إن كان القرآن مكتوباً؟ والجواب: إن عمر رضي الله عنه يعلم أن القرآن كان مكتوباً على وسائل الكتابة المتفرقة علم اليقين فلم يشك في هذا، إنما أراد تلافي مشكلة قد تتمثل في صعوبة الوصول إلى المكتوب عند أصحاب المصاحف نتيجة لموتهم. (٤)

أما أن تكون الظروف التي أحاطت بالقرآن الكريم آنذاك أظهرت الحاجة لتدوينه، كما زعم نولدكه حيث يقول: "نلك أن الظروف العامة تفسر الحاجة التي كانت سوف تنشأ عاجلاً أم آجلاً بعد موت محمد، لجمع وحيه في تدوين موثوق"، فهو مما لم يكن بحسبان الصحابة رضي الله عنهم، ولو نظروا لمؤثرات آخر، لما توائوا لحظة عن ذكرها وإعلانها، لأن القرآن لديهم أهم المهمات.

لقد أراد نولدكه من مقالته هذه أن يصل إلى تعميق فكرة طالما كررها وسعى لإثباتها، مفادها: أنه انتهى أمر القرآن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حالة من الخلط والضياح والغموض خلقت ضجة واسعة ودفعت بالغيورين لأن يطالبوا بجمع القرآن الكريم.

- ١ - العسقلاني. ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (٦٢٨/٨).
- ٢ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (١/١٩٩-٢٠٤).
- ٣ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨/٦.
- ٤ - ينظر: الوجيز في علوم الكتاب العزيز، محمد المجالي، ص ١٣٢.

هذا هدفه، أما دافعه وباعته له، ففحواه ما تردد مراراً في الدراسات المختصة وغيرها، من أن الكتاب المقدس يئن تحت ضربات نقد النص الموجهة التي لا يقوى على ردها، سواء كانت من داخل البيت الكتابي أم من خارجه، ولعلي استعويض عن استقصائها الذي لا يتسع له المقام -هنا- بالإشارة إلى ذلك السفر الذي حوى عدداً من الدراسات التي تعود لمختصين برعوا في (علم نقد النصوص) وحمل عنوان: (تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث) فقد وردت فيه أدلة كافية، تقطع بعدم صحة نسبة التوراة إلى موسى عليه السلام.

والجنير بالإشارة أن معد هذا السفر، هو اليهودي زالمان شازار فجاءت أعماله كالإقرار، على سبيل: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ يوسف: ٢٦^١.

أفمن العدل بعد هذا كله أن يساوى بين القرآن وهذه الكتب التي لم يصدق أهلها أنفسهم -ومنهم تولدكه الذي برع في نقدها- أنها سالمة من التحريف والعبث؟

^١ - ينظر: القرآن يتحدى، محمد عمارة، القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، ط ١ - ٢٠٠٩.

المطلب الثالث: دعاوى نولدكه حول مصاحف الصحابة ﷺ

قال نولدكه: "ولعل إسقاط هذه السور في القائمتين من قبيل المصادفة ولم يكن مقصوداً"^١ وقال أيضاً: "إن الصورة التي نملكها عن وضع تدوينات القرآن بعد موت محمد شديدة الغموض. إضافة إلى كون هذه التدوينات مبعثرة وغير منظمة"^٢.

إن من الموضوعات ذات العلاقة الوثيقة بجمع القرآن ما يثيره المستشرقون من شبهات وتشكيك حول مصاحف الصحابة، فقد أورد نولدكه أسماء الصحابة ﷺ الذين كانت بحوزتهم مصاحف خاصة وقارن بين نسخها، محاولاً إبراز مواطن الاختلاف من نقص وزيادة، أو تقديم وتأخير، فهو يستعرض مصاحف الصحابة ﷺ، ويوازن بينها ذكراً شاكها في رواية (الفهرست)، ورواية (الإنقان)، ويصرح بأن الغموض والشك يعتريان هذا العمل السذي لم يقصده، بل كان محض الصدفة.

الرد:

لقد وجد المستشرقون بشكل عام في موضوع اختلاف مصاحف الصحابة ميداناً واسعاً للنيل من القرآن وقديسيته، وفتح باب الشكوك حوله. ويمكننا عرض هذا الموضوع في الفروع الآتية:

الفرع الأول: اختلاف مصاحف الصحابة ﷺ

ويبدو أن نولدكه يطمح من عرض هذه التقارير، لامتلاك طرف حجة تخوله الحكم على القرآن الكريم بأنه متضارب، ونو نسخ مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وهو هدف وإن ادعى الظفر به كحال سائر المستشرقين، إلا أنه بعيد المنال.

ورغم أن وجود مصاحف الصحابة لم يؤثر بأي شكل على سلامة جمع القرآن، إلا أن معظم المستشرقين كان يسيطر عليهم هاجس التاريخ المسيحي في تدوين الأناجيل، وما أثير حوله من مشكلات، وهذا ما جعلهم يشككون في كل شيء، حتى في الأدلة غير القابلة للنقاش.

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٥٥.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٦.

وغني عن القول بأن المصاحف لدى المسلمين، ليس فيها ذلك التضارب والتناقض والتضاد الموجود في أسفار الكتاب المقدس، ولم يؤد تعددها إلى مثل ما نتج عن تعدد نسخ الأناجيل التي اختلفت حتى في الأصول، وألغى بعضها بعضاً، فهذا بولس مثلاً يستثني برنابا أن يكون من الحواريين، ويستبعد إنجيله أن يكون بين الأناجيل.^(١)

بل إن ما يسمى بالتوراة المتداولة اليوم وهو (العهد القديم) عبارة عن مجموعة ضخمة من الأسفار المتناقضة والمختلف فيها كثيراً، فعددها عند البروتستانت تسعة وثلاثون سफراً، وعند الكاثوليك ستة وأربعون سफراً، وبعضهم كالسامريين^(٢) يقتصر منها كلها على خمسة فقط، هذا على مستوى العدد، أما ما يعترها من تضارب واختلاف في جوانب تفصيلية أخرى فحدث ولا حرج.^(٣)

وهذا ليس من باب تبادل الاتهامات، وإنما لأنه عرف من دوافع المستشرق أنه أراد من طرح هذه المسائل أن يثار للكتاب المقدس كما تقدم في مبحث الدوافع والأهداف، فلفته إلى عقدة الامر فيه تنبيه مهم للمستشرقين.

إن لسان حال الشبهة يتلخص بالسؤال الآتي: لم تعددت المصاحف؛ أليس في ذلك دليل على الاختلاف المؤذن بالتحريف؟ ولم اختلف عدد السور من مصحف لآخر؟ فعدد سور بعضها: أربع عشرة ومائة سورة، وبعضها: اثنا عشرة ومائة سورة، وبعضها: أقل أو أكثر؟ وكذلك لم اختلفت المصاحف في عدد آيات القرآن؟ ألم يدل ذلك على أن القرآن لم يكن مكتوباً؟ إذ لو كتب لما اختلف الترتيب؟

وللجواب على هذه الشبه لا بد من بيان سبب تعدد مصاحف الصحابة رضي الله عنهم، فقد بلغ من عناية النبي صلى الله عليه وسلم بتدوين القرآن أنه كان إذا أنزل عليه شيء من القرآن دعا من حضرته من

١ - للتوسع ينظر: الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض، القاهرة دار البشير للطبع، بدون تاريخ.

٢ - السامريون: المرة الوحيدة التي وردت فيها هذه الكلمة في العهد القديم في سفر الملوك الثاني ١٧: ٢٩ وتعني السكان المتصلون بالمملكة الشمالية، وفي كتابات العبرانيين المتأخرة التي جاءت بعد السبي كان معناها سكان إقليم السامرة الذي يقع في وسط فلسطين. (لوقا ١٧: ١١)، وانظر: قاموس الكتاب المقدس لنبذة من اللاهوتيين، حرف السين.

٣ - ينظر: ردّ مفتريات المبشرين على الإسلام، عبد الجليل ثلبي، ص ١٥.

كُتِبَ لِيَكْتُبَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ، فَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قَالَ:

(كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَذَعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ، وَيَقُولُ لَهُ: ضَعِ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يَذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا)^(١).

وكان بعض الصحابة يكتب لنفسه، فإذا كتب شيئاً احتفظ به حتى أصبح لديه مصحفاً كاملاً، وربما ترك تدوين بعض السور، ليس نكراناً لها وإنما لاستحالة نسيانها وأمن ضياعها، فهو يرددّها باستمرار في الصلاة أو غيرها، كالفاتحة حيث لا تصح الصلاة إلا بها، فإذا ما أضفنا لهذا صعوبة الكتابة وندرة وسائلها آنذاك، أدركنا سر ترك بعضهم لتدوينها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه المصاحف خاصة، تقتصر على اطلاع أصحابها، لذا فليس غريباً أن نجدهم يضيفون إليها ما ليس بقرآن، كالإدراج والتفسير مع علمهم بعدم قرأتها^(٢).

أما ما يتعلق باختلاف المصاحف في أعداد السور والآيات، فإنه لا يخرجها عن الوحدة والتوافق التام، لأن النص في جميع المصاحف واحد وغير متعارض، فمن ذهب إلى أن عدد سور القرآن ثلاث عشرة ومائة سورة عدّ سورتين سورة واحدة كالحال في الأنفال والتوبة؛ لأنهما لم يفصل بينهما بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وكذلك الاختلاف في عدد الآيات، مرده دمج آيتين واحتسابهما آية واحدة، وهكذا، فالاختلاف في العدد لا يضر بالمعهود ولا يؤدي إلى الإخلال به.

إن لا يستدل باختلاف مصاحف الصحابة على أن القرآن لم يكن مكتوباً، ذلك أن مصاحف الصحابة هي "مصاحف شخصية، فقد كان أحدهم يكتب نسخة خاصة له، فيرتبها حسب سماعه أو من تاريخ إسلامه، فالمهم عنده هو أن يكتب النص دون مراعاة للترتيب"^(٣).

١ - رواه أبو داود، كتاب: الصلاة باب: من جهر بها (٢٠٨/١-٢٠٩) ح ٧٨٦. قال الحافظ في الفتح ٩ / ٨: صححه الحاكم وغيره. وضعفه الألباني، ينظر: سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، رقم: ٧٨٦.

٢ - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم للزرقاني، ١/٢٦٤.

٣ - المجالي، محمد خازر، الوجيز ص ١٣٢.

الفرع الثاني: مصحف ابن مسعود ؓ.

أما ما أدعاه نولدكه أن ابن مسعود رفض أن تكون الفاتحة والمعوذتان من القرآن، وزعم أن رأيه ليس اعتباطياً، فهن لا يشبهن القرآن فيقول: "في جميع الأحوال، لم يكن موقف ابن مسعود الراض للثلاث اعتباطياً. فإنها تختلف شكلاً ومضموناً عن سائر السور، الأمر الذي يدعو إلى الشك في صحتها...."^(١)

الرد:

إن ما زعمه نولدكه أن ابن مسعود ؓ، حذف الفاتحة والمعوذتين من مصحفه بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله، يمكن تفنيده من وجوه:

أولاً: اختلفت كلمة العلماء حول صحة نسبة هذه الرواية إلى ابن مسعود، فقد شكك بعض العلماء في صحة نسبتها إليه ؓ، فممن أنكر ثبوتها: الباقلاني في كتابه (الانتصار للقرآن)، والنووي أثناء شرحه لصحيح مسلم، وابن حزم في (المحلى)^(٢)، والفخر الرازي في تفسيره^(٣).

وصحح ابن حجر ما روي عنه ؓ في إنكار المعوذتين، وقال: "قول من قال إنه كذب عليه مردود، والظعن في الروايات الصحيحة بغير سند لا يقبل، بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل"^(٤).

ورجح في تأويلها: أنه لم يثبت عند ابن مسعود القطع بتواتر السورتين، ولما بلغه التواتر في ذلك رجح، وقد روى عنه أنه لما بلغه حديث أبي بن كعب أنهما من القرآن، قال ابن

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٧٤.

٢ - حيث قال: "وكل ما روى عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع لا يصح، وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود وفيها أم القرآن والمعوذتان". المحلى، ١٣/١.

٣ - فقد قال في تفسير سورة الفاتحة: "والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل كاذب باطل" تفسير الرازي، ١٩٨/١.

٤ - ابن حجر، فتح الباري، ٦١٥/٨.

مسعود: (نحن نقول مثل ما قال رسول الله) إن لما تأكدت قرأنيهما عنده رجع عن قوله، وقال بقول الجماعة^(١).

وحمل الباقلاني الرواية على افتراض صحتها على تأويل أنه لم ينكر كونهما قرآناً، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، إما لظنه أنه منسوخ، أو لغير ذلك من العلل^(٢).

ثانياً: ما روي من أخبار تفيد ذلك، كخبر: (كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله تبارك و تعالي)^(٣). وما روي (إن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه)^(٤) فهي أخبار آحاد، لا تقوى على معارضة القطعي الثابت بالتواتر، قال الخطيب البغدادي: "ولا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل وحكم القرآن الثابت المحكم، والسنة المعلومة، والفعل الجاري مجرى السنة، وكل دليل مقطوع به"^(٥).

وقال الباقلاني: "ومما يدل أيضاً على أن القرآن المرسوم في مصاحفنا هو جميع كتاب الله الذي أنزله على رسوله، وفوض حفظه وإثباته والرجوع إليه، نقل جميع السلف والخلف الكثير من بعدهم الذين ببعضهم تثبت الحجة، وينقطع العذر أن هذا القرآن الذي في أيدينا هو جميع كتاب الله الذي أنزله، وأمر بحفظه، وإثباته، والرجوع إليه، وقد علم أن التشاجر، والتراسل، واتفاق الكذب متعذر ممتنع على مثلهم، فوجب لذلك العلم بصحة ما نقلوه، وسقوط كل رواية جاءت من جهة الأحاد بخلاف ذلك عن بعض الصحابة والتابعين، وما يجوز أن يروى من ذلك ويُفتعل ويُكتَب في المستقبل؛ لأن نقل ما ذكرناه أوجب لنا علم الضرورة بصحة

١ - ينظر: المرجع السابق، ٦١٦/٨

٢ - ينظر: الانتصار للقرآن، للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني تحقيق محمد عصام القضاة، عمان: دار الفتح وبيروت: دار ابن حزم، ط١- ٢٠٠١، ٣١٤/١.

٣ - أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث زر بن حبیش عن أبي، رقم: ٢١١٨٨، ١١٧/٣٥. قال الهيثمي: رواه عبد الله بن أحمد والطبراني، ورجال عبد الله رجال الصحيح، ورجال الطبراني ثقات. مجمع الزوائد (١٥٢/٧).

٤ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم: ٢١١٨٦، ١١٦/٣٥. وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم بن بهدلة.

٥ - الخطيب البغدادي. أحمد بن علي بن ثابت، الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، القاهرة: دار الهدى، ط١ - ٢٠٠٢ ٥٥٧/٢.

ما نقلوه، وانتقاء السهوه، والإغفال، والكذب، والافتعال عنهم لما هم عليه من كثرة العدد، واختلاف الطبائع، والأسباب والهمم^(١).

وقال أيضاً: "ولو كان في قراءة ابن مسعود ما يخالف مصحف عثمان لظهر ذلك في قراءة حمزة خاصة"^(٢).

فالثابت أن المعوذتين من القرآن لتواتر وصول القرآن الكريم إلينا، فعن زر بن حبیش، قال: (قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: قل أعوذ برب الفلق)^(٣).

وقال البزار: لم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة^(٤)

هذا، عدا عن اقتران هذه الروايات بما يفندها واقعا، كقيام ابن مسعود بحك هذه السور من مصحفه، فإذا لم يكن يراها من القرآن، فما الضرورة التي ألجأته لكتابتها في مصحفه ثم ليقوم بحكها فيما بعد؟

ثالثا: ما يرجحه الباحث وتطمئن إليه نفسه هو قول من شكك فيما نسب لابن مسعود ﷺ من ذلك، فقد ثبت من أسانيد القراء الصحيحة والمتواترة عنه أن هذه السور الثلاث: الفاتحة والمعوذتين من القرآن، وقد أقرأها لتلاميذه.

فلا يعقل أن ابن مسعود ﷺ وهو من كبار علماء الصحابة ﷺ، وهو الذي أخذ سبعين سورة من في رسول الله ﷺ كان يجهل سوراً من القرآن.

١ - الباقلائي. محمد بن الطيب، الانتصار للقرآن، ١/ ٩٤ - ٩٥.

٢ - الباقلائي. محمد بن الطيب، نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٣٨٠. وذلك لأن حمزة كان يحو نحو أصحاب عبد الله، فقراءة عبد الله انتهت بالكوفة إلى الأعمش الذي قرأ عليه حمزة. وكان حمزة أيضاً يعتبر قراءة عبد الله فيما لم يوافق خط مصحف عثمان بن عفان ﷺ.

٣ - تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

٤ - السيوطي، جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ١/ ٣٧٣.

ثم إن المنكر لحرف واحد من القرآن الكريم كافر بإجماع الأمة، فقد قال النووي: أجمع المسلمون على أن المعونتين كلام الله عز وجل ووحيه، أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ، من كفر بحرف منه فهو كافر^(١).

وما قيل في المعونتين إنه لم ينكرهما وإنما ظن باجتهاد منه أنهما يتعوذ بهما، لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فلما بلغه النقل الثابت في ذلك تراجع فلا يسلم به، لأنه لو صح هذا فيهما - وهو بعيد - فكيف يجوز في الفاتحة؟

وما رجحه ابن حجر في تأويلها من أنه لم يثبت عند ابن مسعود القطع بتواتر السورتين، ولما بلغه التواتر في ذلك رجع، فمع جلالة قدر الحافظ - رحمه الله تعالى - فترجيحه - هنا - غير متجه؛ لأن حادثة اعتراض ابن مسعود ؓ كانت زمن عثمان، وما روي في شأن إنكاره للمعونتين كان قريباً من ذلك الوقت ويستحيل أن يستمر جهله بهما إلى ما بعد موت الرسول ﷺ، فضلاً عن أن يبقى حتى ينسخ عثمان ؓ المصحف بعد زمن طويل، بالإضافة إلى أن مصاحف عثمان منقولة عن مصحف أبي بكر، ولم يُسجل عن ابن مسعود أي اعتراض على مصحفه ؓ جميعاً.

فإذا ما أضيف لكل ذلك ما ارتبط بموضوع إنكار ابن مسعود لسورة الفاتحة من بعض الإشكالات حال التعلق بهذا الرأي، تبين بجلاء أن الرواية التي تذهب إلى أن ابن مسعود ؓ كان يراها أنها ليست من القرآن غير صحيحة، ومشكوك في نسبتها إليه.

رابعاً: يؤيد صحة ما رجحه الباحث، أن تأليف السور الثلاث من نفس تأليف القرآن العظيم ومن نفس نظمه البديع الذي أعجز البلغاء ودان له الفصحاء واعترف له بالعظمة والجلال الإنس والجان، وقد أثبتت قرآنيتهن برسم الإمام عثمان وانعقاد الإجماع على ذلك فتم بذلك العلم اليقين، ولا يضرنا قول من قال من هؤلاء المنكرين الملحدين^(٢).

١ - ابن حجر، فتح الباري، ٩ / ١٧.

٢ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، عمر بن إبراهيم رضوان، ١ / ٤٠٩ - ٤١١.

وأما ما نسب لابن مسعود أنه أسقط سورة الفاتحة من مصحفه^(١)، فهي رواية أقرب لها
الشك والرفض لما يأتي:

أ - قال ابن حزم: "وأما قولهم إن مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خلاف مصحفنا فباطل
وكذب وإفك، مصحف عبد الله بن مسعود إنما فيه قراءته بلا شك، وقراءته هي قراءة
عاصم المشهورة عند جميع أهل الإسلام في شرق الأرض وغربها، نقرأ بها كما ذكرنا،
كما نقرأ بغيرها مما صح أنه كل منزل من عند الله تعالى"^(٢).

ب - معلوم أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، فكيف كان ابن مسعود يصلي كل هذا الوقت؟

ج - يمكن توجيه الرواية إن صحت على الإسقاط الكتابي ليس إلا، فقد غلب على ظن ابن
مسعود أن الفاتحة لا يمكن أن تنسى لوجوب تعلمها على المسلمين كافة، وإن ما كتب من
القرآن كان لمخافة النسيان والضياع، ولم يأت فيها أنه أنكرها بل أسقطها.

د - كان مصحف ابن مسعود فردياً خاصاً به، كمن يكتب لنفسه سورة ويغفل سورة، فإن سقط
من مصحفه شيء فلا ينسحب ذلك على القرآن.

هـ - هناك دليل حاسم يثبت أن ابن مسعود لم ينكر قرآنية الفاتحة والمعوذتين، وهو أن قراءته
قد رواها عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم، وقراءة هؤلاء الأئمة فيها الفاتحة والمعوذتان.

و - إن إجماع الصحابة على عكس هذا القول كاف في الرد على هذا الطعن، ولا يضر ذلك
الإجماع مخالفة ابن مسعود لو خالف.

ز - من السهولة بمكان إبطال هذه الأخبار من خلال ما ذكره نولدكه نفسه من قوائم تعود
(للفهرست) أو (الإتقان)، أو غيرها فيما يخص عدد سور مصاحف الصحابة، فمثلاً حينما
تطرق لعدد سور مصحف ابن مسعود في قائمة (الفهرست) احتار وتردد لكونها ١١٠
سور، وليس ١١١ سورة، ومن شدة تمسكه بما جاءت به الروايات في مثل هذه المواقف
نجدته يتكلف كثيراً في تخريج ما يخالفها، ليقول: "إلا إذا كان هناك دمج لسورتين في

١ - أصل هذه الرواية في كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام، فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، تحقيق: أحمد عبد
الواحد الخياطي، المغرب: وزارة الأوقاف، ١٩٩٥، ص ١٤٤.

٢ - ابن حزم - أبو محمد علي، الفصل في الملك والأهواء والنحل، بيروت: دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٠، (٢/٢١٢).

واحدة،^(١)، أما ما ورد في إحدى روايات (الإتقان) أنها ١١٢ سورة، فلا يقف عندها طويلاً، إذ لا يزيد على أن يقول: "وهو رأي شائع"^(٢).

إزاء هذا لا أطالب الأستاذ بقدر من الموضوعية يخرج به عن حدود معالم الفكرة الاستشراقية، لأنه بحد ذاته بحسب معرفتنا بطبيعة عمل المستشرقين - أمر مئوس منه، أذكره فقط بما تستدعيه ضرورات المنطق من وجوب التعامل مع العناصر المتشابهة بنظر متماثل أو متقارب نوعاً ما، إذ يلزمه أن يكرر هنا حكمه السابق المجافي للحقيقة فيقول: "ولعل إسقاط هذه السور في القائمتين من قبيل المصادفة ولم يكن مقصوداً"^(٣). ثم يرعوي وينضوي تحت ما اتفقت عليه أمم القرون السابقة كلها من أنه لا يحق لأحد أن يسقط شيئاً من سور القرآن الكريم.

فلا أدري كيف يسمح أستاذ كبير لنفسه أن يصل إلى هذه الدرجة من السفسطة والتقول؟ استبعد - ابتداءً - أن يكون الأستاذ واثقاً بما يقوله في هذا الموضوع أو مصداقاً به، وأسأله بعدئذ: لم كل هذه العناية بهذه الفكرة التي جاءت من طريق مشكوك فيه؟ ولم لم تواجه هذه الرواية بمثل ذلك النفور الذي عادة ما يكنه الأستاذ لكثير من الروايات التي يدفع صحتها بقوله: "على هواته، يبقى هذا الحل معقولاً أكثر من الآراء المباشرة التي تأتي بها الروايات"^(٤).

ح - لا ينسى بهذا الخصوص الواقع الذي كان عليه المسلمون منذ أكثر من أربعة عشرة قرناً، فالصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان أحبوا القرآن الكريم أكثر من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وحرصوا على حفظه والاعتناء به أكثر من حرصهم على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فلا يعقل بعد ذلك أن يخفوا منه شيئاً وهم يعلمون أنه كلام الله الذي فيه سعادة الدنيا وفلاح الآخرة، كل هذا وغيره كثير يرفض قبول معنى هذه الرواية، إذ لا يوجد مسلم يستبجح لنفسه أن يقرأ القرآن بأي لفظ شاء، أو أن يتخير من بين السور والآيات فيسقط بعضها ويبقي بعضها الآخر، أو أن يجزئ خلاف ما حول وجود بعض السور أو بقائها، وليبحث المستشرقون اليوم في أي مكان في العالم عن مسلم يستبجح لنفسه مثل ذلك وسيعيهم البحث، فلماذا إذن هذا التشكيك في صحة

١ - تولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٧٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٧٣.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٧٢.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٨٩.

النص القرآني وهم يعلمون مدى حرص المسلمين في السابق واللاحق على تقديس نص القرآن لفظاً ومعنى؟

لكل هذا يمكن القول بأن الرواية مكذوبة على ابن مسعود جملة وتفصيلاً، ويمكن القول -أيضاً- إن موقف نولدكه كان في منتهى الشطط عندما قال: "لم يكن موقف ابن مسعود الرافض للسور الثلاث اعتباطياً فإنها تختلف شكلاً ومضموناً عن سائر السور، الأمر الذي يدعو إلى الشك في صحتها"، ولو كان يتذوق معاني لغة العرب لما شهد بهذا الزور والبهتان.

الفرع الثالث: مصحف أبي ﷺ.

ذكر نولدكه أن هناك سوراً في المصاحف لا وجود لها في النسخة الرسمية كسورتي الخلع والحفد في مصحف أبي، وقد احتفظ بهما أبو موسى وقرأهما ابن عباس، ونقلهما علي إلى ابن زبير كجزء من القرآن، فهو يقول: "ثمة أمر ذو أهمية كبيرة وهو أن مجموعة أبي تحوي سورتين لا نجدهما في النسخة الرسمية..."^(١)

ونصهما (اللهم إنا نستعينك ونستغفرك وننتي عليك، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك) و (اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق). ثم نجد نولدكه قد نقضهما بقوله:

"..لا يمكن نسبتها إلى الوحي إلا إذا كانت مسبقة بالأمر (قل) الذي يستعين به القرآن ليضفي الشرعية على الصلوات..لكن هذا أحد الأسباب التي تدعونا إلى الشك في أن تكون الفاتحة جزءاً من الوحي.."^(٢)

الرد:

ويمكن لنا إبطال هذه الافتراءات بما يلي:

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٦٥.

^٢ - المرجع السابق، ص ٢٦٧.

أراد نولده من جملة ما أورده في هذا الباب محاولة إثبات تعرض القرآن الكريم للتحريف بالزيادة أو بالنقصان، فقد ترك الأمر ملغزاً معلقاً، وأوردهما على أساس أنهما شبهة، ثم بدا مدافعاً عن القرآن كعادته، وكان عليه أن يجمع الروايات المتعلقة بالموضوع ويحققها ويفصل فيها، لكنه لم يفعل ذلك، ليصل إلى القول بأن القرآن نقصت منه سور بأكملها.

والصواب في هذا الموضوع هو أن ذلك الدعاء ليس قرآناً، ولا كان قرآناً ونسخ، وإنما هو دعاء قاله النبي ﷺ، بدليل الشواهد الآتية:

أولاً: لم يصح شيء من إسناد الروايات التي تفيد أن سورتي الحفد والخلع المزعومتين هما من القرآن، والروايات الصحيحة ذكرت ذلك على أنه دعاء القنوت، ولم تُشر من قريب ولا من بعيد إلى أنه قرآن^(١).

ثانياً: إن قراءة أبي وابن عباس وأبي موسى التي افترضت تلك الرواية أن سورتي الخلع والحفد كانتا في مصاحفهم، قد وصلتنا بالتواتر، وهي ضمن القراءات العشرة الصحيحة المعتمدة، ولا توجد فيها سورنا الحفد والخلع المزعومتان^(٢).

ثالثاً: وما تقدم يبطل -أيضاً- قول نولده:

"..لا يمكن نسبتها إلى الوحي إلا إذا كانت مسبوقة بالأمر (قل) الذي يستعين به القرآن ليضفي الشريعة على الصلوات...لكن هذا أحد الأسباب التي تدعونا إلى الشك في أن تكون الفاتحة جزءاً من الوحي.."^(٣).

فالأمر مبني على القطع بالنقل أو عدمه، لا الاعتداد بالشكل بأنه تقدم السورة لفظ (قل) أو غيره، فهذا مما لا يقبل به عاقل، وما تهباً للأستاذ نولده من أن الأدعية والصلوات تختص بهذا اللفظ، أمر بين البطلان؛ فهناك سورنا الجن والكافرون ابتدأتا بهذا اللفظ، ولم يكونا أدعية في اعتبار نولده، وكان عليه أن يلحق النظر بنظيره إن أراد الحق.

١- ينظر مثلاً: المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢- ١٤٠٣هـ، ١١٠/٣ وما بعدها.

٢- ينظر: أسانيد القراء العشرة ورواتهم البررة، السيد أحمد عبد الرحيم، مصر: دار الصحابة للنشر، ط٢- ٢٠٠٦، ص: ١٤ وما بعدها.

٣- نولده، تاريخ القرآن، ص٢٦٧.

وقد تقدم ما يردّ عليه في موضوع أن الفاتحة ليست من القرآن^(١)، لكن أود أن أسجل - هنا - أن ما جعله نولدكه ينسحب على الفاتحة دون غيرها من السور، فقط لأنها صلوات، بهتان كبير يبرأ منه أهل العلم، وتظهر عليه بوضوح علامات الصفاقة الأسلوبية، والمنهج البيزنطي في الجدل الذي لا طائل من ورائه.

رابعاً: من ينظر في السورتين سيرى أن أسلوبيهما يختلف كلياً عن أسلوب القرآن، مما يدل على أنهما سورتان مُقحمتان في القرآن الكريم، وأن من تذوّق القرآن الكريم سيفرق بينه وبينهما، وسيدرك منذ الوهلة الأولى أنهما ليستا قرآناً.

وخلاصة الأمر أن ما ادعى نولدكه بأنه أنقص من القرآن أو زيد فيه بسبب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم، يفتقر إلى شاهد وينقصه البيان والحجة، ولم يستطع أن يستدل عليه بأدنى شبهة دليل، فضلاً عن أنه يعدّ في مصاف الهراء من النقولات والتخرصات التي لا يؤبه بها.

١ - قبل قليل في هذا المطلب.

المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان ؓ

تعدّ مرحلة جمع القرآن الكريم في عهد عثمان المرحلة الأكثر تركيزاً من قبل المستشرقين بشكل عام، ومن قبل نولدكه بشكل خاص، حيث احتلّ كلامه حولها مساحة أكبر ونسج حولها شبّهات متنوعة، ويمكن مناقشة المؤلف حول ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: دعوى إجراءات عثمان ؓ السلطوية في الجمع

يقول نولدكه: "وتحوز الروايات التي تتناول إتلاف مخطوطات القرآن التي سبقت مصحف عثمان مقداراً من الوضوح والتأكيد، وتتضمن كثيراً من التفاصيل التي لا يمكن أن تكون مختلفة"^(١).

ويقول أيضاً: "كيفما اتفق الأمر، لقد اندثرت بعد اعتماد الطبعة الرسمية كل أشكال الصيغ القديمة، مهما كانت قيمتها كبيرة، ولم تخلف إلا آثاراً ضئيلة غير مؤكدة. وقد خدم ذلك بلا ريب وحدة الدين المحمدي، لكنه خسارة لا تعوض في سبيل التعرف على بدايات الإسلام وكيفية نشوء كتابه المقدس"^(٢).

الرد:

ما ادعاه نولدكه من أن الخليفة الثالث اتخذ إجراءات قمعية لحمل الناس على مصحفه بالقوة، كلام غير صحيح، بل هو محض افتراء على عثمان ؓ، إذ أنه لم يفعل إلا ما ارتضاه الصحابة ؓ وبمحض منهم، ولم يكن معتمده فيما قام به شيء اخترعه من قبل نفسه، فقد رجع إلى النسخة الأصلية التي جُمِعت في عهد أبي بكر ؓ مما تَوّج على عهد النبي ﷺ، واعتمد الشخص نفسه الذي ارتضاه أبو بكر ؓ، وهذا ما تؤيده عامة الروايات والآثار الثابتة، ولكن يأبى نولدكه إلا المغالطة والتلبيس.

فقد روى البخاري في صحيحه (إن حذيفة بن اليمان قديم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود

^١ - المرجع السابق، ص ٣٤٠.

^٢ - المرجع السابق، ٣٤١.

والنصارى. فأرسل عثمانُ إلى حفصةَ أن أرسلِي إلينا بالمتخفِ نُنسخها في المصاحفِ، ثم نردّها إليك. فأرسلتُ بها حفصةُ إلى عثمان، فأمرَ زيدُ بن ثابتٍ وعبدُ الله بن الزُّبير وسعيدُ بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحفِ، وقال عثمان للرهطِ القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابتٍ في شيءٍ من القرآن، فاكتبوه بلسانِ قريش، فإتاما نزلَ بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ، فأرسل إلى كل أفقٍ بمصحفٍ مما نسخوا، وأمرَ بما سواهُ من القرآن في كل صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرق^(١).

إن عثمان رضي الله عنه لم يكن مستبداً برأيه في جمع القرآن، وإنما كل خطوة أقدم عليها في جمع القرآن، كان نتيجة استشارة الصحابة رضي الله عنهم، حملة القرآن وحفاظه، وكانت اللجنة برئاسة زيد بن ثابت وسعيد بن العاص هي التي قامت بجمع القرآن، وكان لعثمان دور الإشراف المباشر على تنفيذ المشروع، وإقرار ما يتوصل القائمون به، بعد عرضه على الصحابة والإجماع عليه^(٢).

ما فعله عثمان رضي الله عنه إذن هو جمع الناس على مصحف له شرعيته المستمدة من مصحف حفصة لينهي موضوع الخلاف، فعثمان لم يجمع ما كان مجموعاً بل نسخ ما كان مجموعاً عدة نسخ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(٣)، وهذا كل شيء.

وأما دعوى نولده أن عثمان رضي الله عنه أحرق المصاحف المخالفة لمصحفه، ونعته لها (بالمخطوطات) حيث يقول:

"وتحوز الروايات التي تتناول إتلاف مخطوطات القرآن التي سبقت مصحف عثمان مقداراً من الوضوح والتأكيد، وتتضمن كثيراً من التفاصيل التي لا يمكن أن تكون مختلفة"^(٤)

فبعد أسلوبه هذا إسقاطاً لواقع الاستشراق على الحادثة، من أجل خلق بعض الإثارة، وبهدف تبشيع الصورة وتفتير الناس من عمل الخليفة، إذ لا يخفى ما كان يعتري المهتمين بالتراث القديم في أوروبا آنذاك -وبالأخص المستشرقين- من حساسية شديدة جراء المساس بالمخطوطات وإحراقها، فاعتماد لفظ (المخطوطات) بدل المصاحف، تفنن مخادع في التعبير،

١ - صحيح البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨٣/٦.

٢ - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، ١/ ٢٥٥.

٣ - ينظر: خلاصة جمع عثمان للقرآن الكريم في مدخل الدراسة.

٤ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٣٤٠.

ولف ماكر في الصياغة، يشي بنوع اعتداء صارخ على الحضارة الإنسانية، أشبه بأعمال
عصابات الإجرام التي تعاني منها أوروبا منذ زمن بعيد، وأين عمل الإمام من ذلك؟

الرد:

إن الباعث الذي من أجله نسخ المصحف، يقتضي من الخليفة منع انتشار ما عداه من
الصحف، بأية وسيلة إتلاف مناسبة، سواء أكان بالحرق أم الخرق، أم الغسل، وبكل وردت
الآثار^(١).

لقد وافق الصحابة رض الله عنهم عثمان رضي الله عنه على تحريق هذه المصاحف، فاستجابوا له وحرقوا
مصاحفهم.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا
خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله، ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ
منّا جميعاً، قال: والله، لو وكّيت لقطت مثل الذي فعل^(٢).

وعن مصعب بن سعد قال: أدركت الناس حين شق عثمان رضي الله عنه المصاحف، فأعجبهم ذلك،
ولم ينكر ذلك منهم أحد^(٣).

فإتلاف هذه المصاحف أو (المخطوطات) كما يسميها تولدك، لم يؤثر على المتواتر من
محتواها، وجرّد عن كل ما ليس بقرآن، حتى ولو انتشرت كل أشكال الصيغ القديمة، ومهما
كانت قيمتها كبيرة، فإنها لا قيمة لها مقارنة بالمجمع عليه من القرآن، وبالنسبة للمحافظة على
وحدة الأمة ودينها، ولهذا يمكن القطع بأنه لا خسارة من جراء إحراقها كما توهم.

وكل ما تقدم على اعتبار صحة حادثة الحرق المشار إليها، وإلا فهناك من يطعن بسلامة
هذه الأقوال، ويذهب إلى أن مصاحف الصحابة بقيت بأعيانها في بطون كتب القراءات، وعلوم
القرآن، والتفاسير، مما يكذب دعوى الغالية والزنادقة في أن عثمان أحرقها، أو أحدث أمراً في

١ - ينظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٣٦/٨.

٢ - رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف، باب: جمع عثمان المصاحف، ص ٣٠. وقال الحافظ ابن حجر:
بإسناد صحيح. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٦٣٤/٨.

٣ - المرجع السابق، باب اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف، ص ١٩.

كتاب الله تعالى. لقد بنى هؤلاء النقاد أحكامهم المتعسفة على روايات ضعيفة ساقطة، وأقوال طائفية لا يقام لها وزن^(١).

والذي يميل إليه الباحث أن عثمان رضي الله عنه، أحرق بعضها دون متابعة كل المصاحف الموجودة، ذلك أن الشائع منها بين الناس قليل، فهي مصاحف خاصة مقصورة على استعمال أصحابها، ولأن أغلبها لم يشتمل على زيادات لها أثر يذكر في اختلاف المسلمين، وإلا فما هو محفوظ بالصدور، يفوق ما هو مكتوب في السطور من حيث عدد النسخ.

أما ما يزعمه نولدكه حول تعذيب عثمان لابن مسعود رضي الله عنه، حيث يقول: "وكما يرد في أحد المصادر أحضر ابن مسعود بعدها إلى المدينة ليعاقب، وأخضع هناك للتعذيب الجسدي بأمر عثمان"^(٢)، وقوله: "تبع ذلك الرأي إذا، من نزعة تحميل الخليفة المكروه ذنب تدنيس جديد"^(٣) أما الصحابة القدماء من قاطني الكوفة رضي الله عنهم فقد فرحوا "بوصول المصحف الجديد بالرغم مع أنهم لم يكونوا على علاقة طيبة بالخليفة"^(٤).

ومرة يذكر أنهم قاوموا مصحفه، يقول: "أما الكوفيون بقيادة ابن مسعود، فقاوموها"^(٥)، فهو مما لم يدل عليه دليل صحيح، بل مجرد افتراء وتزوير، لأنه على فرض صحة ما نقل من مخالفة ابن مسعود، فإنه يستحيل أن يستخدم عثمان معه وسائل العقاب الجسدي، فعثمان في هذا الباب يملك حجة دامغة وقوية، تخوله أن يتغلب على جميع مظاهر الرفض لمشروعه لو وجدت، وأي قوة في الحوار أوجه من قوله لابن مسعود رضي الله عنهما:

(... فهلاً عتب على أبي بكر وعمر، هما عزلاه عن نسخ القرآن وولياه زيد بن ثابت، واتبعت أثرهما فيما بقي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم).^(٦)

١ - أبو نيلة. محمد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص ٤١٠.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٣٩.

٣ - المرجع السابق، ص ٣٣٨.

٤ - المرجع السابق، ص ٣٣٩.

٥ - المرجع السابق، ص ٢٨٠.

٦ - ينظر: نكت الانتصار لنقل القرآن، لأبي بكر ابن الباقلائي، ص ٣٦٣.

وأقصى ما ورد في هذا الأمر - إن صح أيضاً - ما ذكره الباقلاني بقوله: "وقد وردت الروايات أن عثمان وعظه، وحذره الفرقة، فرجع واستجاب إلى الجماعة، وحث أصحابه على ذلك"^(١).

قال ابن العربي: قالوا مبعدين متعلقين برواية كذابين جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير منها: ضربة لعمار حتى فتق أمعاءه، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه، وابتدع في جمع القرآن وتأليفه وفي حرق المصاحف، (ثم عدد جملة مما أخذ على عثمان ﷺ ثم قال) هذا كله باطل سنداً وممتناً^(٢).

وقال في موضع آخر: "وأما ضربه لعمار وابن مسعود ومنعه عطاءه فزور"^(٣)

ولعل نولده أفصح عن جانب من الحقيقة عندما أقرّ بفرح قاطني الكوفة بقدم المصحف الجديد، لكن ما فتئ أن كثر وجهها بطلاء الزور والبهتان لما قال: "بالرغم مع أنهم لم يكونوا على علاقة طيبة بالخليفة"^(٤).

ثم وجدناه يناقض نفسه في هذا حينما قال: "أما الكوفيون بقيادة ابن مسعود، فقاوموها"^(٥).

الرد:

إن أصحاب ابن مسعود ﷺ هم الكوفيون الذين فرحوا بقدم عمل عثمان ﷺ قبل قليل، فلم بدا منهم المقاومة وهم فرحون؟ وإذا اقتصر الرفض على فئة قليلة، هم أتباع ابن مسعود ﷺ دون قاطني الكوفة، فلا يضرّ المصحف الجديد حينئذٍ خلاف هؤلاء القلة لو صح.

وإذا ما تذكرنا - أيضاً - اتفاق الصحابة على قبول المصحف الإمام دون شذوذ بذكر، سندرك بطلان قصة إحضار ابن مسعود ﷺ وتعريضه للعقاب الجسدي، وسنتبين بجلاء عدم صحة هذه المزاعم.

١ - الباقلاني. أبو بكر ابن الطيب، نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٢٦٤.

٢ - المعافري. محمد بن عبد الله بن محمد المالكي، العواصم من القواصم في تحقيق موقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، بيروت: دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٤٠٧، تحقيق: د. محمد جميل غازي، ص ٧٧.

٣ - المرجع السابق ص ٧٦.

٤ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٣٣٩.

٥ - المرجع السابق، ص ٢٨٠.

المطلب الثاني: نقد دعوى تحريف عثمان للمصحف

ما ذهب نولدكه إليه من قيام عثمان رضي الله عنه بتحريف القرآن الكريم، فبعدما رفض دعوى فائل، التي يتهم بها عثمان رضي الله عنه بحذف كل المواضع المناهضة لبني أمية؛ يقول:

"أما شطب أسماء مفردة فهو بحد ذاته وارد"^(١). فيمكن إبطاله بما يلي:

الرد:

هذا تجن واضح، ذلك أن القرآن الكريم ليس كتاباً يختص بطائفة من الطوائف - كما كان حال التوراة والإنجيل - فيتاح لكل عابث التلاعب به، فعثمان رضي الله عنه انطلق بعمله هذا من قاعدة المشورة، واعتمد في نسخه على المصحف الذي جُمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه، حيث طلب من حفصة رضي الله عنها النسخة التي جُمعت في عهد أبي بكر، وأمر زيد بن ثابت وآخرين باستساخها في المصاحف"^(٢).

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يفعل هذا خلسة، بل كان على مرأى من كبار الصحابة رضي الله عنهم ويشترط أن يسكت هؤلاء على عبث أحد في القرآن، بل إن هذا العمل حاز تقديراً واستقطب أنظارهم، وفاز بإجماعهم، وهو المصحف الوحيد المتداول منذ عهد عثمان رضي الله عنه إلى اليوم.

فقول نولدكه: "أما شطب أسماء مفردة فهو بحد ذاته وارد"^(٣) عبارة عن دعوى بلا دليل.

أما ما يتعلق بآيات التوبة والأحزاب، فإن مراد نولدكه من استعراض موضوعهما، الاستدلال على أن القرآن الكريم قد اعتراه النقص، وامتنك إليه يد العبث، فهو يقول: "ويسمح استنتاج آخر يربطه بالرواية القائلة بأن عثمان اهتم بأن يجمع أكبر عدد ممكن من الآيات والسور، هكذا تجمع كل أشكال الحديث السائد على أن الآية ٢٣ من سورة الأحزاب ٣٣ كانت في البداية مفقودة، لكنها وجدت عند خزيمة بن ثابت، ثم وضعت في مكانها الحالي. وقد اكتشف

^١ - المرجع السابق، ص ٣١٧.

^٢ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١ / ٧٨ - ٧٩.

^٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣١٧.

فقدان هذه الآية بحسب تفسير الطبري ج ١ ص ٢٠ لدى تفحص النص الجديد للمرة الأولى، بينما اكتشفت خاتمة سورة التوبة ٩ عند خزيمة آخر لدى التفحص الثاني^(١).

فعبارة نولدكه: "أن عثمان اهتم بأن يجمع أكبر عدد ممكن من الآيات والسور"، يفيد ما يرمي إليه نولدكه -كما مر- من إثبات نقص أكيد في نص القرآن الكريم، ومعلوم أن مقصود زيد بن ثابت أنه لم يجدها مكتوبة إلا عند أبي خزيمة، وإلا فإن هاتين الآيتين مما تواتر شفاهاً وحفظاً، ويبين ذلك ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: ".... فَتَبَّغْتُ الْقُرْآنَ...، فَوَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) إِلَى آخِرِهَا مَعَ أَبِي خَزِيمَةَ فَأَلْحَقْتُهَا فِي سُورَتِهَا"^(٢)

قال ابن حجر رحمه الله: "وَكَانَ الْمُرَادُ بِالشَّاهِدَيْنِ الْحِفْظَ وَالكِتَابَ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَشْهَدَانِ عَلَى أَنْ ذَلِكَ الْمَكْتُوبُ كُتِبَ بِيَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَشْهَدَانِ عَلَى أَنْ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ. وَكَانَ غَرَضُهُمْ أَنْ لَا يُكْتَبَ إِلَّا مِنْ عَيْنِ مَا كُتِبَ بِسِنِّ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ لَا مِنْ مُجَرَّدِ الْحِفْظِ"^(٣)

فظاهر أن طلبه لها ليس نسياناً وضياعاً، مما دعا لتذكرها وإحاقها بالمصحف، وإنما الذي حدث هو أن زيدا عندما جمع القرآن زمن أبي بكر افتقد تلك الآيات مكتوبة، ولم يفتقددها بسبب النسيان والضياع، فطلب المكتوب لا المحفوظ، فقد كان هو يحفظها، وعنده عدد من الصحابة رضي الله عنهم -أيضاً- يحفظونها.

١ - المرجع السابق، ص ٢٩٠. ونولدكه يشير بإلغاز إلى الاختلاف في الإسمين: مع (خزيمة أو أبي خزيمة) قال ابن حجر: "التحقيق أن آية التوبة وجدها مع أبي خزيمة، وآية الأحزاب مع خزيمة" وقال الشيخ صبحي الصالح: "وفي رواية: مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لكن الذي في تهذيب التهذيب ٣/ ١٤٠ (والكلام لم يزل للصالح) أن خزيمة بن ثابت الأنصاري هو ذو الشهادتين، فهو غير أبي خزيمة. ثم قال: وفي البخاري "فضائل القرآن" أن زيدا وجد عند خزيمة هذا آية من سورة الأحزاب، فهل اختلط الأمر على الرواة والمؤرخين؟" ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥، ١٩٨٣، ص ٧٥.

٢ - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨٣/٦.

٣- العسقلاني. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦٣١/٨.

لذا لا تعلق لنولدكه بهذه الآيات، ولا تصلح دليلاً على أن القرآن الكريم أوكل للناس، أو امتدت إليه أيدي البشر بالعبث والتزوير.

بقي شيء يجب أن أشير إليه هنا، وهو قول نولدكه: "هكذا تجمع كل أشكال الحديث السائد على أن الآية ٢٣ من سورة الأحزاب ٣٣ كانت في البداية مفقودة، لكنها وجدت عند خزيمة بن ثابت، ثم وضعت في مكانها الحالي. وقد اكتشف فقدان هذه الآية بحسب تفسير الطبري ج ١ ص ٢٠ لدى تفحص النص الجديد للمرة الأولى، بينما اكتشفت خاتمة سورة التوبة ٩ عند خزيمة آخر لدى التفحص الثاني"^(١)، فهذا المعنى المقتبس من كلام الطبري -رحمه الله- عكس ما جاءت به أغلب الروايات، من أن قصة آيات سورة التوبة هي أولاً، وكانت زمن الجمع الأول في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم وقعت قصة آية سورة الأحزاب ثانياً، جاءت أثناء نسخ المصاحف زمن عثمان رضي الله عنه.

وتميل الدراسة إلى أن كلتا الحادثتين كانتا أثناء الجمع الأول، وأن منبع اللبس الذي أخر أمر إحدى الآيتين إلى الجمع العثماني، كان بسبب الراوي إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، الذي تصرف في رواية الزهري، التي أوردها البخاري في (صحيحه)، فقد دمج روايتين في رواية واحدة .

وكلام ابن حجر في الفتح يوضح ذلك، يقول: "هذا هو الصحيح عن الزهري، أن قصة زيد بن ثابت مع أبي بكر وعمر، عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت، وقصة حذيفة مع عثمان عن أنس ابن مالك، وقصة فقد زيد بن ثابت الآية من سورة الأحزاب في رواية عبيد بن السباق عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه. وقد رواه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن الزهري، فأدرج قصة آية سورة الأحزاب في رواية عبيد بن السباق"، ثم قال عن هذا الخبر الذي رواه الطبري: "وأغرب عمارة بن غزية فرواه عن الزهري فقال: عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه، وساق القصص الثلاث بطولها: قصة زيد مع أبي بكر وعمر، ثم قصة حذيفة مع عثمان أيضاً، ثم قصة فقد زيد بن ثابت الآية من سورة الأحزاب. أخرجه الطبري. وبين الخطيب في "المدرج" أن ذلك وهم منه، وأنه أدرج بعض الأسانيد على بعض"^(٢).

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٩٠.

٢ - العسقلاني. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦٢٨/٨.

إن رواية البخاري الثانية لا تتعلق بحادثة واحدة فحسب، وإنما تتعلق بحادثتين منفصلتين ومختلفتين تماماً، وهذا موضع الاستشهاد في الروايات الثلاث:

الأولى: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عَبْدِ بْنِ السَّبَّاقِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلًا أَهْلَ الْيَمَامَةِ ... فَتَتَبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعَهُ مِنَ النَّصَبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُرَيْمَةَ النَّصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ التوبة: ١٢٨ حتى خاتمة براءة). (

الثانية: حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ (أَنَّ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ ... وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ).

الثالثة: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ سَمِعَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: (فَقَدْتُ آيَةَ مِنَ الْأَحْزَابِ حِينَ نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فَالْتَمَسْنَاهَا فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُرَيْمَةَ بْنِ ثَابِتِ النَّصَارِيِّ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الأحزاب: ٢٣ فَالْحَقَّقْنَاهَا فِي سُورَتِهَا فِي الْمُصْحَفِ).

بعد عرض الروايات الثلاث، لا نجد صلة تذكر بين الروايتين الأخيرتين، لا زماناً ولا موضوعاً ولا ظروفاً.

أيضاً يستحيل أن تغيب هذه الآية المتواترة عن الصحابة ﷺ عندما جمع القرآن زمن أبي بكر، ثم تبقى في طي النسيان مدة أربعة عشر سنة، لا ينتبه لها إلا عندما نسخ عثمان ﷺ القرآن الكريم، إن هذا ياباه الواقع، وترفضه الأدلة الكثيرة التي تشير إلى أنها بقيت حاضرة على ألسنتهم واستشهاداتهم طوال هذه الفترة.

في الختام أعقب بملاحظة ربما تكون جديرة بالتنبيه، تتلخص في أن عبارة نولدكه تتجاوز ما يمكن أن يفهم من الروايتين حال إدماجهما خطأ مع سوء النية، إذ لم تقتصر على إفادة أن عمل أبي بكر ﷺ يعتريه النقص فحسب، بل أضافت معنى آخر يفيد أن مصحف عثمان ﷺ -أيضاً- ناقص لوجود احتمال ذلك بسبب هذه الرواية، مما يستتبع ذلك امتداد النقص للقرآن

الحالي، وهذا ما يهدف إليه باستمرار إذ يقول: "بان عثمان اهتم بان يجمع أكبر عدد ممكن من الآيات والسور، هكذا تجمع كل أشكال الحديث السائد"، وما تقدم يكفي لإبطال مراده، ولا حاجة بنا إلى القول بأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما نزل ، وقد حفظ بين اللفتين كما أوحى ، فالحديث عن سلامة القرآن وصيانته من البدهيات ، والاعتقاد بخلوه من الزيادة والنقصان مسن الضروريات .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المطلب الثالث: شبه متفرقة حول الجمع العثماني ونقدها

ستعرض الدراسة هنا لمسائل تتعلق ببعض الشبه التي استدل نولدكه بها على الإخلال بالجمع العثماني كالتالي:

الفرع الأول: دعوى تحيز عثمان ؑ لأقاربه

يقول نولدكه: "فرغم أن الخليفة العجوز كان أداة مطواعة في أيدي أقاربه، فقد كان رجلاً تقياً مؤمناً"^(١).
الرد:

على الرغم من أن عثمان ؑ لا ينتظر الشهادة له بالإيمان ممن فقدوه، إلا أن فيه إقراراً صريحاً بإيمان عثمان وتقواه، فقد أظهر الله الحق على لسان الخصم، ومن كان ذا تقوى وإيمان، فإنه لن يتحيز، بل إن أولى مقتضيات الإيمان والتقوى أن يقف في وجه هذه الظاهرة وأن يكافحها لو وجدت، كما أن أي نظرة فاحصة في عمل عثمان ؑ، كفيلة بإبراز روح الأخوة الإيمانية، واستبعاد كل أشكال التعنصر أو الانكماش العشائري الضيق.

وإذا كان الخليفة الإمام الحبيب، قد أمد الله تعالى في عمره وهو لا يزال بكامل قواه الجسدية ويتمتع بحكمة ناضجة، فهو بفضل الله تعالى العميم، وخيره الوفير، على الحبي الكريم ؑ، ولا يعيبه مطلقاً أن كان عجوزاً طاعناً في السن، لكن لوثة القصور عن القدرة على الاستدلال، الملتصقة بعقول المستشرقين بعامة، يجعلهم يعرجون في حديثهم على فروع لا دخل لها في الموضوع لا من قريب ولا من بعيد، وهو أمر تكرر من نولدكه في أكثر من موضع، حتى يمكن إبراز هذه السمة كمنحى أساسي من مناحي منهجه، فنراه -مثلاً- يحاول أن يستدل على أن الجمع الأول لعمر لا لأبي بكر، فيعرج على شتم عائشة وحشرها فيما لا يمت للمسألة بصلة^(٢)، وكتابه يحمل الكثير من أشباه هذه الترهات.

^١-نولدكه، تاريخ القرآن ص ٣٢٠.

^٢- المرجع السابق، ص ٢٥٥.

الفرع الثاني: أعضاء لجنة الجمع

نجد أن نولدكه شكك في اللجان التي أنيط بها مهمة جمع القرآن الكريم، وادعى أن اختيار أعضائها لم يكن لكفاءتهم، وإنما لأهداف خاصة ولمصالح شخصية، كما أنه أورد احتمالات لتسويغ وجود اللجنة، يقول:

"بالرغم من ذلك لا بد من التشكيك فيما إذا كان وجهاء قريش المذكورون انكبوا فعلاً على عمل الكتابة هذا، وهو مضمن ويستلزم جهداً كبيراً، حتى ولو كانوا يحوزون القدرة على ذلك"^(١)

" لا يسعني بعد ذلك إلا أن أذكر إمكانية واحدة فقط، وهي أن أولئك القرشيين، بمكانتهم الاجتماعية المرموقة، كان عليهم أن يرفعوا قدر المشروع في أوساط الرأي العام"^(٢)

ويقول: "من لا يستحسن هذا الاستنتاج لا يسعه إلا أن يعتبر أن إشراك القرشيين الثلاثة لم يحصل فعلاً، ما يستتبع ضرورة تفسير تزوير الحقيقة التاريخية، إما انطلاقاً من مصالح قرشية أو من دوافع أخرى... هذا من دون أن نعلم شيئاً عن هدف استخدامهم ونوعه"^(٣)

ويقول: "ولو أن عثمان -بصرف النظر عن كل الاعتراضات- قصد فعلاً أن يشرك في العمل أفضل الضليعين بلهجة قريش، لتوجه إلى أشخاص آخرين، لا إلى أناس كانوا ينتمون إلى عائلات من قريش"^(٤).

الرد:

لتقييم موقف نولدكه حول هذا الموضوع، يجدر أن أذكر بأنه مهّد لأحكامه هذه بفدائنة سريعة، ترجم من خلالها لأعضاء اللجنة في محاولة منه للكشف عن سر اختيار عثمان رضي الله عنه.

١ - المرجع السابق، ص ٢٨٩.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٠.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٩١.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٨٠.

لهم، فهو يذكر سبب القرابة إن وجد، أو المصاهرة، أو المصلحة^(١)، لكنه -قطعا- يستبعد عامل الكفاءة والقدرة والأهلية عن عمد.

لكن ما هو غني عن الشرح والإعادة، بيان أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ضابطاً وحافظاً للقرآن كله، وأن السبب الرئيس في اللجوء إلى هذا الجمع في هذه المرحلة هو اختلاف الناس في القراءة، لذا فقد فرغ حذيفة رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأهاب به أن يدرك الأمة قبل أن تتفرق حول القرآن كما تفرق اليهود والنصارى قبلهم. فنهض رضي الله عنه للقيام بجمع القرآن، وندب لهذه المهمة الجليلة، زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، كلهم من قريش إلا رئيسهم زيد بن ثابت رضي الله عنه جميعاً.

فالقصة الواردة في جمع عثمان للمصحف، كقيلة ببيان المقصد الحقيقي لجمع عثمان، وسأوردها بتمامها ليتضح الأمر:

فَعَن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه (أَنَّ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانَ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَارِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْرَعَ حَذِيفَةُ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حَذِيفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْرِكَ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةَ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرُّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلسَانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَقْصَى بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ)^(٢)

مما سبق يلاحظ أن الخليفة إزاء واقعة حقيقية، وحادثة خطيرة تتعلق بأقدس شيء يخص المسلمين، وليس قضية مفتعلة كما يظن نولدكه فإنكاره أن يكون هناك لجنة أو حتى عمل من قبل القرشيين الثلاثة، مجرد اتهامات ليس لها سند، بل لا تحتاج إلى دفع، لأن ثبوته أشبه ما يكون بالبداهيات.

^١ - المرجع السابق، ص ٢٨٥-٢٨٦.

^٢ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، ١٨٣/٦.

كما أن نزاهة أعضاء اللجنة لا يصح أن يماري فيه أحد، لأن عدالة الصحابة رضي الله عنهم فوق كل شيء، واختيارهم كان لا اعتبار إتقانهم ومهارتهم وخبرتهم في هذا المجال.

ونولده يحاول أن يصل إلى أن اختيار أعضاء اللجنة كان لأسباب طبقية تابعة من مؤثرات عشائرية، فهو كما مر، قدم لهم بترجمة ركز فيها على صلتهم بعثمان رضي الله عنه وقريتهم منه، كما أنه قال: "من لا يستحسن هذا الاستنتاج لا يسعه إلا أن يعتبر أن إشراك القرشيين الثلاثة لم يحصل فعلاً، ما يستتبع ضرورة تفسير تزوير الحقيقة التاريخية، إما انطلاقاً من مصالح قرشية أو من دوافع أخرى... هذا من دون أن نعلم شيئاً عن هدف استخدامهم ونوعه"^(١)

وقال: "ولو أن عثمان رضي الله عنه - بصرف النظر عن كل الاعتراضات - قصد فعلاً أن يشرك في العمل أفضل الضليعين بلهجة قريش، لتوجه إلى أشخاص آخرين، لا إلى أناس كانوا ينتمون إلى عائلات من قريش"^(٢).

وليس لنولده في هذا ما يدعم مزاعمه، فما عرف من صفات عثمان رضي الله عنه، يكشف ضحالة هذه الفرية، بل إن الرواية الواردة في جمع المصحف -المذكورة قبل قليل- كفيلة ببيان المقصد الحقيقي لهذا الجمع.

هذا، وما طعن نولده به زيدا رضي الله عنه ورميه بالخرافة، فستأقشه الدراسة لاحقاً في المبحث الثاني من الفصل القادم إن شاء الله تعالى، لكن أقدم -هنا- خبراً يتعلق بما أنا بصدد، وهو أن نولده قد دأب على التفوه باتهام الإسلام والمسلمين بالخرافة في أكثر من موضع، وقوله هذا شاهد لذلك.

أما المنهج الذي سارت عليه اللجنة، فقد كان في منتهى الدقة والإتقان والتحري، فقد اعتمدوا صحف أبي بكر الصديق رضي الله عنه أساساً في نسخ المصاحف، وكان ذلك بإشراف مباشر من عثمان رضي الله عنه، حيث كان يتفقد اللجنة باستمرار، ويتعاهدهم على الدوام، وكانوا يرجعون إليه كلما دعت الحاجة، ويستوثقون فيما يكتبونه وبخاصة فيما تعددت فيه القراءة من مشاهير الصحابة وعلمائهم، فإذا اختلفوا في شيء من الرسم فإنهم يكتبونه بحرف قريش^(٣).

١ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٢٩١.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٠.

٣ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ١/ ٤٧٥.

الفرع الثالث: لفظ (تابوت):

لا بدّ من الإشارة إلى مقولة نولدكه حول لفظ (تابوت)، فبعدما ذكر قول عثمان رضي الله عنه مخاطباً اللجنة بقوله: (إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم)، قال نولدكه:

تخولنا هذه الكلمات كما يبدو، أن نستنتج أن الأثرية القرشية في اللجنة كان عليها أن تضمن أمانة النص لهجة قريش... فحين أراد زيد مثلاً أن يكتب (تابوه)، فيما فضل الباقون أن يكتبوا (تابوت) في سورة البقرة ٢: ٢٤٩. وسورة طه ٢٠: ٣٩ أعلن عثمان أن الصيغة الأخيرة هي الصيغة القرشية الأصيلة^(١).

الرد:

ما يؤخذ على نولدكه هنا، استعماله حذقة أسلوبية بارعة للتدليس على القارئ الغربي، فكلمة (مثلاً) التي استخدمها في معرض نقل ما اختلف فيه أعضاء اللجنة من ألفاظ، ينبئ عن مخزون هائل من المفردات الخلاقية فيما بينهم، مما يخرج عن الحق ويزور الحقيقة، وابتداء أود أن أسجل بعض الملاحظات حول كلمة تابوت:

- لم ينقل أن أعضاء اللجنة اختلفوا في كلمة في القرآن كله سوى هذه الكلمة.
- أن الخلاف الوارد في هذا اللفظ ليس مرده للقراءات، فالقراء العشرة مجتمعون على شكل نطقي واحد، هو (التابوت) لا غير.
- أن المقصود من قول عثمان: (إذا اختلفتم في شيء...) يعني في الرسم لا النطق، بدليل قوله: (فاكتبوه)، وبدليل ما أسفر عنه هذا الخلاف من نتيجة، فإنهم أثبتوها على رسم قريش بالتاء المبسوطة، لا المربوطة التي تقتضي الوقوف عليها بالهاء لا بالتاء^(٢).

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

^٢ - ينظر: الإحسان في مباحث من علوم القرآن، إبراهيم خليفة، القاهرة: الدار الحديثة للنشر، ط١، ٢٠٠٢م. ص ١٢٧.

إن من يطلع على حقيقة الخلاف، سيزداد ثقة بنصاعة القرآن الكريم، وسيمتلئ عرفاناً بفضل الله العظيم على الأمة إذ ضمن سبحانه لها حفظ كتابها بوعدة الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ وذلك لأن الخلاف الناجم عن الرسم ولا يمس المعنى كان له حكاية مضبوطة بوصية الإمام عثمان ؓ للجنة الجمع، فأين ألفاظ الأناجيل المتناقضة تناقضاً لا يمكن تجاوزه أو توجيهه من القرآن الكريم؟

وقد تكون اللهجة الغالبة هي لهجة قريش، ولا بأس بهذا، أما ما به بأس هو أن تكون اللجنة قد اختيرت لتضمن هذا الهدف، أو لأن يكون لها يد في العبث بالقرآن كيف شاعت، وهو ما كان القرآن منزهاً عنه، وما كانت اللجنة بريئة منه، لأن القرآن الكريم نسخ من نسخة أبي بكر دون زيادة ولا نقص.

إذن منحى نولدكه في عرض هذه المسألة، فيه تشويش واضح، يهدف منها إلى التغرير بالقارئ من خلال إدخاله كلمة (مثلاً) التي تدعو الموضوعية والتجرد العلميان المدعيان، توضيح ما يتعلق بها من معنى إذ أوردها، وعدم طمس الحقائق الواجب إظهارها، فتقديري أن النزاهة تستوجب التبرؤ مما قصده نولدكه هنا.

لكن إن تعجب فعجب قول نولدكه بعد هذا: ليس لدى النبي وخلفائه أي معرفة لغوية دقيقة، فمن هو صاحب اللسان اللغوي البديع إن لم يكن رسول الله ﷺ ولنفترض أن القرآن من عند الرسول ﷺ أو أنه تلقفه من معاصريه، أيقن لنولدكه أن يتهمه وخلفاءه بالضعف اللغوي ويزعم أنه يعرف دقائق اللغة ويستطيع أن يكتشف الأخطاء الأسلوبية، خيراً مما كان يعرفه الرسول ﷺ وأصحابه؟

ولو ادعى عربي أصيل مثل ذلك لكان في عداد المجانين فضلاً عن أن يكون أعجمياً لا يدري ما لغة العرب، فلم يكن أحد من العرب المعاصرين لمحمد من المسلمين ومن غيرهم يخطئه في لغته، أو يستدرك عليه بعض الحروف.

وخلاصة الأمر؛ إن للقرآن الكريم شأنًا عظيمًا، ومكانة رفيعة، حيث لقي من العناية والرعاية والحفظ والضبط والفهم والكتابة، ما لم يتوفر لدستور أو كتاب قبله، وعلى مدى رحلته الطويلة، وأن الحافظ الحقيقي له هو الله تعالى، وأنه نقل سماعاً من حفاظ مجودين متقنين، لا من المصحف وحده، وأن القرآن الذي بين أيدينا اليوم، هو عين الوحي الذي نزل به الروح

الأمين، وأن المسلمين جميعاً، لا يشكون بشيء من ذلك، وصدق الله القائل: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

شبهات حول علوم تتعلق بجمع

القرآن الكريم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث: شبهات حول علوم تتعلق بجمع القرآن الكريم

تكفل الفصل السابق بعرض موقف نولدكه من وقائع جمع القرآن وتاريخه ثم نقده، وسيعالج هذا الفصل بالعرض والنقد -أيضاً- بعض علوم القرآن والأنواع الأخرى من المسائل المتعلقة بجمعه، مما أثاره المؤلف، وقد جاء في المباحث الآتية:

المبحث الأول: ترتيب القرآن والحروف المقطعة عند نولدكه

لهذا المبحث علاقة وطيدة بموضوع جمع القرآن الكريم وتدوينه، فمن ناحية ترتيب الآيات والسور، فإن أحد أهم أعمال الجماع هو وضعه على نسق معين، وبالتالي اتباع أسلوب خاص في تقديم بعض الآيات والسور أو تأخيرها، بل إن: "ترتيب القرآن الكريم في آياته وسوره يعد من العناصر الأساسية في جمعه، إذ لا بد أن يكون الجمع على ترتيب معين"¹، ومن هنا جاءت صلته وثيقة بمسائل جمع القرآن.

وأما الحروف المقطعة، ففضلاً عن كونها من المواضيع التي اتهم فيها كتاب الوحي بإضافتها للقرآن، فقد تأكد اتصالها بالجمع من جهة رأي نولدكه فيها، الذي انتهى من دراسته لها على أنها كانت رموزاً على أسماء أصحاب المصاحف، لكنها اعتبرت بطريق الخطأ قرآناً، ثم أضيفت فيما بعد إلى المصحف. وعلى كل فستناقش الدراسة كلا من النوعين من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: دعوى نولدكه حول ترتيب القرآن الكريم

لا بد من الإشارة إلى أن معرفة كون القرآن الكريم لم يرتب وفق معطيات المضمون أو النزول لا يحتاج من المنقف المبتدئ إلى كثير عناء أو كبير ذكاء، لذا لا نلتفت إليه طويلاً، بالإضافة إلى أنه لا يخفى على أهل الشأن، أن لا أثر لتاريخ النزول في ترتيب الآيات في

¹ - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن، ص ٩٠.

2 - ومن أراد التأكد منه فليفتح المصحف الشريف ليجد أن ترتيب القرآن مختلف تماماً عن ترتيب النزول.

سورها، أو السور في القرآن، فنمّة اعتبارات أخرى مصدرها الوحي كانت وراء هذا الترتيب المعجز.

ولا أثر -أيضاً- لتاريخ النزول في الكشف الضروري عن معاني الآيات القرآنية، وعندئذ يتضح لنا سبب عدم ورود شيء عن الرسول ﷺ في شأن تحديد زمن نزول الآيات أو السور. وكذلك كون الرسول ﷺ:

لم يهتم بترتيب السور ترتيباً محكماً بحسب زمن تأليفها أو مضمونها^(١). كما زعم المستشرق.

فعلى الرغم من أن مقصود نولدكه يتعدى ظاهر العبارة؛ لأنه يطمع منها للوصول إلى أن النبي ﷺ لم يول القرآن عناية تذكر، وقد قام الباحث بنقد هذه الفرية والتصدي لها في المبحث الأول من الفصل السابق مما يغني عن إعادتها ثانياً، أقول على الرغم من ذلك، فسأحمل كلامه على معنى: عدم اهتمام النبي ﷺ بترتيب القرآن حسب النزول أو المضمون ليس إلا، لكن بشرط الاستغناء -أيضاً- عن عبارة (ترتيباً محكماً)، لما تضيفه من معاني لا تتفق والحقيقة التاريخية، ثم أوافقه بعد ذلك على مجمل سائر عبارته السابقة، فقد نقل السيوطي عن القاضي أبي بكر في الانتصار قوله:

"إنما يرجع في معرفة المكي والمدني على حفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة..."^(٢)

لذا ينبغي التفريق بين أمرين متصلين من جهة الاسم فحسب، وهو (ترتيب القرآن)، وما عدا ذلك فهما أمران مختلفان تماماً، فالترتيب حسب النزول ويقال له -أيضاً-: الترتيب الزمني للقرآن هو المقصود هنا، وليس الترتيب المصحفي الذي ألفت لأجله المصنفات والموسوعات بحثاً عن مقاصده وحكمه^(٣).

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

٢ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ١/٣٣.

٣ - مثل كتاب أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي. وغيرهما.

وإذا كان بعض العلماء الأقدمين قد ذكروا طرفاً مما يخص تاريخ نزول الآيات والسور، فإنهم إنما طرحوه من باب الرواية للتاريخ، لا لابتداع أسلوب جديد في شكل القرآن وصيغته.

وحتى الذين قاموا بهذا العمل من علماء المسلمين، لم يستندوا على دليل واضح، فعبد الرحمن بدوي -مثلاً- لما ذكر قائمتي الزهري وعمر بن عبد الكافي رحمهما الله تعالى، قال: "ولكن القائمتين لم تشرحا لنا على أي أساس استندتا في هذا الترتيب التاريخي".^(١)

ولما حاول المستشرقون أن يستخدموه لأغراضهم، أخفقوا أيما إخفاق، ولا يناقض ذلك اهتمام علماء المسلمين بعلم المكي والمدني، وعلم أسباب النزول، فإن العلم بهما، مما يساعد على فهم القرآن الكريم، ومن أجل معرفة الناسخ والمنسوخ، ولم يكن الغرض منهما صناعة ترتيب جديد للقرآن على أساس زمني^(٢).

أما الترتيب الثاني: وهو الترتيب المصحفي، أي ترتيب السور وفق ما هي عليه الآن، وهو المجال الخصب، الذي نال حظاً وفيراً من جهد علماء الأمة واهتمامهم، وهو الذي حظي بالنقل المتواتر عن شهداء التنزيل، وفي ضوء ذلك ينبغي فهم كل ما قيل بهذا الخصوص من قبل العلماء قديماً وحديثاً، كقول شيخنا الدكتور فضل عباس الآتي: "لقد شغلت هذه القضية علماء المسلمين ابتداء من عصر الصحابة رضي الله عنهم، ولا عجب في ذلك أن يخصصوها بجهد عظيم وبحث جاد؛ لأنها تتصل اتصالاً مباشراً بأقدس كتاب حرص المسلمون أن يدافعوا عنه كل شبهة"^(٣).

فالذي خصه علماؤنا بجهد عظيم، هو القسم الثاني منهما، فاستخرجوا حكمه وأحكامه، وألقوا فيه الكتب والمجامع، لأنه من لدن حكيم خبير.

لذا يقف المنصف على مدى التجني والسفه المركب الذي حدا بنولدكه أن يسارع إلى استبعاد أن يكون علي أو أحد من الصحابة قد قام بعمل علمي تاريخي في ترتيب السور حسب

١ - بدوي. عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص ١١٣.

٢ - ينظر: القرآن الكريم؛ دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ص ٩٣.

٣ - عباس. فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص ١٧٦.

النزول، فيقول: ".كما لا ننتظر من أي من أصحاب النبي أن يكون قام بهذا العمل العلمي التاريخي"^(١)، فالواجب فهمه إزاء ذلك هو أن العمل العلمي يتمثل في ترك ما لا دخل لك فيه لمن هو أدري وأعلم، فالصحابه هم أهل الدار وهم أدري بما في الدار، ولو فيه خير لما تركوه أبداً.

وبعد أن استبعد نولدكه جميع احتمالات سبب ترتيب القرآن الكريم على ما هو عليه، جزم أخيراً بأن العامل الذي حدا بالجامعين أن يتبعوا هذا الترتيب، هو طول السور وقصرها فقال: "بحسب هذه الظروف، لا يتبقى إلا التفكير بالترتيب الآلي للسور بحسب طولها، وقد سبق لعلماء مسلمين بان نصحوا بهذا المبدأ. (جمع عثمان القرآن وألفه وصير الطوال مع الطوال والقصار مع القصار من السور)"^(٢).

الرد:

وللجواب على ذلك أقول: على الرغم من هذا الجزم من قبل نولدكه، يبدو أنه غير مقتنع تماماً بهذا الرأي، ولعله أراد أن يحيل القارئ الغربي على رأي مهما كان نوعه، حتى لو نبع ذلك من جموح صبياني كما أقرّ هو نفسه بذلك^(٣)، فقد أعدّ لائحة مقارنة، اشتملت على ترتيب السور في القرآن الكريم، وقابلها بعدد الآيات وطول السور، والترتيب المثالي الذي يوافق طول السور المتناقص، ليطالعنا بعد جهد جهيد بقوله: "كما يظهر من هذه اللائحة، يختلف الترتيبان عن بعضهما البعض اختلافاً كبيراً، فلا توجد إلا ست سور في مكانها الصحيح فقط. (ثم ينكرها ويتابع قوله) وهذا يدفع بالمرء أن يتساءل متعجباً عن سبب عدم إتباع الترتيب بشكل كامل، رغم أن ذلك كان ممكناً من دون عراقيل تذكر"^(٤)

والحق أنه لا داعي للعجب، لأن عامة المستشرقين يتناسون عن عمد، حقيقة الترتيب التوقيفي للقرآن، فأى نظرة إحصائية عاجلة إلى أطوال السور، ستكشف قطعاً - خطأ هذا التقدير القائل بعدم التوقيف، بل ستسفر عن ضرب من الأحكام التي تطلق جزافاً في دراسة القرآن الكريم ودون اقتناع قائله به.

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٧٨.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٩٣.

٣ - ينظر: تاريخ القرآن، مقدمة نولدكه للطبعة الثانية، ص IXXX.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٩٧.

فترتيب السور إذن ليس للطول والقصر فيه شأن، بل جاء بتعليم منه ﷺ، لذا فهو سر من أسرار إعجاز القرآن، لأن تنسيقه على هذا النحو، له دلالات موضوعية ولفظية تنبئ عن حكمة إلهية عظيمة^(١).

أما قوله: "وقد سبق لعلماء مسلمين بأن نصحوا بهذا المبدأ. (جمع عثمان القرآن وألفه وصير الطوال مع الطوال والقصار مع القصار من السور)"^(٢).

الرد:

فالجواب عليه أنه لم يدل عليه دليل، فمن هم هؤلاء العلماء (الذين نصحوا) أولاً؟ ولم أجد المؤلف نفسه ونبش عن خبر يتيم وقول وحيد ليس له أصل، وحاول أن يسعف به نفسه من كتاب (تاريخ اليعقوبي) ثانياً؟

حتى وإن صح هذا الخبر فإنه لا يعني ما ذهب إليه من أن الترتيب أسند إلى الناس، بل غاية ما يفيد أنه شكل مصحف عثمان بعد أن نسخه زيد ومن معه -ﷺ- لم يخالف ما هو معهود من قبل، فالطوال مع الطوال والقصار مع القصار.

ومما يؤكد عدم اقتناع المؤلف برأيه -غير ما تقدم- أنه ينعت هدف ترتيب سور القرآن الكريم بهذا الشكل بالغموض، فيقول: "إن القصد الذي كان وراء هذا الترتيب ليس واضحاً"^(٣)، إذن كيف قطع برأي لم يثق هو به؟

لكن الأدهى من هذا محاولته لفت نظر القارئ -كعادته- لصرفه عن اكتشاف مواطن الخلل في آرائه الشخصية، وذلك من خلال الهجوم المستمر على أمور جانبية لا تعلق لها بالشأن، كقوله:

"كما يجب إقصاء مبدأ الترتيب الزمني. فهو لا يتعارض وروح ذلك العصر القديم وحسب، كما سبق التنويه به أثناء معالجة نسخ القرآن التي سبقت مصحف عثمان، بل كان أيضاً مستحيل التنفيذ لأسباب تتعلق بحفظ النسخ الموجودة. فالقطع المختلفة اختلط بعضها ببعض اختلاطاً تاماً على الأرجح، أثناء الجمع الأول الذي قام به زيد، ما عدا المواضع التي

١ - ينظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، فضل حسن عباس، ٣٧.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٩٣.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٩٢.

سبق لمحمد أن أضافها إلى مواضع أقدم عهداً. لهذا السبب استطاع عكرمة أن يجيب على سؤال محمد بن سيرين عما إذا كان القرآن قد رتب بحسب زمان نزول آياته، بقوله إن ذلك كان مستحيلاً، حتى ولو اشترك البشر والجن في هذا العمل^(١).

الرد:

وللرد على المستشرق أسأله ما ضرورة التعرض لروح ذلك العصر أولاً؟ وثانياً: ليطه استنار بنصيحة عكرمة، إنن لأراح واستراح.

لقد اتضح جلياً لكل ذي بصيرة، أنه ليس هناك اختلاط للنسخ، بل تم جمعها بتمييز ودقة وإحكام، ومنحت من العناية والرعاية ما ضمن لها الغاية في الضبط والإنقان، وأمن لها السلامة التامة من الخلط أو اللبس أو النسيان.

على أن أغلب أحكام نولدكه السابقة من باب الافتراض، ولعل موضوع ترتيب الآيات والسور وما تعلق بهما، يعدّ أبرز مجال قرآني مارس فيه المستشرقون عامة، ونولدكه خاصة، ما يعرف بالمنهج الافتراضي، ويهدفون من خلاله إلى تصديق ما هو أقرب إلى الكذب، ويكفي للرد عليه أنه إذا كانت بعض السور قد تباعدت فترة نزولها، فما هو إلا دليل صريح على أن ما جاء في المصحف من ترتيب للآيات على غير الترتيب التنزيلي إنما هو من عند الله العليم الخبير.

بيد أن ما تجدر الإشارة إليه هنا، استلهم نولدكه لروح الجهالة المطبقة التي رزحت تحتها أوروبا حيناً من الدهر، تماماً كما نعتت زيغريد أوروبا في القرون الوسطى بقولها:

"ومن هنا فقط يتضح لنا تماماً لماذا احتاجت الحضارة في الغرب ألفاً من السنين قبل أن تبدأ في الازدهار تدريجياً... وما قاله هيجل عن يوم منيرفا، الذي لا يبدأ طيرانه إلا عند الغسق، ينطبق على التراث اليوناني السائر إلى الوراء حينذاك وعلى علوم الغرب التي ظلت في دور الحضارة ألفاً من السنين، وهو لا ينطبق على التطور العربي، ذلك لأن العلوم عندهم لم تكن قط ثمرة متأخرة لشجرة الحضارة"^(٢).

١ - المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٢ - زيغريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت: دار الجيل، ط ٨ - ١٩٩٣ ص ٣٧٢، بشئ قليل من التصرف.

لذا نجد المؤلف يتوهم أن العرب في تلك القرون قد أصابهم داء أوروبا الفتاك، فيقول:
"كما يجب إقصاء مبدأ الترتيب الزمني. فهو لا يتعارض وروح ذلك العصر القديم
وحسب..."^(١).

لكن لا أخاله يجهل حضارة العرب المضيئة آنذاك، وأغلب الظن أنه يتجاهلها.

ثم يقول: ويحرم اللاحقون اعتماد التسلسل الزمني في ترتيب القرآن، معتبرين هذا الرأي
بدعة"^(٢).

ويرى أن القول بترتيب آيات القرآن وسوره التوقيفي اعتقاد خرافي، كما أنه يردّ خبر أن
الرسول ﷺ حدد موضع كل آية، يقول: "أما الرواية القائلة بأن محمداً حدد لكل آية، فوراً بعد
نزولها مكانها المحدد، فلا تتمتع بمسند تاريخي، حتى لو كان قد قام أحياناً ببعض الإضافات إلى
سور معينة. هذه الرواية نشأت بالأحرى عن الاعتقاد الخرافي بأن الترتيب الحالي للقرآن،
لآياته وسوره على حد سواء، إنما هو ترتيب نو أصل سماوي فعلاً، وأن محمداً نفسه قد نسخه
بدقة"^(٣).

الرد:

ولإجابة تولدك على ما أثاره هنا، سأجمل موقف العلماء من مسألة ترتيب الآيات
والسور بما يسمح به المجال، فأقول:

١- أما ترتيب آيات القرآن الكريم فأمر توقيفي، بمعنى أنه وصلنا كما رتبّه رسول الله ﷺ
بناء على توجيه جبريل عليه السلام، وهذا جانب مجمع عليه لم يختلف فيه أحد من الأئمة، وحكي
الإجماع على ذلك عن جماعة منهم الزركشي^(٤) في كتابه (البرهان) وأبو جعفر^(٥) في كتابه

١ - تولدك، تاريخ القرآن، ص ٢٩٢.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٣ - المرجع السابق، ص ٤٢.

٤ - الإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، الشافعي، أحد علماء مصر في القرن الثامن
الهجري، ولد سنة ٧٤٥هـ، من مؤلفاته: البحر المحيط في أصول الفقه، والبرهان في علوم القرآن وغيرها،
توفي سنة ٧٩٤هـ. ينظر: شذرات الذهب، للإمام أبي الفرج عبدالحى بن العماد الحنبلي، بيروت: دار المسيرة،
ط الثانية (١٣٩٩هـ)، (٦/٣٣٥).

(المناسبات) ويستدل لذلك بما رواه البخاري عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان **﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾** قَالَ قَدْ نَسَخْتُهَا الْآيَةُ الْآخَرَى فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدَّعُهَا قَالَ يَا ابْنَ أَخِي لِمَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَاتِبِهِ^(١).

٢- وأما ترتيب السور ففيه للعلماء ثلاثة آراء:

الرأي الأول: إنه توقيفي بأمر الله تعالى ولا يخضع لاجتهاد أحد.

الرأي الثاني: إنه باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم لكنهم أجمعوا على هذا الترتيب.

الرأي الثالث: إن بعض السور كان ترتيبها توقيفياً، وبعضها الآخر كان باجتهاد الصحابة

ﷺ.

وستتناول الدراسة -بعد قليل- بعض أدلة الرأي الأول.

أما الرأي الثاني وهو القائل بأن ترتيب السور قد تم باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم لكنهم أجمعوا

على هذا الترتيب، فأشهر أدلة من قال به ما يلي:

أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد

عثمان رضي الله عنه.

وما روي من أن عثمان رضي الله عنه هو الذي قرن سورة التوبة بسورة الأنفال دون كتابة البسمة

بينهما، وذلك لتشابه قصتهما، مع أن الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وبراءة من أواخر ما

نزل بها، ولهذا رتب ترتيباً واحداً فهو ضعيف^٢.

أما الرأي الثالث القائل بأن بعض السور كان ترتيبها توقيفياً، وبعضها الآخر كان باجتهاد

الصحابة، فهو الذي مال إليه فطاحل العلماء، كما قال الزرقاني واستصوبه^(٣).

١ - هو الإمام الحافظ العلامة، شيخ القراء والمحدثين بالأندلس: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ولد سنة

٦٢٧هـ، أفاد الناس في القراءات وعللها ومعرفة طرقها، وأحكم العربية، أخذ عنه الإمام أبو حيان النحوي،

توفي سنة ٧٠٨هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ، الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني، الناشر

مكتبة الحرم المكي، بدون تاريخ، (١٤٨٤/٤).

٢ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: والذين يتوفون منكم، ٢٩/٦.

٣ - وميأتي تخرجه بعد قليل ص ١٤٩.

٤ - لمراجعة هذه الآراء ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ١/ ٣٤٦ - ٣٥٤.

ويبدو أن المستشرقين اعتمدوا على هذا الرأي كثيراً في قولهم بالترتيب الوضعي للقرآن، لكن جمهور العلماء تعقبوه بالتضعيف والتأويل، حتى غدا رأياً ضعيفاً غير ذي شأن^(١).

والذي يرجحه الباحث هو الرأي الأول، من كون ترتيب السور توقيفياً، لا دخل لأحد من البشر بتقديم سورة منه أو تأخيرها، وسأتناول بعض أدلة ذلك بشيء من التوسع فيما يلي:

١- إن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان رضي الله عنه، ولم يخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم، ولكنهم عدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان رضي الله عنه وترتيبه جميعاً^(٢).

٢- هناك آثار وأقوال للعلماء تؤيد ذلك، منها:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي بَيْتِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفَ وَمَرْيَمَ وَطه وَالْأَنْبِيَاءَ: إِبْتِهَانٌ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي^(٣). فذكرها نسفاً كما استقر ترتيبها، ولو كان الأمر اجتهاداً لوقعت منه على غير هذا الترتيب المعلوم، فلما رتبها على ترتيب المصحف علم أنها هكذا في المصحف ليس باجتهاد أحد.

قال أبو جعفر بن النحاس^(٤): المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث وائلة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المنين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل"^(٥).

١ - ينظر: القرآن الكريم؛ دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ص ٩٦.

٢ - ينظر: مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني (١/٣٥٤).

٣ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن ١٨٥/٦. وقوله من تلامي أي: مما حفظ قديماً، ومراد ابن مسعود أنهن أول ما تعلم من القرآن. ينظر: فتح الباري، ٤٩٣/٨.

٤ - العلامة إمام العربية أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن المرادي المصري النحوي المعروف بالنحاس، وبالصفار أو ابن الصفار (ت: ٣٣٨) صاحب التصانيف، أخذ عن الزجاج، وكان من أذكى العالم، توفي سنة ٣٣٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، (٤٠١/١٥)، وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (٢/٣٤٦).

وجه الدلالة: أنه ﷺ ذكر ما أعطي من القرآن في مقابل التوراة والزيور والإنجيل نسقاً كما وجدت في المصحف، فعلم أنها هكذا رتبت وليس باجتهاد أحد.

وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه من ذلك الوقت.^(٣)
قال ابن حجر: ومما يدل على أن ترتيب المصحف كان توقيفياً: ما روي عن أنس الثقفى قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ استموا من تقيف... الحديث، وفيه: قلنا ما أمكنك عنا يا رسول الله؟ قال: طراً على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أفضيه. قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحتنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة وحزب المفصل من قاف حتى يختم.

قلت: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ.^(٤)

وقال أبو بكر بن الأنباري:^(٥) "أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواياً لمستخبر، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها، فقد أفسد نظم الآيات"^(٦).

قال السيوطي: ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولأء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولأء، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ

١ - أخرجه أحمد في مسنده، ١٨٨/٢٨ رقم: ١٦٩٨٢. وقال الألباني في تعليقه على الحديث: (وهذا إسناد حسن).

٢ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ٢٩٥/١.

٣ - العسقلاني. ابن حجر، فتح الباري (٦٥٩/٨)، بتصرف يسير. والحديث أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في كم يستحبُّ يُختمُ القرآن، ح ١٣٤٥. وهو ضعيف، ينظر: ضعيف أبي داود (٢٤٦) دفاع عن الحديث (٣٦) للألباني.

٤ - هو محمد بن القاسم بن بشار المقرئ النحوي، ولد في الأنبار على الفرات سنة ٢٧١، من كتبه: الزاهر في اللغة، وأجل كتبه: غريب الحديث، ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي (١٠٩/٢).

٥ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ١/ ٢٨٩.

(طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاءً، وأُخِّرت (طس) عن القصص^(١).

"وسئل ربعة لم قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قُدِّمنا، وألَّف القرآن على علم ممن ألَّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه، ولا يُسأل عنه"^(٢).

وقال الكرمانى: (٣) ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين^(٤).

وأما ما نقل عن ابن عباس قال: قُلْتُ لِعُمَانَ بْنِ عُفَانَ مَا حَمَلَكُم أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمُتَاتِي، وَإِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمَبِينِ، فَفَرَرْتُمْ بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرًا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوْلِ، مَا حَمَلَكُم عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُفَانُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنْزِيلُ عَلَيْهِ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ ضَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَّلِ مَا أَنْزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ بَرَاءَةَ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً

١ - المرجع السابق، ٢٩٦/١.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ١ / ٢٩٢-٢٩٦ بتصرف يسير.

٣- هو أبو القاسم محمود بن حمزة الكرمانى، عالم بالقراءات، من مصنفاته (البرهان في متشابه القرآن) ت في نحو سنة ٥٠٥هـ. الأعلام، خير الدين الزركلى (١٦٨/٧).

٤ - السيوطى. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ١ / ٢٩٢. وحديث عرض القرآن على جبريل ﷺ أخرجه أحمد عن أبي هريرة قال: (كان يعرض على النبي ﷺ القرآن في كل سنة مرة فلما كان العام الذي قبض فيه عرض عليه مرتين)

قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه بذيل المسند: (إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير يحيى بن إسحاق فمن رجال مسلم). ينظر: مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، ٣٩٩/٢.

بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا فَقبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ
بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطَّوْلِ^(١).

فإنه لا يصح، فإسناده ضعيف، ومثته منكر، ونقل الزرقاني أجوبة من يردون الحديث
بقولهم: "إن حديث ابن عباس ؓ هذا غير صحيح لأن الترمذي - وهو راويه - قال في تخريجه
إنه حسن غريب لا يعرف إلا من طريق يزيد الفارسي عن ابن عباس ؓ، ويزيد هذا مجهول
الحال، فلا يصح الاعتماد على حديثه الذي انفرد به في ترتيب القرآن"^(٢).

أما بالنسبة لاستدلالهم بأن مصاحف الصحابة ؓ كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن
يجمع القرآن في عهد عثمان ؓ، فإني أكتفي بتكرير ما ذكرته سابقاً ففيه الجواب، مع تعقيب
يسير عليه، فقد كان بعض الصحابة يكتب لنفسه، فإذا كتب شيئاً احتفظ به حتى أصبح لديه
مصحف كامل، وربما ترك تدوين بعض السور ليس نكراناً لها وإنما لاستحالة نسيانها وأمن
ضياعها، فهو يرددها باستمرار في الصلاة أو غيرها، كالفاتحة حيث لا تصح الصلاة إلا بها،
فإذا ما أضفنا لهذا صعوبة الكتابة وندرة وسائلها آنذاك، أدركنا سر ترك بعضهم لتدوينها، هذا
من جهة. ومن جهة أخرى فإن هذه المصاحف خاصة، تقتصر على اطلاع أصحابها، لذا فليس
غريباً أن نجدهم يضيفون إليها ما ليس بقرآن، كالإدراج والتفسير مع علمهم بعدم قرآنيتهما.

والواقع حكم فصل، فقد دلّ على أن أصحاب هذه المصاحف، لم يرفضوا مصحف
المسلمين الذي جمعه الصديق ونسخه عثمان رضي الله عنهما، فمثلاً ابن مسعود ؓ الذي
أظهره نداءً صعباً للمصحف الإمام، فإن قراءته قد رواها الكوفيون عاصم وحزمة والكسائي،
وغيرهم، وهؤلاء موافقون للمصاحف العثمانية في القراءة، فإذا ما أضيف لهذا الجواب بأنه:
كما حق لهم ترك شيء من السور، وإضافة ما ليس بقرآن لهذه المصاحف، جاز - أيضاً - تقديم
المتأخر أو تأخير المتقدم، لأنها مصاحف خاصة بهم، مع علمهم الأكيد بالقرآن من غيره،
وبالترتيب التوقيفي للقرآن.

١ - رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: الجهر بالبسملة، ٢٨٧/١. والترمذي في كتاب تفسير القرآن،
سورة التوبة، ٢٧٢/٥. وهو أثر ضعيف، روي من طريق يزيد الفارسي البصري؛ قال عنه الحافظ: مقبول.
ينظر: تخريج أحاديث وأثار كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب، علوي بن عبدالقادر السعاف، ٩/١.

٢ - الزرقاني. محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، 354/١

وأحسب أنه لم يغال ولم يغامر من قال: "بل إنني قد أغامر فأقول: إن هذا الترتيب المعجز لسور القرآن، يعتبر من قبيل المشابه الذي يحتاج إلى أعمال الذهن للتوصل إلى العلاقات التي تجمع بين أجزاء القرآن من أوله إلى آخره، والتي قد تبدو غير واضحة أحياناً. ليس في القرآن خلل البتة ولا عوج ولا اختلاف أبداً، لا في ترتيب السور ولا في ترتيب الآيات"^(١).

وأختم هذا الجزء بما قرره صبحي الصالح في معرض توجيهه لكلام الزركشي، قال: "إن فقول الزركشي: (وترتيب بعضها ليس هو أمراً أوجبه الله، بل أمر راجع إلى اجتهادهم واختيارهم، ولهذا كان لكل مصحف ترتيب) لا ينبغي أن يسلم على علته، لأن اجتهاد الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً شخصياً لم يحاولوا أن يلزموا به أحداً، ولم يدعوا أن مخالفته محرمة، إذ لم يكتبوا تلك المصاحف للناس وإنما كتبوها لأنفسهم، حتى إذا اجتمعت الأمة على ترتيب عثمان أخذوا به وتركوا مصاحفهم الفردية، ولو أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر مفوض إلى اجتهادهم، موكل إلى اختيارهم لاستمسكوا بترتيب مصاحفهم، ولم يأخذوا بترتيب عثمان"^(٢).

وقد أطلت في ذكر أدلة القول بتوقيف ترتيب السور، لأن المستشرقين وجدوا في القول بعدم توقيفها فرصة سانحة للنيل من القرآن ومن الإسلام.

وأما نقد تولدكه في رمية المسلمين بالخرافة في قوله: هذه الرواية نشأت بالأحرى عن الاعتقاد الخرافي، فسأتناوله بحول الله تعالى - في المبحث القادم.

وأما ما يرتبط بما وصفه تولدكه بالأسلوب الوعظي للقرآن والوحدة الأدبية للسور، فإن المؤلف لم يستطع -تبعاً لعامة زملائه من المستشرقين السابقين- أن يتبين ما في القرآن الكريم من روابط أصيلة، تتم عن عاطفة صادقة، وتعبير جميل، وأداء رفيع، قد تعجز الكلمات أن تعبر عن التأثير القرآني وسطوته على القلوب، وذلك لا ينفي أبداً سر ترابط آيات القرآن الكريم وسوره، لكن نتيجة للنظرة السطحية عندهم لم يروا فيه إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة، دخلت إلى القرآن من جهة الصحابة الذين جمعوه ونقلوه.

^١ - أبو ليلة. محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص ١٩٥.

^٢ - الصالح. صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص ٧١.

وقد ردّ الدكتور عبد الله دراز على تفسيرات المستشرقين المختلفة بخصوص هذا الموضوع: بأنه من المنفوق عليه أن السور كانتْ بسُكْلِها الحالي منذ حياة الرسول ﷺ، وأن هناك تخطيطاً واضحاً ومحدوداً، إذ تتكون كل سورة من ديباجة وموضوع وخاتمة^(١).

ويضاف له ما هو معلوم من حال العرب الأحماح من أعداء القرآن الكريم وأنصاره، فقد عايشوا نزوله وسمعوا كلامه، وهم أولى بنقده ممن جاؤا بعدهم لو وجدوا فيه مطعن، وأن أيا منهم لم يجرؤ على إصدار حكم من هذا النوع، بالرغم من أنهم رموه بعدد من الشبهات، فماذا يعني ذلك؟ هل تنوَّق نولدكه اللغة العربية بجميع فروعها حتى بلغ مرتبة فاق فيها أهلها، فامتلاً منها، وبرع في نحوها وشعرها وبلاغتها وبيانها وسائر علومها؟ ثم أتى بما لم تأت به الأوائل؟ أم هو التعصب والتغليب والإسفاف الذي حدا به للقيام بمهمة ما، كما هو راجح وواضح؟

المطلب الثاني: دعوى نولدكه في الحروف المقطعة

شكك نولدكه في الطبعة الأولى من كتابه تاريخ القرآن بالاشتراك مع شفالي، أن تكون فواتح السور من القرآن، وإنما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند الصحابة ﷺ قبل أن يوجد المصحف العثماني، يقول: ولعل هذه الحروف ومجموعات الحروف علامات ملكية، وضعها أصحاب النسخ التي استخدمت في أول جمع قام به زيد، وصارت فيما بعد جزءاً من شكل القرآن النهائي، بسبب الإهمال لا غير.

وليس مستبعداً أن تكون هذه الحروف هي الحروف الأولى من أسماء مالكي النسخ.

في هذه الحال قد تشير الـ على الزبير، و المر إلى المغيرة و طه إلى طلحة أو طلحة بن عبيد الله، و حم ون إلى عبد الرحمن. أما في كهيعص فقد يعني الحرف الأوسط (بن) والحرفان

^١ - ينظر: المدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، الكويت: دار القلم، ط ٣. ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٣٨ فما بعد.

الإخبران (العاص) الخ^(١). فهي إشارة لملكية الصحف وقد تركت في مواضعها سهواً، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن فصارت قرآناً.

فهي فكرة لا ترى في أوائل السور إلا حروفاً أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة رضي الله عنهم الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة. فهي عنده إشارات لمن كانوا يملكون تلك الصحف.

إن المدقق لهذا الرأي سيفاجأ بأنه ضرب من التخرص لا يقوم على أساس، ولم يستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي، وهدف تولدكه من كل هذه التخرصات والشبه، هو: نفي ربانية القرآن، والطعن في مصدريته، ومع ذلك فلم يفلح في إيجاد أسماء لكل هذه الحروف، ثم إن هذا الرأي لم يرد على لسان أحد من المفسرين، حتى الروايات الضعيفة التي أولع بها المستشرقون لم يرد فيها شيء من هذا، لا تصريحاً ولا تلميحاً، فهي بدعة ظهرت لأول مرة في تاريخ الدراسات القرآنية على يدي تولدكه، أراد بها غمز دقة النص القرآني.

لكنه ما فتئ أن رجع عن هذا الرأي في الطبعة التالية، وانتهى من دراسته لها على أنها من وضع الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول شغالي: 'بسبب هذا الاعتبار وسواه تخلى تيودور تولدكه عن آرائه السابقة'^(٢). ويقول: 'توجد في بداية ٢٩ سورة من القرآن الذي في متناول أيدينا حروف مفردة أو مجموعات حروف، يعتبرها التراث أجزاء من النص المنزل'^(٣).

الرد

قبل الجواب على ما تقدم من أفكار، أود الإشارة إلى أن تولدكه حاول التركيز على إصاق صفة الغموض بالأحرف المقطعة وذلك بتعمد نعتها مباشرة، كقوله: 'الحروف المبهمة

^١ - تولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٣.

^٢ - المرجع السابق، ص ٣٠٦.

^٣ - المرجع السابق، ص ٢٩٩.

التي تسبق بعض السور^(١) أو "الحروف الغامضة"^(٢) أو "إشارات كهذه غير مفهومة"^(٣) أو على سبيل التلميح من خلال الإطالة والتحوير في الكلام كما سيأتي.

ولا بد بادئ بدء، من التأكيد على أن القرآن الكريم؛ منه ما هو محكم، ومنه ما هو متشابه، وأن من المتشابه ما لا يمكن الجزم بأن معناه كيت وكيت، فالقرآن الكريم مثل الكون يحتوي على أشياء، قد نراها ونحسها، ولكننا لا نقف على دقيق سرها أو حقيقة أمرها وليس كل ما يجهل ينكر^(٤).

وقد يقال: إن له معنى ومغزى ولا شك، ولكننا لا نستطيع الجزم به دون دليل واضح، ومن هنا تكثر أقوال العلماء فيه، وكثرة تفسير الشيء الواحد دليل على عظم شأنه.

وحتى على حد قول من رَدَّ علمها إلى الله -تعالى- ولم يفسرها باعتبارها مما استأثر الله تعالى بعلمها^(٥)، فإنه لم يدع أن ليس لها معنى، بل غاية قولهم: الله أعلم بمراده.

هذا أولاً، أما ثانياً فعلى افتراض ذلك أيضاً فإن فيها تنبيهاً للسامع ولفناً لانتباهه، لأن إثارة الانتباه بمدخل جديدة، إحدى سمات البيان العالي، وما تثيره هذه الحروف في النفس من معنى عن طريق وقعها الصوتي ليس فيه غرابة، فاليوم يسمون الموسيقى-التي تفقد حتى الأحرف بله الكلمات المفهومة- يسمونها لغة العالم، ولو حدثت أحد روادها بأنها أصوات غير مفهومة، لاتهمك أنت بالنقص والقصور أو الجهل والتخلف.

على أن القرآن الكريم بما فيه هذه الحروف، يعد غاية في التنسيق والتوافق والإيقاع والموسيقى، ولو أتاح المقام لي التعرّيج على ذلك، لاستعرضت نماذج منها يضيق عنها المكان^(٦). ولأثبت بما لا يدع مجالاً للمراء، أن المعاني ليست مرتبطة بالفكر فحسب، بل تمتد

١ - المرجع السابق، ص ٢٩٩.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٠٤.

٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٣.

٤ - أبو ليلة. محمد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص ٤١١.

٥ - وهو وجه لا يميل إليه الباحث.

٦ - ينظر مثلاً: تفسير سورة النجم في تفسير: في ظلال القرآن، سيد قطب، بيروت: دار الشروق، ط ١١،

١٩٨٥، ٣٤٠٣/٦ - ٣٤٠٢٢.

لتمتزج بالعاطفة، فالحروف المقطعة - إن افترضنا جدلاً بأنها غير معلومة المعنى عقلاً - فلا شك أنها تحمل معاني معلومة شعوراً ووجداناً وعاطفةً إذا صح التعبير.

هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فإن نولدكه متخصص لودعي^(١) في نقد الكتاب المقدس، وإنه ليقترُّ له معاناته الطويلة التي عاشها مع كثير من عبارات الكتاب المقدس الفجة - التي سنتناول الدراسة طرفاً من جوانب غموضها في المبحث القادم إن شاء الله - فلما نظر في القرآن، أسقط ما جناه هناك على ما أراده هنا، وهو يعلم شتان ما هما، فأعوذ بالله من عثرات الأقلام بعد الإفهام، آمين.

لكن اهتمام المفسرين بهذه الحروف من اختيار أوجه وقبول رأي ورد آخر وتفصيل مسائل.. الخ، يكشف عوارٍ مثلاً المستشرقين الذين تناولوا هذا الموضوع بمناهج لا تتفق مع العقل والواقع، وهو ما ستبحثه الدراسة فيما يلي.

المفسرون والحروف المقطعة

هذا الفرع وثيق الصلة بالفرع السابق، إذ أن التفسير ينفي أي شكل من أشكال الغموض التي قد تلتصق بالحروف المقطعة من مثبيري الشبهات.

لقد رأينا عند عرض أفكار نولدكه أنه يدعي أن المسلمين لم يستطيعوا تفسير الحروف المقطعة، فيقول: "بذل المسلمون الكثير من الجهد للكشف عن سر هذه الحروف، ويرجع كثير من التفسيرات المقدمة إلى ابن عباس وغيره من مشاهير القرن الأول، وحتى إلى كل صحابة النبي الذين يصلحون ليكونوا موضع ثقة"^(٢).

ويضيف نولدكه أيضاً: "لكن أحاديثهم شأنها شأن الروايات التفسيرية في مجملها تتعرض للشك الملحاح بأنها من وضع اللاحقين لتكون تصديقاً لأرائهم الخاصة، ما يدفعنا إلى الاعتماد في نقدها على أسباب مضمونية فقط.

١ - (إنه لودعي) مثل يضرب للرجل المصيب بظنونه، ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ١٣/١.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٠.

وقد صار من المعتاد مؤخراً تجاهل محاولات التفسير التي قام بها التراث. هذا لا يبرره شيء. فالعلماء المسيحيون في الغرب، طوروا بواسطة الصدفة أو الاستعارة كثيراً من الآراء التي هي نفسها آراء التراث الإسلامي أو تشبهها. أما التفسيرات الإسلامية التي لا أستطيع أن أقدم منها إلا مجموعة مختارة من الأمثلة الجديرة بالاعتبار^(١).

ويقول شفالي: " يتأسف تيودور نولدكه في الطبعة الأولى من هذا الكتاب لأنه لم يتمكن أحد بعد من التوصل إلى نتائج مضمونة حول معنى هذه الحروف. ويقول نولدكه أيضاً (والكلام ما زال لشفالي) إن هذه الحروف ليست من وضع محمد نفسه. فسيكون من المستغرب أن يضع النبي نفسه في بداية السور التي تخاطب الناس أجمع إشارات كهذه غير مفهومة"^(٢).

فهذه بعض أقوال العلماء في تفسير هذه الحروف، أذكرها على سبيل الإيجاز:

القول الأول: إن في هذه الفواتح، إشارة إلى إعجاز القرآن، فهو مركب من جنس هذه الحروف المقطعة التي عرفها العرب ويتحدثون بها، وصاغوا منها مفرداتهم، وصاغوا من مفرداتهم تراكييبهم. وأن القرآن لم يغير من أصول اللغة ومادتها شيئاً، ففيها من التحدي لهم ما فيها^(٣).

القول الثاني: إن هذه الحروف إنما هي أدوات صوتية مثيرة للانتباه السامعين، يقصد بها تفرغ القلوب من الشواغل الصارفة لها عن السماع من أول وهلة. نقل السيوطي عن الخويبي قال: "القول بأنها تشبيهات جيد لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة فينبغي أن يرد على سمع متنبه فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي صلى الله عليه وسلم في عالم البشر مشغولاً فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: {الم} و: {الر} و: {حم} ليسمع النبي صوت جبريل فيقبل عليه ويصغي إليه. قال: وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التشبيه كالأ واما لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تشبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع سمعه انتهى كلام الخويبي.

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٠.

^٢ - المرجع السابق، ص ٣٠٣.

^٣ - ينظر للتوسع في هذا الرأي: تفسير القرآن العظيم ابن كثير أبو الفداء، بيروت: دار الحيل، دون تاريخ، ٣٦/١. ومباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

ثم قال: وقيل إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفتدة وعد هذا جماعة قولاً مستقلاً والظاهر خلافه وإنما يصلح هذا مناسبة لبعض الأقوال لا قولاً في معناه إذ ليس فيه بيان معنى وقيل إن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي أ ب ت ث فجاء بعضها مقطوعاً وجاء تماماً مؤلفاً ليبدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها فيكون ذلك تعريفاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله بعد أن علموا أنه منزل بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها^(١)

القول الثالث: وجد الزمخشري - رحمه الله - في هذه الحروف سرّاً دقيقاً من أسرار الإعجاز القرآني المفحم، وخلصته: أن هذه الفواتح تحتوي على نصف حروف المعجم، وهي: الألف واللام والميم والصاد، والراء والكاف والهاء، والياء والعين والطاء والسين والحاء، والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة، كعدة حروف المعجم. وأن هذه الأربعة عشر مشتملة على أنصاف صفات الحروف، فلها في المهموسة نصفها، وفي المجهورة نصفها وفي الشديدة نصفها وفي الرخوة نصفها، وفي المطبقة نصفها، وفي المنفتحة نصفها وفي المستعلية نصفها، وفي المنخفضة نصفها، وفي حروف القلقللة نصفها. وهذا ملحظ إعجازي لم يكن ليتوفر لكلام غير كلام الحكيم الخبير.

لذلك فهو يُعقب على هذا السر العجيب بقوله: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته... وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته. فكان الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيبت لهم، وإلزام الحجة إياهم"^(٢).

ثم أتبع ذلك بتفصيل الحكم والأسرار واللطائف التي تضمنتها هذه الحروف التي بدئت بها بعض سور القرآن^(٣).

١ - السيوطي. جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، ٣١/٣ - ٣٢.

٢ - الزمخشري. جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ، ص ١٧/١.

٣ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٣ - ١٨.

القول الرابع: "أنها أسماء للسور ف ألم اسم لهذه و حم اسم لتلك وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها ونقله الزمخشري عن الأكثرين وأن سيبويه نص عليه في كتابه وقال الإمام فخر الدين هو قول أكثر المتكلمين فإن قيل فقد وجدنا ألم افتتح بها عدة سور فأين التمييز قلنا قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت كما يقال زيد وزيد ثم يميزان بأن يقال زيد الفقيه وزيد النحوي فكذلك إذا قرأ القارئ ألم ذلك الكتاب فقد ميزها عن ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم^(١) ويستدل لهذا بما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم

الجمعة "آلـه" السجدة و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ ﴾
الإنسان: (١)

القول الخامس: إن العرب قد وقع في كلامهم -نثراً ونظماً- الرمز إلى المعاني بالحروف ومنه: قلت لها قفي فقالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاب فقوله (قاف) أي وقفت^(٢).

والعرب الفصحاء سمعوا بعض هذه الحروف فلم ينكروها، ولو وجدوا بها مثلاً لما توانوا عن إبدائه، ولاشتهر عنهم اعتراضهم الشديد على هذه الأحرف، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بتاتاً.

قال السيوطي: "والذي أقوله: إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بل تلا عليهم ﴿ حَمَّ ﴾ فصلت: ١ ، ﴿ مَسَّ وَالْقُرْآنَ زَى الذِّكْرِ ﴾ ص: ١ وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشويقهم إلى عثره وغيرها وحرصهم على زلة؛ فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار فيه"^(٣).

سادساً: وهناك أقوال كثيرة حول تفسيرها، منها:

- ١ - الزركشي. محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ١/١٧٤.
- ٢ - رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: ما يقرأ في الجمعة، ١/٢٣٤. قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري. ينظر: تعليق الألباني على الحديث في المرجع نفسه.
- ٣ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ٣/٢٧.
- ٤ - المرجع السابق، ٣/٥١٠.

ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿التَّ﴾ و﴿صَّ﴾ وأشباهها قسم أقسم الله به. وما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿التَّ﴾ البقرة ١، قال: أنا الله أعلم. وقال: ﴿كَمَيْعَصَ﴾ مريم ١ قال: كافٍ هادٍ أمين عزيز صادق (١).

فهذه الأقوال نموذج واضح من اجتهاد علماء الأمة، من لدن العهد الأول إلى يومنا هذا، ولن ينقطع ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي دليل كاف لإبطال ادعاءات تولدكه ونقضها.

نظرية هرشفيلد ولوت في الحروف المقطعة

ذهب شفالي يوازن بين تولدكه ولوت من جهة وبين تولدكه وهرشفيلد من جهة أخرى، فلوت لا يستغرب أن يكون محمد نفسه قد اخترع إشارات كهذه وكان معروفاً بعشقه للغريب والغامض (٣).

وللجواب على هذا، فإني لا أكرر ما ذكر سابقاً من كون استحالة أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد تصرف في القرآن بشيء، لكن أضيف هنا ما يخص هذا الموقف: فلو كانت هذه الحروف من وضعه صلى الله عليه وسلم فلم جعلت على هذا الترتيب؟ ولم وقعت في أوائل هذه السور دون غيرها؟ ولماذا لهذا العدد من السور بالتحديد؟

إن العرب الذين هم أهل الفصاحة والبيان، لم يسبق لهم معرفة بهذا الضرب من الكلام، ولم يكن من عاداتهم في توثيق أشعارهم وخطبهم.

أما (هيرشفيلد) فيرى أن هذه المقاطع هي الحروف الأولى من أسماء أشخاص ساعدوا زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن، يقول: "ما زال هـ. هرشفلد يصر على الموقف الذي سبق لتولدكه أن اتخذه، مع إجراء تعديل عليه، يتطابق بحسبه كل حرف مفرد من المختصرات واسماً معيناً، وهو يتوصل إلى المطابقات التالية، وهي ظنون وحسب، كما يعترف هو أيضاً بذلك:

١ - ينظر: المرجع السابق، ٣ / ٥١٠ - ٥٢١.

٢ - تولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٤.

ال = ال التعريف

م = المغيرة

ص = حفصة

ر (ز) = الزبير

ك = أبو بكر

هـ = أبو هريرة

ن = عثمان

ط = طلحة

س = سعد (بن أبي وقاص)

ح = حذيفة

ع = عمر أو علي أو ابن عباس أو عائشة

ق = القاسم بن ربيعة

بحسب هذا التفسير يشير الحرف المفرد إلى أن السورة التالية مأخوذة من نسخة صاحبها المشار إليه، وقد وجدت السور التي تبدأ بحروف متعددة في ملكية أشخاص عديدين. وقد اتبع مبدأ توحيد اختصارات الأسماء التي كانت تتقدم قطعاً ضمن السور الحالية، على أن توحد الحروف في بداية السورة. ولا يمكن الجزم في ما إذا كانت علامات الملكية قد وضعها أصحاب المخطوطات أو محرر النص أو جامعه. كما لا يمكن تحديد الأسباب التي حدثت بزيد إلى الاحتفاظ بها أو إضافتها. أما بعد سورتي البقرة ٢ وآل عمران ٣ عن السور الأربع التي تبدأ برموز سرية معاملة، وهي السور ٢٩ حتى ٣٢، فيتضح بسهولة إذا روعي مبدأ ترتيب السور بحسب طولها. لكن فرضية علامات الملكية لا يمكن الاحتفاظ بها إلا إذا تخلينا عن إرجاع المختصرات إلى النبي ﷺ، ما يعتبره هرشفلد أمراً مفروغاً منه، معلناً أنه "بحسب ما نعلمه لم يكن في وسع محمد المساهمة في تركيب السور" لكنه سبق لي أن بينت ضلالة هذا الرأي أكثر من مرة^(١).

بخصوص قول (هيرشفيلد) إن هذه المقاطع هي الحروف الأولى من أسماء أشخاص ساعدوا زيد بن ثابت ﷺ في جمع القرآن، فإنه لم يقدم دليلاً واحداً يؤكد به ما ذهب إليه. ولم

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٠٩.

يبدل أي مجهود لإثبات ما يقول، فلا نشغل أنفسنا بتفنيد إدعاءات بدون دليل، خاصة وأن نولدكه شعر بخطأ فكرته فرجع عنها؟

ولكن ما يقال هنا أن بديهيات المنطق تضطرنا لطرح سؤال: لماذا لم يظهر هؤلاء الأشخاص ليَدَعُوا ذلك؟ هل كانوا خجولين من إظهار أنفسهم؟ مع أنها لو كانت لعنتت -آنذاك- إحدى مفاخر الزمان التي لن يتنازلوا عنها بسهولة.

هذا مع العلم بأن أسماء الصحابة ﷺ التي اقترحها نولدكه، وتمسك بها هرشفيد فيما بعد لا تتطابق -أبداً- أبداً من هذه الحروف المقطعة التي زعموا أنها رموز تدل عليهم، ولم تتحدد بأي من ضوابط المنطق أو العقل مطلقاً، فمرة تتعلق بالحرف الأول من الاسم، ومرة توافق الحرف الأخير منه.. وهكذا، وما قدموه في ذلك من تبريرات غير معقولة البتة، فضلاً عن أن هذه الحروف بهيئاتها لا تتطابق مع الأسماء التي اقترحها المستشرقون، فالزبير لا يرمز له بـ ﴿آلر﴾ لذلك استعمل ويلش حرف (Z) بدلاً من حرف (R) الذي وضعه نولدكه وهرشفيد في دعواهم أن ﴿آلر﴾ رمز للزبير.

كما أن الأسماء التي اقترحها المستشرقون، لم تكن معروفة بحيازة مصاحف، في الوقت الذي أهمل فيه هؤلاء المستشرقون ذكر أشهر الصحابة ﷺ الذين عُثِرَوا بحفظ القرآن وجمعه وتكوينه كابن مسعود، وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وغيرهم^(١).

والغريب أن المستشرقين "بُهَل" و"هرشفيد" قد تحمَّسوا لها من جديد وتبنَّواها مُتغافلين عن مدى بُعدها عن المنطق السليم، مع تخلي مبدعها الأول عنها وشعوره بخطئها^(٢).

فهذا كله يبين ضعف ما ابتدعه نولدكه واضطرابه، ومع ذلك قد وَجَدَتْ بدعته إقبالاً منقطع النظير من قبل دوائر الاستشراق، وظلت هي السائدة في الكتابات الغربية وقتاً طويلاً.

وأختم بما سجله صبحي الصالح حول عدم صحة هذه النظرية وصلاحتها بقوله: "وحسبنا أن المستشرق بلاشير يظهر تفاوت هذه النظرية بما لا يدع مجالاً لتقبلها واحترامها.

^١ - ينظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية، محمد أبو ليلة، ص ٢٣٠.

^٢ - ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ٢٤٢.

فهو يستبعد مع لوث ومع بوير أن يدخل المؤمنون الذين ذكرت أسماؤهم أنفأ وهم من هم ورعاً وتقى - عناصر غير قرآنية في الكتاب المنزل الذي لا يزيد عليه ما ليس منه إلا ضعيف الإيمان، قليل اليقين^(١).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

^١ - الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤٢.

المبحث الثاني: شبهات متفرقة حول جمع القرآن الكريم

تنوعت أفكار نولدكه حول مسائل جمع القرآن، فقد ضمت بالإضافة إلى وقائعه وأنواع من علومه المتصلة به، بعض المسائل المتفرقة التي ارتبطت به من وجه ما.

ثمة ملاحظة ينوه بها الباحث ابتداءً؛ وهي أن بعض هذه الأفكار قد تقدم عرضها وإسداء الملاحظات حولها، وتم إعادتها ثانية لنقدها من زاوية أخرى تختلف عما نظر إليها منها سابقاً، لذا اقتضى الأمر التتويه.

ويمكن عرض أفكار نولدكه ومناقشتها حول هذه المسائل بالآتي:

المطلب الأول: موقف نولدكه من روايات جمع القرآن

تقدم أن المستشرقين يتحاشون ما أمكن لهم ذلك الخوض في روايات جمع القرآن الكريم أو التعرض لها أثناء مناقشتهم لوقائعها، ذلك أن: روايات جمع القرآن كلها يربطها خيط واحد رفيع ومتين، وهذا الخيط ينتهي بنا إلى الحقيقة الصارمة، وهي أن القرآن قد كتب في حياة النبي وأن كل وسائل الحفظ والضبط الممكنة قد استخدمت لتأمين النص القرآني وسلامة نقله^(١).

لكن ما هو غني عن التأكيد بيان كون الروايات الواردة في موضوع الجمع ليست على درجة واحدة من الثبوت، بل تتنوع إلى ما هو صحيح في أعلى درجات الصحة، وما هو دون ذلك، وما هو ضعيف أو مكذوب غير مقبول، والمنهج العلمي يقضي بالأخذ بالصحيح وترك الضعيف، والتحذير من المكذوب.

لقد درج نولدكه في تناوله لروايات جمع القرآن، على اتباع طريقة أكثر المستشرقين، الذين يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم الأخبار واستبعادها، فهو يستبعد -غالباً- ما تقيده الروايات الإسلامية، ويذهب إلى استنتاجات عقلية يوازن بينها ويقرر ما يراه مناسباً. بل يتبع منهج التشكيك فيما هو صحيح ثابت دون أدنى دليل علمي، ويعتمد الآثار الواهية والمردودة، وذلك بتصيدها من مصادر غير آمنة، أو غير صالحة للعزو، لظروف أحاطت بها سابقاً، كطبيعة الموضوع الذي تخصصت به هذه المصادر، وكمنهج أصحابها وهدفهم منها

^١ - أبو ليلة، محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص ١٦٨.

وقت إعدادها، وغير ذلك مما ألفت الدراسة عليه بعض الضوء سابقاً^(١)، ثم لم يقف به الأمر عند هذا، بل عوّل على الاختلاف بين الروايات في حديث جمع القرآن، وبنى عليه أخطر النتائج، فأسأل الله أن يجنبنا مواطن التهم والافتراء، ودوافع الإحن والبغضاء.

ولن تعرض الدراسة -هنا- لإبداء ملاحظات ما حول موضوع هذه الروايات أو نقدها، لأن مثل هذا قد تقدم في مكانه منها، وإنما سنتركز حول موقف نولدكه تجاهها، وطبيعة الشكل الذي تناولها منه كالآتي:

ففي الحديث عن جامعي القرآن غير الأصليين، يشير إلى ما ورد في الإتيان من رواية زيد بن ثابت (قبض النبي ﷺ، ولم يكن القرآن جمع في شيء)^(٢) بقوله: "وإذا كانت إحدى الروايات التي تعود إلى زيد بن ثابت تدعي أن القرآن في تلك الفترة، لم يكن قد جمع أبداً، فإن وراء هذا القول تصوراً آخر يقوم على الأخبار التي تتحدث عن نسخة أنجزها أبو بكر"^(٣).

يلاحظ على نولدكه أنه استشهد بهذا الأثر، ليثبت أن القرآن لم يكتب في حياة النبي ﷺ، مع علمه بأن مقصوده: لم يجمع في مكان واحد، وهذا مغز استشراقي أصيل.

وحول موضوع لجنة الجمع المكونة من زيد والرهط الثلاثة -ﷺ- يشكك في قدرتهم على إنجاز هذا العمل بقوله: "ومن غير الواضح إذا كان القرشيون المذكورون يحوزون المعرفة الكافية لمساعدة زيد في هذا العمل. (ثم يقول): على هنائه، يبقى هذا الحل معقولاً أكثر من الآراء المباشرة التي تأتي بها الروايات"^(٤).

وقبل مناقشة نولدكه فيما أبداه من مغالطات، أود أن أشير إلى ما عنون به المبحث بما يلفت الانتباه إلى العبارة، حيث قال: "جامعو القرآن الأصليين..". وكأن بين الكتاب من هو أصيل وآخر غير أصيل، وهو تعبير غريب عن بيئة الإسلام عموماً، وبيئة الصحابة والقرآن خصوصاً، وإن صح التقسيم وهو قطعاً خطأ، فإن أولى الخلق بالأصالة هو الرسول ﷺ، فمن أين جاء نولدكه بهذه العبارات؟ وما هدفه من التقاطها أو محاولة إقحامها هنا أو هناك؟

^١ - ينظر: في هذه الدراسة المبحث الأول من الفصل الأول.

^٢ - تقدم تخريجه ص ٩٩.

^٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٤٠.

^٤ - المرجع السابق، ص ٢٨٩.

ثم أعود لأقول: ليس من الخطأ أن يقدم الباحث الآراء العقلية على الروايات، بشرط أن يكون هناك أحد مسوغات هذا التقديم، كأن تكون هذه الروايات غير صالحة للاحتجاج، بأن تكون مدسوسة مثلاً، وقد ورد عن الوزير والطبيب الغرناطي ابن نولدكه أنه قال: "إن القاعدة التي يجب أن نطلق منها دائماً، هي أن برهانا اقتبس عن المنقول عليه أن يخضع للتغيير، حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه"^(١) أما وقد صح بأن أعضاء لجنة الجمع العثماني قد اختيروا بمعايير مميزة تضمن أرقى موازين العرف والعقل والمصلحة المعتبرة، وضمن ضوابط الشرع، فإنه حينئذ تعد خطوة كهذه جريمة لا تغتفر، ليس لأن مبدعها أسنأذ بارع متمرس لا يخفى مثل هذا الأمر على مثله فحسب، بل لأن أجيالاً من الشعوب الأوروبية قد تربت على تشرب هذه الأفكار واعتقادها وانخدعت بها.

ونجد نولدكه كذلك يصف بعض الروايات بالخرافية: يقول "كما ينطبق هذا خاصة على بعض الأحاديث التي تتناول طفولة محمد وبدايات نشاطه النبوي، أذكر هنا بخرافات غسل قلب محمد، وانفلاق القمر، وكذلك ظروف نزول سورة المدثر"^(٢). وما سيقال في تنفيذ اتهام نولدكه للإسلام والمسلمين بالخرافة بعد قليل، يغني لرد مزاعمه هذه، فقط ما أراده الباحث من ذكر هذا الأمر هنا، هو إبراز أحد وجوه التعامل مع الرواية من قبل نولدكه.

مسألة أخرى، نجده يرجع السبب الكامن وراء مكانة ابن عباس لخلل النقد عند المسلمين؛ "لأن النقد الإسلامي، (كما عرض أعلاه عند التحدث عن الحديث)^(٣)، يقوم في بعضه على التحيز الشخصي، وفي بعضه الآخر على التبعية للأحزاب الدينية أو السياسية الأخرى"^(٤).

لا حاجة بالدراسة للقول بأن تاريخ الرواية ونقد الحديث عند المسلمين، يعد بحق مفخرة من مفاخرهم التي يحق لهم بها مباهاة الدنيا بأسرها، وأمة الإسلام هي أمة الإسناد، وسيطول بنا المقام لو أردنا استعراض شيء منه، لكن من أراده فليراجع ما كتبه ابن حزم -مثلاً- حول وجوه النقل عند المسلمين وغيرهم.

^١ - عمارة. محمد، الإسلام في عيون غربية، القاهرة: دار الشروق، ط ٢٠٠٤، ص ٣٤٦.

^٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٨٠.

^٣ - ابن حزم. أبو محمد علي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٨١/٢ - ٨٤.

^٤ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٨٨.

وأما إبطال ما ادعاه نولدكه حول تناقض الروايات عند المسلمين مع بعضها أو مع غيرها، فهو أمر لا يحتاج إلى كبير عناء، ذلك أن العلماء المسلمين يسيرون في التعامل مع الروايات المتناقضة ضمن منهج علمي محكم ودقيق، وقد جعل ابن كثير النوع السادس والثلاثين من كتابه (اختصار علوم الحديث)، وقال: "وقد صنّف فيه الشافعي فصلاً طويلاً من كتابه (الأم) نحواً من مجلد، وصنّف غيره، والتعارض بين الحديثين: قد يكون بحيث لا يمكن الجمع بينهما بوجه، كالنسخ والمنسوخ، فيصار إلى النسخ ويترك المنسوخ. وقد يكون بحيث يمكن الجمع، ولكن لا يظهر لبعض المجتهدين، فيتوقف حتى يظهر له وجه الترجيح بنوع من أقسامه، أو يهجم فيفتي بواحد منهما، أو يفتي بهذا في وقت، كما يفعل أحمد في الروايات عن الصحابة. وقد كان الإمام أبو بكر بن خزيمة يقول: ليس ثم حديثان متعارضان من كل وجه؛ ومن وجد شيئاً من ذلك فليأتي لأولف له بينهما"^(١).

لكن هذا المنهج غير معروف لدى المستشرقين، فتراهم يلقون الكلام على عواهنه.

وبالجملة فطريقة نولدكه في تناول روايات الجمع، مبنية على المبالغة في الشك والافتراض، وإنكار الحقائق الثابتة، واعتماد الضعيف والشاذ منها دون مبالاة بالصحيح الثابت.

هذا، وسيأتي نقد موقف نولدكه من ابن عباس رضي الله عنهما في المطلب الآتي بعد

قليل.

^١ - شاكِر. أحمد محمد، الباحث الخليل شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير، بيروت: دار الكتب العلمية، ط- ١٩٥١، ص ١٧٤ - ١٧٥.

المطلب الثاني: موقف نولدكه من الصحابة ﷺ.

بعد علماء الحديث عدالة الصحابة جميعاً أمراً مجمعاً عليه بينهم، وأن الصحابة يستحيل أن يصدر منهم كذب على رسول الله ﷺ، إلا أن المواطن التي تعرض فيها نولدكه للنيل من الصحابة -ﷺ- في كتابه (تاريخ القرآن) كثيرة، جنبنا الله أن نفتري عليه سبحانه أو على رسوله ﷺ أو على صحابته ﷺ ظلماً وزوراً، وستناقش الدراسة هذه الافتراءات في المسائل الآتية:

الفرع الأول: الخلفاء الراشدون

لا بد ابتداءً من الإشارة إلى أن نولدكه يعرّج باستمرار لبيتهم الصحابة وجماع القرآن وخاصة الخلفاء الأول بالنوايا السيئة والمقاصد الشريرة والمكر والتخطيط، فهو يغمزهم بقوله: "ولأن المصادر التي نتحدث عن حيثيات مهمة تتعلق بالديانة ملونة منذ البداية بنزعات ذاتية غير موضوعية"^(١).

والحقيقة لو وجدت هذه النزعات، لبدت آثارها واضحة جلية في أكثر من أمر، ولكن لما كان الجمع قد تم بوضوح وجلاء في ظروف عادية للغاية، وبحرية تامة، وتحت سمع الأمة وبصرها، أدركنا أن النزعة الذاتية لم تكن إلا في عقول المستشرقين ومن دار في فلكهم ليس إلا.

واتهم نولدكه الخلفاء الأوائل والمسلمين بالجهل وقلة العلم في القرآن، ويُعَنون لأحد مقاطع كتابه بقوله: "المعرفة القرآنية الشعبية عند الخلفاء الأولين"^(٢) فقد بنى المؤلف رأيه تحت هذا العنوان على فكرة مفادها: أن العلم بالقرآن مقصور على الحضر وأهل المدن، وأن أهل البادية لم يكونوا على علم به حتى وإن كانوا قادة للجيش، واستدل لهذا بروايات ونقول اعترف هو في ختامها -على طريقته- بأنها لم تكن سوى أقاصيص، إذن ليس من ضرورة لذكرها، لأن علم الخلفاء والصحابة وصلتهم بالقرآن لا يحتاج إلى دليل، وليس أدل على ذلك من وقائع جمعه وصيانتها والعمل به، ولم يزل أهل القرآن وخاصته يغرفون من منهلم الذي لم ينضب إلى اليوم، فلم هذا التجني؟

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٤٠.

^٢ - المرجع السابق، ص ٢٤٢.

الفرع الثاني: زيد بن ثابت ؓ:

نجد نولدكه ينتقص من زيد ؓ، بقوله: "حتى لو كنا لا نعرف بالضبط أية أفكار دينية أو خرافية خامرت المحرر"^(١).

ويقول: "كما لا يجب أن ننسى أن ابن مسعود وأبي كانا أكبر سناً من زيد، وقد أمضيا وقتاً أطول في خدمة النبي"^(٢).

الرد:

إن هذه العبارة وإن بدت سليمة في ظاهرها، إلا أنها مجافية للبراءة وسلامة المقصد في الحقيقة، فهو يهدف إلى أن يقول: إن زيدا قليل الخبرة في هذا المجال، ولا يصلح للقيام بهذا العمل الضخم.

إننا إذا ما تذكرنا سبب اختيار أبي بكر لزيد ؓ، سنلاحظ مدى توفيق الله - تعالى - لعثمان ؓ بعد ذلك، ليقع عليه اختياره رئيساً للجنة نسخ المصاحف، فزيد ؓ تحققت فيه مؤهلات ذات قيمة كبيرة، تؤهله للاضطلاع بهذه المهمة، منها:

- ١- أنه كان من كتبة الوحي، وهو من الأفراد القلائل الذين كانوا يجيدون الكتابة آنذاك.
- ٢- أنه تلقى القرآن مباشرة من فم رسول الله ﷺ وحفظه وأتقنه.
- ٣- أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن من النبي ﷺ على جبريل ؑ.
- ٤- أنه تولى جمع القرآن الأول، لأسباب صرح بها أبو بكر ؓ كما مر سابقاً، قال ابن حجر: "تَكَرَّرَ لَهُ أَرْبَعُ صِفَاتٍ مُقْتَضِيَةٍ خُصُوصِيَّتَهُ بِذَلِكَ: كَوْنُهُ شَابًا فَيَكُونُ أَنْشَطَ لِمَا يُطَلَّبُ مِنْهُ، وَكَوْنُهُ عَاقِلًا فَيَكُونُ أَوْعَى لَهُ، وَكَوْنُهُ لَا يَتَّكِنُ النَّفْسَ إِلَيْهِ، وَكَوْنُهُ كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ فَيَكُونُ أَكْثَرَ مُمَارَسَةً لَهُ. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لَهُ قَدْ تَوَجَّدَ فِي غَيْرِهِ لَكِنْ مُفْرَقَةً"^(٣).

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٩٨.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٧٥.

٣ - العسقلاني. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦٣٠/٨.

وبشأن حدائثة سنّ زيد رضي الله عنه، فليس فيها مطعن، فكم من صغير فاق من هو أكبر منه، وفي توثيق النبي صلى الله عليه وآله لزيد أعظم الدلالة على أهليته وكفايته، وقد قدم النبي صلى الله عليه وآله بعض صغار السن على من هم أكبر منهم، لما رأى من كفايتهم وأهليتهم فيما قدمهم فيه، كما أمر أسامة بن زيد، على جيش فيه كبار المهاجرين والأنصار، وهو لا يزال في بداية شبابه^(١).

وأيضاً فإن علماء الحديث لم ينسوا بيان متى يصح للإنسان أن يعقل الكلام، وهو ما يعرف بسن التحمل، وفي هذا الشأن يقول الأمير الصنعاني: متى يصلح تحمل الحديث أي في أي سن يصلح تحمل الراوي عن غيره الرواية العبرة في ذلك أي في سن التحمل أو زمنه بالعقل أي بتعلل الراوي والتمييز لما يرويه لا بحين معين ووقت متحد بين الرواة وقد خلفت الناس في ذلك وتختلف الأمور التي تحفظ فالأمور العظيمة التي يعظم وقعها ويندر حصولها ربما حفظت في حال الصغر بخلاف الألفاظ ولم أجد هذا في شرح الزين ولا في كلام ابن الصلاح وبالجملة متى ثبت العقل والبلوغ والعدالة ذكر العقل والبلوغ مع العدالة زيادة إيضاح وإلا فإن ذكرها يكفي لأنها لا يكون منصفاً بها إلا عاقل بالغ وجزم فعل ماض عطف على قوله ثبت الثقة بأنه يحفظ من صغره شيئاً لم يكن لأحد تكذيبه قال زين الدين ومنع من ذلك قوم وهو خطأ مردود عليهم وقد مثل من تحمل في صباه برواية الحسنين وعبد الله بن الزبير والنعمان بن بشير وابن عباس والسائب بن يزيد والمسور ابن مخرمة ونحوهم وقبل الناس روايتهم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وبعده^(٢).

ولا أظن نولدكه جهل ذلك فهو القائل: "لا شك في أهلية زيد للقيام بما أمر به عثمان وذلك بسبب عمله السابق. والواقع أنه كان في موقع لا ينافسه فيه أحد"^(٣). ولكنه مع علمه بهذا، يغمض عينيه عن الحق الذي يعلمه. وما رمى به نولدكه زيدا رضي الله عنه بالأفكار الخرافية، فسأعرض له بعد قليل.

١ - ينظر مثلاً: السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك ابن هشام، ٢١٨/٤.

٢ - الصنعاني. محمد بن إسماعيل الأمير الحسني، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المكتبة السلفية - المدينة المنورة، ط ٢، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ٢٩٢/٢.

٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٨٦.

الفرع الثالث: أم المؤمنين عائشة ؓ

لكن يبلغ تجني نولدكه منتهاه، عندما يربط بين أم المؤمنين عائشة ؓ ونسبة هذا الجمع لأبي بكر، فيقول: "وربما أيضاً كان لعائشة، أرملة محمد الشهيرة وابنة أبي بكر، اليد الطولى في هذه الجهود، خصوصاً أنها لم تكن بعيدة عن أجواء السياسة العائلية... إلى آخر كلامه في هذا السياق"^(١).

ويقول في معرض رد أسد أفندي على الشيعة: "حيث يدافع عن زوجة الرسول هذه..."^(٢).

الملحوظ من استقراء ما باح به نولدكه من أحكام حول الصحابة - ؓ - أنه يستغل الفرص للانتقاص منهم وشتيمهم، وكان توجيه السباب والظعن للإسلام ورموزه، يضمّد جرح الكنيسة النازف، ويرد لرجالها اعتبارهم المفقود منذ زمن غير محدود، أو يزيل وحر^(٣) صدورهم المتزايد، اللهم باعد بيننا وبين زلة العقول، وعصبية النفوس، ونوازع الجاهلية.

إنني أعرض لهذا الجانب وأنا محرج منه مع تقني الإمدودة والكبيرة بسيدتنا عائشة ؓ، وإنما هيبة وإجلالاً لأمتنا الطاهرة، ويعتصرنني ألم شديد من طرق ما يتعلق به، لأنه يمس شخص الرسول الكريم ﷺ، لكن دفعني شكل هذا الهجوم السافر على عرض الطاهرة التي برأها الله من فوق سبع سماوات، للتصدي لهذه الشبهة ودحضها، وحسبي أن الله - سبحانه - لم يسند لأحد مهما كان شأنه، أمر الدفع والذب عن عرض أم المؤمنين ابتداءً، بل برأها وذكر قصتها هو بنفسه سبحانه، في كتاب خالد إلى يوم الدين.

إن عائشة ؓ تترك مقام أبيها في الإسلام، وتعلم مكانته عند رسول الله ﷺ، وأنه نزل في الثناء عليه قرآن ينطى إلى يوم الدين، بل صح عنها ؓ أنها حاولت أن تتخي أباهما عن إمامة الناس حين أمره بها رسول الله ﷺ، فإنه لما أَسْتَدَّ مَرَضُهُ ﷺ قَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ قَالَ مُرُوا أَبَا

^١ - المرجع السابق، ص ٣٨٨.

^٢ - المرجع السابق، ص ٣٢٧.

^٣ - الوحر دويبة حمراء إذا جثمت تلتزق بالأرض فيقولون منه: وحر صدر فلان، شبه فيه العرب التزاق الحقد بالصدر بالتزاق الوحر بالأرض. ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ١/١١٥.

بِكْرِ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ فَقَالَ مَرْيَ أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكَ صَوَّابٌ يَوْسُفَ فَأَتَاهُ
الرُّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

ومعلوم أن في القيام مقام رسول الله ﷺ، من المعاني الدينية والدنيوية والفخر والرفعة، ما يدعو للتباهي والتعالي لمن أراه.

فأين اليد الطولى لأم المؤمنين بهذا العمل؟ إن أحكام هذا المستشرق غير منصفة، ولم يستند فيها على دليل واحد، إنما أراد منها تشويه مسيرة عائشة رضي الله عنها، وإظهارها بمظهر نساء الغرب اللواتي فقدن الحياء والستر والعفاف، في محاولة منه لرفع سمة العار وفضائح الأديرة والكنائس التي لحقت رجال الدين ولا تتفك عنهم^(٢).

إن نولدكه قد تنكر لكل مسالك المنطق وضرورات العقل، وابتعد عن جميع أخلاق المهنة وقواعد الأدب، عندما قال: "وأنها كانت معتادة على التضحية بالحقيقة والشرف لأجل طموحها"^(٣)، ولولا أنني ارتسمت لنفسي في هذه الدراسة منهجاً يقضي بعدم الاستجابة لدواعي الاستقزاز والإثارة، لاستقصيت مظاهر الصورة النفسية التي يعيشها نولدكه ويعاني منها وهو يفكر بالإسلام ويكتب عنه من كل جوانبها.

وعائشة التي تربت في بيت النبوة، وارتشفت حلاوة الإيمان منذ نعومة أظفارها، ونهلت من مورد الوحي المتدفق حتى ارتوت، وغدت من أعلام مدرسة رسول الله ﷺ، حتى فنرت فيها الصحابة ذلك فاستفتوها واستتصحوها، وكانت محل احترامهم وتقديرهم، لا يصلح أن يتكلم في أمرها أي متكلم، ولو كان على سبيل المدح والثناء.

وما قيل بشأن الفتنة في خلافة عثمان وبعدها فهو من الظلم الذي ثبت بطلانه عند التحقيق، قال صاحب العواصم من القواصم: "وروى أن عائشة قالت غضبت لكم من السوط ولا أغضب لعثمان من السيف، استعبتتموه حتى إذا تركتموه كالفل المصفى ومصتموه موص

١ - صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ١/١٣٦.

٢ - ينظر للتوسع كتاب: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، بيروت: دار الشروق، ط ٨ - ١٩٩٣. فقد استقصى طرفاً منها. ولعل ما شهدته الكنيسة قبل أيام من أنواع الشذوذ واغتصاب الأطفال من قبل رجال الدين في أوروبا يشهد بمستوى الكارثة التي حلت بالكنيسة.

٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٨٨.

الإناء وتركّموه كالثوب المنفي من الدنس ثم قتلتموه قال مسروق: قلت لها هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج، عليه فقالت عائشة والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم سوادا في بياض، قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها^(١)

ولا يريد الباحث أن يسترسل في تعداد مناقب أمنا الطاهرة، فهذا مما لا يخفى على منصف، ولكن أنكر هنا بأن القرآن الذي برأها، وكان قوله الحق وحكمه الفصل، هو نفسه الكتاب الذي برأ مريم عليها السلام، التي يدعون أنها أم آلهتهم، إذ برأها القرآن من فرية الزنا وكف عنها شرّ الظلم والبهتان، وما زال اليهود يرمونها بيوسف النجار إلى يومنا هذا^(٢).

الفرع الرابع: ابن عباس ؓ

أما توجيه نولده الطعن لابن عباس ؓ، فإن الهدف منه نزع الثقة عن علماء الأمة، من خلال إثارة الشكوك حول رموز المسلمين وأئمتهم، فهو يقول عنه: "لم ينط به حكم البصرة إلا باعتباراه احد أقارب الخليفة الحاكم، لكنه ترك هذا المنصب.. إما حسب اتفاق سري مع معاوية.. أو ليضمن مبكراً حظوة الأسرة الصاعدة، وهنا عاش من ٣٠ إلى ٤٠ عاماً متمتعاً بإيرادات كبيرة أغدقها عليه الأمويون لقاء غدره بعائلة النبي. ويقول: لذا لا يبقى لنا إلا أن نعتبر إبراز مرجعية ابن عباس في أكثر الأحوال وهماً لا غير"^(٣).

من جهة أخرى نجده يرجع السبب الكامن وراء مكانة ابن عباس لخلل النقد عند المسلمين؛ فيقول: "لأن النقد الإسلامي... يقوم في بعضه على التحيز الشخصي، وفي بعضه الآخر على التبعية للأحزاب الدينية أو السياسية الأخرى"^(٤).

إن ابن عباس ؓ قد ثبت في فضله ومكانته وعلمه من الأخبار الصحيحة، ما يدفع عنه كل قول يثير الشكوك حول صدقه وسلامة مقصده، والسؤال الذي يطرح هنا، هل استعرض

١ - المعافري. محمد بن عبد الله بن محمد المالكي، العواصم من القواصم في تحقيق موقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، ص ٢٤٢.

٢ - للتوسع تراجع: ردّ مفتريات المبشرين على الإسلام، عبد الجليل شلبي، الرياض: مكتبة المعارف، ط ٢-١٩٨٥، ص ٥٤.

٣ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٣٨٣.

٤ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٣٨٨.

نولده جميع تراجم الرواة الذين أخبروا عن طرف من فضل ابن عباس ومكانته، ثم قام بنقدها والخروج بنتائج من هذا النوع؟ أم هو إصدار للأحكام هكذا جزافاً دون مسؤولية؟ استبعد شيئاً من الأول قد حصل.

الفرع الخامس: أبو هريرة رضي الله عنه

أثارت روايات أبي هريرة رضي الله عنه حفيظة كثير من المتشككين والطاعنين في الحديث الشريف، وفي هذا السياق يأتي قول نولده في حقه: "وليس لكلماته حق المصادقية، وقد كشف البحث المتقدم عن خداعه أكثر من مرة"^(١). فهدف نولده من تجريح أبي هريرة رضي الله عنه هو الوصول إلى التشكيك بالإسلام كله، رجاء هدمه والإتيان عليه من أصوله، وليس في أمر الجمع فحسب، ذلك أن أبا هريرة رضي الله عنه أسلم متأخراً، ثم نقل فأوعى، فهو أكثر من روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ بلغ عدد مروياته (٥٣٧٤) حديثاً.

وقد أثبت التاريخ والواقع عكس انطباعات نولده الناجمة عن توجهاته المسبقة، فأبو هريرة - كما يقول الشافعي - أحفظ من روى الحديث في دهره، فقد روى أبو الزعزعة - والي مروان بن الحكم وكتابه - (أن مروان دعا أبا هريرة، فجعل يسأله وجعلت أكتب، حتى إذا كان رأس الحول دعا به، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا آخر)^(٢)، فمن هو المؤهل لامتلاك المصادقية الحق إن فقدها أبو هريرة؟

ولقد صدق الشاعر وليد الأعظمي عندما نعته بقصيدة عنوانها: (سيدي أبا هريرة) فقال:

وعشت سعيداً بقرب النبي
ورواك ممن فيضه الأعب
ويحسبوا عليك حسنوا الأب
فلم تتأول ولم تكذب
صحيح العبارة والمطلب
وحدثت بالكلم الطيب^(٣)

حبك التسيبي بأطفه
هداك إلى صالحات الأمور
وكنت أنيراً لسدي المصطفى
وأنت الوفي لهدى النبي
وعيت (الحديث) وأذيت
حفظت لنا سنة المصطفى

١ - المرجع السابق، ص ٣١٢.

٢ - ينظر: علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١١ - ١٩٧٩، ص ٣٦١.
٣ - ينظر: دفاع عن أبي هريرة، عبد المنعم صالح العلي العزي، بيروت: دار القلم، ط ٢ - ١٩٨١، ص ٤٦١ - ٤٦٩. وينظر في الكتاب نفسه: ص ٤٧٠ قصائد الموضحة العزية لمناب أبي هريرة ومثالب أبي رية، و ص ٤٧٤ القصيدة الدوسية.

وفي رأي الباحث أن المصادقية الحقّة عند الغرب قد تلاشت منذ عهد بعيد، يوم أن تخلت الكنيسة عن الدين الحق، يظهر طرف من ذلك -على سبيل المثال- من خلال مناظرة بين فاهي وديدات قبل سنوات، حيث كشفت هذه المناظرة عن خداع الكنيسة لملايين المسيحيين دهوراً، خداعاً يشمل كل شيء حتى الأصول، ثم لتختم المناظرة بهذه النتيجة: "إذا كان هذا هو عقيدة العلماء الملتزمين بالتدقيق عن الإيمان المسيحي اليوم، فلا علينا أن نسأل عن بطش الخدعة في التاريخ"^(١).

وأما كشف البحث المتقدم، ففي هذه الحالة لا يلتفت إليه، ولا يؤبه به، لأن البحث الموضوعي أثبت خداعه باستمرار، ودل على افتقاره الشديد إلى قواعد السلامة من الآفات القاتلة التي لم يسلم منها مذ ارتبط بدراسة الإسلام ورموزه وحضارته.

إن مزاعم نولدكه تجاه أبي هريرة فوق أنها عديمة المصادقية، فهي جريمة مركبة نكراء، ليس في حق البحث العلمي فحسب، بل -أيضاً- في حق الإنسانية جمعاء.

أما عبد الله بن عمرو بن العاص فيذكر نولدكه أنه: "تميّز الأول بتقواه الغيورة والنسكية وبحفظه للحديث وقدرته على الكتابة ويقال عنه أنه وضع مجموعة أحاديث"^(٢)

لقد أخطأ نولدكه في اسمه إملائياً، فكتب (عمر) دون (الواو) ونحن في الإسلام لا نجز ذلك حتى وإن لم يغيّر شيئاً في المعنى، لأنه أحد أنواع التحريف الذي تمنعه أجديات الموضوعية وأساسيات البحث العلمي، ثم إنني متأكد أنه لا يدرك معنى التقى في الإسلام لأنه لم يعيشه مرة واحدة في حياته، ولذا فقد جمع بين صفتين متناقضتين لهذا الصحابي، أولاهما اعترف بها لإجماع المصادر عليها، والأخرى أقحمها بجانبها ليقوم بأداء واجبه على أكمل وجه، فالكنيسة تنتظر نتائج ترهاته بفارغ الصبر.

والحق أنه لا يمكن التوفيق بين قدرته على الحفظ والكتابة ووضعه لأحاديث، لأنهما أمران متناقضان، وإلا فليخبرنا نولدكه ببعض هذه الأحاديث؟ وما هي كتب التخريج قد استوعبت كل أشكال الحديث وأقسامه، فمن الذي ذكر ذلك من أهل الاختصاص؟

١ - ديدات. أحمد، من دحرج الحجر، ترجمة خليل إبراهيم أحمد، سلطنة عمان: دار المنار، ١٩٨٨، ص ٦٤.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٨١.

ثم كيف يدعي أنه وضع أحاديث، وهو الذي روي عنه أنه قال: (استأذنت النبي، صلى الله عليه وسلم في كتاب ما سمعت منه، قال فأذن لي فكتبتَه فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك الصادقة)^(١)؟ أسأل الله السلامة من اتهام أحد بغير علم.

فإلخلاصة أن كل الدلائل بهذا الخصوص تكذب نولدكه وتبطل تقريراته.

الفرع السادس: أنس بن مالك ؓ

أما ما تعرض إليه نولدكه من الطعن في أنس ؓ بقوله: "ولا يتم الاعتراض إلا على بعض منهم مثل أنس بن مالك وأبي هريرة في بعض الأحيان، لكن الاعتراض لا يتناول مضمون الأحاديث بل يخضع على الأرجح لأحكام مسبقة مثل الطبقة الاجتماعية الدنيا التي كان فيها هذان الخادمان"^(٢).

الرد:

لقد تقدم إبطال شبهته فيما يخص أبا هريرة ؓ، ويبقى ما يتعلق بأنس ؓ من طعون، فأقول:

إن هذا أيضاً من المنهج الإسقاطي الذي يتمته نولدكه باستمرار، ولا يملك العاقل إلا أن يضحك ساخراً من هذا الافتراء، لكن يتضح أن الرجل يكتب وهو يعيش مآسي الغرب الذي عانى وما يزال يعاني من آثار هذه المعضلات التي ليس لها حد، وقد غاب عن ذهن نولدكه طبيعة الأخوة الإسلامية التي تذيب الفوارق الطبقيّة وتحارب الامتيازات الاجتماعية وتزيلها، فلا يفضل فيها أحد على أحد إلا بالجدّ والعمل، كلهم متساوون في الحقوق والواجبات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ هذه هي الوسطية الإسلامية الحقيقية التي لم تذق طعمها أوروبا طوال تاريخها المرير، ولا تزال تفقدها الأنظمة الغربية الحديثة.

وغاب عنه -أيضاً- أن العمل في الإسلام محترم ما دام أنه لم يكن حراماً أو فيه إثم، بالإضافة إلى أن خدمة الرسول ﷺ تعدّ مفخرة لو تهيأت لأعرق بيوتات الصحابة ؓ حسباً، لما توانوا

^١ - الزهري. محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري، الطبقات الكبرى لابن سعد، بيروت: دار صادر، الطبعة ١ - ١٩٦٨م تحقيق: إحسان عباس، ٢/٢٣٤.

^٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٤٨.

لحظة عن قبولها والانخراط فيها، ويكفي أنس فخراً أنه رَضِيَ دعا له بقوله: (اللَّهُمَّ اكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَتَبَارَكَ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ)^(١).

فماذا يقول نولدكه؟ وأين الاعتراض المزعوم؟ ولمّ التجهيل عن طريق التعميم الذي يجب أن يتجنبه الباحث عن الحقيقة والملتمس للحق، ولكن يبدو أن نولدكه خرج منهما صفراً، فقد تمادى في التغليب والتخريف عندما استباح أعراض الصحابة بالطعن والتلفيق والتزوير، ثم ترك الأمر ملغزاً دون حجة أو برهان.

وعلى كل، فإن شهادته باطلة وأقواله مردودة، لأنه لم يستطع أن يأتي بشبهة دليل على شيء مما قاله والحمد لله رب العالمين.

^١ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أنس بن مالك، رقم: (٦٥٢٧) ١٥٩/٧.

المطلب الثالث: دعوى نولدكه في خرافة جمع القرآن الكريم وتحريفه

ينطلق نولدكه في تناوله لوقائع جمع القرآن الكريم من قاعدة المبدأ الأسطوري الخرافي، فيرى أن القول بترتيب آيات القرآن وسوره التوقيفي اعتقاد خرافي، كما أنه يرد خبر: (أن الرسول ﷺ حدد موضع كل آية)، بقوله: "أما الرواية القائلة بأن محمداً حدد لكل آية، فوراً بعد نزولها مكانها المحدد، فلا تتمتع بسند تاريخي، حتى لو كان قد قام أحياناً ببعض الإضافات إلى سور معينة. هذه الرواية نشأت بالأحرى عن الاعتقاد الخرافي بأن الترتيب الحالي للقرآن، لآياته وسوره على حد سواء، إنما هو ترتيب ذو أصل سماوي فعلاً، وأن محمداً نفسه قد نسخه بدقة"^(١). يستبعد نولدكه قيام أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن، ويفسر نسبه إليه بما يشبه الخيال، أو الخرافات والأساطير، ويرى أن أول جامع للقرآن هو عمر، الذي قتل ولم يتمه هو الآخر، يقول: "إن النظرة إلى اشتراك أبي بكر مربوطة باشتراك سلفه الحقيقي أو المفترض في العمل. إذا كان عمر هو أشجع الخلفاء، فإن أفضلية أبي بكر في أنه كان من أول المؤمنين ومن أقرب المقربين لمحمد. لهذا لا بد أن يكون بدا لكثيرين مستغرباً ألا يكون إنسان كهذا قد عمل على جمع القرآن.

وربما تحولت هذه الرغبة التقوية تدريجياً إلى تصريح تاريخي"^(٢). نجده يصف إرهابات بعثته رضي الله عنه، ومعجزاته بقوله: "كما ينطبق هذا خاصة على بعض الأحاديث التي تتناول طفولة محمد وبدايات نشاطه النبوي، أذكر هنا بخرافات غسل قلب محمد، وانفلاق القمر، وكذلك ظروف نزول سورة المدثر"^(٣).

الرد:

لعل زوبعة التنوير المسيحي التي اجتاحت أوروبا في القرنين الذين واكب المؤلف بعض أحداثهما، قد خلف لديه شعوراً أكيداً بخرافة تعاليم الدين وأسطوريتها، لأنه لا يمكن لأستاذ عمل على نقد الكتاب المقدس زمناً طويلاً مثل نولدكه - كما خبرته وعاشت طرفاً من تاريخه في هذه الدراسة المتواضعة - أقول لا يمكن لمثله، أن تنفذ إلى قناعاته مسائل مذهبية عويصة، كالانبتاق

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٤٢.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٥.

٣ - المرجع السابق، ص ٣٨٠.

المزدوج لروح القدس، أو تافهة، كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس، حتى وإن أحجم لأمر ما عن إعلان قناعاته بذلك.

لذا فهو يلجأ دائما لإسقاط واقع الكتاب المقدس على القرآن الكريم، على حد قول المثل: (رمتي بدائها وانسلت)^(١)، فمرة يفسر أحداثه تفسيراً خرافياً، ويجعل لها وجهاً أسطورياً منه نشأت وفيه نمت، كما فعل هنا، ومرة يرمي الصحابة والتاريخ الإسلامي بالخرافة والسذاجة كما وقع في غير ما موضع حتى أصبح هذا المسلك منهجاً له واتبعه فيه أغلب المستشرقين حينما اعتقدوا أن المنهج الذي تم تطبيقه على الكتاب المقدس يمكن تطبيقه هنا، وأن الأسلوب المستخدم في تقديمهما يجدي في نقد القرآن الكريم، وهو خطأ فادح ارتكبه حين اعتقدوا صحة ذلك^(٢).

إن الحقيقة التي لا تقبل الشك، أنه ليست ثمت خرافات في الإسلام، لأنه دين يتلاءم مع حاجات البشر، فالعقل لا يرفضه بل يحتاجه ليستدير به، والقلب لا ينفر منه، بل يطمئن إليه ويرتضيه، وهذه ملاحظات حول أفكار تولدكه هنا:

الفرع الأول: إرهاصات بعثته ﷺ

إن قصة غسل قلب الرسول ﷺ ثابتة، فقد صح عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ (أتاه جبريل عليه السلام وهو ينعب مع الغلمان، فأخذته فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم نام ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظنره فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره)^(٣).

١ - هذا المثل لإحدى ضرائر رهم بنت الخزرج، امرأة سعد بن زيد مناة، رمتها رهم بعيب كان فيها، فقالت الضرة: رمتي بدائها... المثل، ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ١/ ١٢٥.

٢ - ينظر: آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، محمد خليفة حسن، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١ - ١٩٩٧، ص ١٧.

٣ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (٤٣١) ١/ ١٠١.

ومثلها - أيضاً - قصة انفلاق القمر، فعن عبد الله بن مسعود قال: (بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمبى، إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل وقلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ اشهدوا)^(١).

وكذلك ظروف نزول سورة المدثر التي منها: أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بجراة جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعيت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿٤﴾ وَالرِّجْزَ فَاصْبِرْ ﴿٥﴾﴾ المدثر: (١ - ٥)^(٢).

وما دام أن الروايات صحيحة فهي من الإسلام، لذا فإن مضامينها سليمة وخالية من الخرافات كالإسلام تماماً، والإسلام دين يخاطب العقل فيقبله ويرتضيه، ويلامس الفطرة والنفس، فتوافقه وتستريح إليه.

الفرع الثاني: دعوى الخرافة في الجمع

لا يقف الأمر بنولده عند الطعن في الإرهاسات أو المعجزات أو السيبات، بل يوجه سهام مطاعنه لشمس سائر جوانب الإسلام ورموزه، فنجد - مثلاً - يقول في حق زيد ﷺ: "حتى لو كنا لا نعرف بالضبط أية أفكار دينية أو خرافية خامرت المحرر"^(٣).

إن الإسلام الذي ينتمي إليه المحرر ﷺ، لا يحتاج المرء للاستدلال على واقعيته، أو على نقائه وخلوه من الأساطير والخرافات كبير عناء وعظيم مشقة، وإن نظرة سريعة لواقع التفكير الإسلامي في العصر الحاضر، حيث التقدم (التكنولوجي)^(٤) الإنساني الهائل، ليغني عن

١ - صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، رقم (٧٢٥٠) ١٣٢/٨.

٢ - صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ٧/١.

٣ - نولده، تاريخ القرآن، ص ٢٩٨.

٤ - حيث أتاحت وسائل المعرفة المتخصصة والأجهزة المتنوعة للعلماء معرفة المزايا الدقيقة للطبيعة والكون، وبالتالي الوصول إلى درجة متقدمة من الصدق في الأبحاث والنتائج، ولما قورنت هذه النتائج مع مضامين القرآن الكريم تأكدت ربانية القرآن وسلامته من التحريف والتزوير، وهو من الإعجاز العلمي له، وما كتب موريس بوكاي: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) بعيداً.

استحضار أسفار لا تكاد تحصى، كلها تشهد بنصاعة هذا الدين، وصلاحه لإنقاذ البشرية بأكملها، وعلى امتداد تاريخها الطويل، وأنه بمثابة الروح للإنسان، وضياعه من أكبر الخسران، ولولا الخشية من أن تنحو هذه الدراسة سبيلاً آخر ينعطف بها عما خطط لها، لتناول البحث نماذج هائلة من ذلك، ومن أراده فليطلبه في مظانه^(١).

وبالإضافة لكل هذا؛ فإن العامل الأهم الذي حاول إقصاء سمة العقل كجانب ذي أثر كبير في الفكر الإسلامي هو الجهد الاستشراقي بعمومه، إذ مارس في لحظات مجده خلال القرنين السابقين عملية واسعة لإحياء الأساطير القديمة التي لا تمت للإسلام بصلة، ثم العمل على إلصاقها به على أمل تطويرها وإعطاء فكرة للقارئ الغربي عن مدى جديتها وصدقها^(٢).

كما أن نظرة مقارنة سريعة -أيضاً- بين الإسلام وغيره من الشرائع ذات الجذب الجماهيري الكثيف، ستكشف لنا بوضوح عن مساحات واسعة من العجائب الخرافية، والأساطير المتأصلة لدى هذه الشرائع، يضيق عن حصرها المقام، حتى عرف عن الكنيسة أنها ابتعدت عن الثقافة، وانغمست في الخرافات التي تمكنت من عقول المجتمعات الأوروبية بأكملها، ولذا فهي تلعن كل من يحاول أن يقتنع أو يقبل تفسيراً علمياً لحوادث الطبيعة، وتعد مثل هذا باباً من عقاب الله أو من الشيطان^(٣)، وسأذكر نزراً من هذه الخرافات والتناقضات التي يعج بها الكتاب المقدس على سبيل التمثيل لا الحصر، منها:

ما ورد في العهد القديم، (أن حزقيال رأى عند أحد الأنهار حيواناً له ٤ أجنحة و ٤

أوجه)^(٤).

و فيه -أيضاً- (أن للأرض ٤ زوايا)^(٥). وهذا مما يتعارض مع بديهيات العلم الحديث، لأن الأرض غير مسطحة لكي تكون لها زوايا.

١ - للتوسع ينظر مثلاً كتاب: الإسلام مستقبل أوروبا، ياسر حسين. وكتاب: علماء الغرب ومفكره، ما الذي وجدوه في الإسلام والقرآن، أحمد عزت بساتة. وغيرهما. ففيهما أدلة واضحة على أن الإسلام دين العلم والعقل والفطرة، وأن متقني العالم يقبلون عليه كل يوم.

٢ - ينظر: الحوار الخفي، الدين الإسلامي في كليات اللاهوت، محمد الحسيني إسماعيل، القاهرة: دار وهبة، بدون تاريخ، ص ١٥ فما فوق. وأثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، محمد خليفة حسن، ص ٩٥ فما بعدها.

٣ - ينظر: شمس الله تسطع على الغرب، زيفريد هونكه، ص ٣٧٠.

٤ - الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر حزقيال، الإصحاح: ١/٤-١٠.

وأما العهد الجديد، فإنه اشتمل على كثير من العجائب الخرافية، لعل أهمها وأخطرها ما ذكر فيه من أن يسوع هو إله، أو ابن الله^(١)، وأين هذا من قول القرآن الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الزخرف: ٥٩.

أما ما يتعلق بالمتناقضات، فقد ورد في التوراة، أن الله خلق النور في اليوم الأول من أيام التكوين^(٢). ثم يذكر في موضع آخر أن النور خلق في اليوم الرابع^(٣). ونص السفر نفسه على أن الله تعب عندما خلق الكون، واستراح في اليوم السابع^(٤). وفي سفر أشعيا أن الرب لا يكسل ولا يعيب^(٥).

وأما الأناجيل فمن تناقضاتها: أن إنجيل متى ذكر أن المسيح الذي قال عن يوحنا المعمدان: إنه إيليا^(٦)، لكن في إنجيل يوحنا أن يوحنا المعمدان أنكر أن يكون هو إيليا^(٧). وفي إنجيل متى أن يوحنا لا يأكل ولا يشرب^(٨)، لكن في إنجيل مرقس أن يوحنا يأكل جراداً وعسلأ برياً^(٩).

تلك المتناقضات - وغيرها - هي أدلة دامغة على تلاعب الناس بتلك الكتب، وهي شاهدة على أنها ليست من عند الله، كما أنها تكشف عن البواعث الحقيقية التي حدث بنولده كي يطلق أحكامه على القرآن، ذلك أنه ملتزم بمبدأ الإسقاط الذي يجري منه مجرى الدم، وهو يعلم أن لا وجود لها في القرآن الكريم، ولا لأمثالها، بل إنه لا مجال للمقارنة بينهما أصلاً، لكن نولدكه

١ - المرجع السابق، سفر حزقيال، الإصحاح: ٢/٧.

٢ - ينظر مثلاً: متى، الإصحاح: ١٨/١، و يوحنا، الإصحاح: ١٨/١٢-١٣.

٣ - العهد القديم، سفر التكوين الإصحاح: ١/٣-٥.

٤ - المرجع السابق، الإصحاح: ١/١٤.

٥ - المرجع السابق، الإصحاح: ٢/٣-٢.

٦ - المرجع السابق، سفر أشعيا، الإصحاح: ٤٠/٢٨.

٧ - العهد الجديد، متى، الإصحاح: ١١/١٤.

٨ - المرجع السابق، يوحنا الإصحاح: ١/١٩.

٩ - المرجع السابق، متى، الإصحاح: ١١/١٨.

١٠ - المرجع السابق، مرقس، الإصحاح: ١/٦.

يُغمض عينيه عن ذلك ولا يبالي بما يرمي به القرآن من أباطيل، حتى بدا كمن يبصر القشة في عيون الآخرين، ويتعامى عن الأشواك والأخشاب التي تمتلئ بها عيناه.

الفرع الثالث: الغموض والشك

وأما دعوى نولدكه بأن الغموض والشك يعتريان وقائع جمع القرآن الذي لم يقصدوه أصلاً، بل كان محض الصدفة كما قال: "ولعل إسقاط هذه السور فسي القائمتين من قبيل المصادفة ولم يكن مقصوداً"^١.

ويقول: "إن الصورة التي نملكها عن وضع تدوينات القرآن بعد موت محمد شديدة الغموض. إضافة إلى كون هذه التدوينات مبعثرة وغير منظمة"^٢.

إن الرجل يتعامل مع القرآن وكأنه يحل شيفرة غير مفهومة ليخرج في النهاية بقرآن جديد، فزعمه هذا ادعاء باطل لا يستقيم، لأن عمل الجمع لم يتم بطريقة عفوية أو صدفة، ودون نظر أو تخطيط، وإنما الذي حدث هو عمل علمي جماعي، تم بإجماع المسلمين واتفاقهم، في ظروف واضحة للغاية، وبطريقة علمية وموضوعية ودقيقة ومنضبطة، على أيدي جماعة مؤمنة مخلصه تقية متخصصة، مارست عملها في ظروف سياسية واجتماعية وفكرية عادية للغاية، في ظل خلافة راشدة ممثلة للأمة ومُتحدة معها، وقبل كل شيء منحسوا فيها رعاية وتوفيقاً فائقين، لأن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه، وأخبرنا أنه لا يأتيه الباطل أبداً، فعملية تتم بتلك الطريقة وفي تلك الظروف، لا يمكن أن يدخلها نقص أو خلل، أو أن يشوبها غموض أو شك.

وإذا كان القرآن، محاطاً بكل هذه المتلازمات المعلومة ضرورة من تاريخه، فإن من التلبس والتزوير غير المتماهي، أن يقول نولدكه:

"بحسب ما يفيدنا به كتاب القرن الرابع للهجرة، يطال التحريف حوالي خمسمائة موضع قرآني، ولا أعلم إذا كان عدد المواضع التي أمكننا التعرف عليها يقارب هذا العدد... نجد أولاً معلومات عن ثغرات في مصحف عثمان، نصها مجهول أو على الأقل لم يبلغ. من بين السور التي كان طولها في الأصل يفوق بكثير طولها الحالي، يقال إن سورة النور ٢٤ كانت تضم ما

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٧٢.

^٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٦.

يزيد على ١٠٠ آية، وتعمل مصادر سنية الخيال الذي كانت عليه سورة الأحزاب ٣٣. ويقال إن اسماً معيناً كان موجوداً مكان لفظ فلاناً في سورة الفرقان^(١).

فهذه الفكرة بدعة شيعية، لا تستند إلى حجة وبيان، ولم يؤيدها عقل وتاريخ، اخترعها غلاتهم لإثبات ضلالاتهم، ولتسويغ ترهاتهم في أصول اعتقادهم، ونولده على علم بمقاصدهم، وقد ردّ هو خرافاتهم أكثر من مرة^(٢)، عندما وقعت له مآرب في ردها، ويمكن إرجاع هذه الاقتراءات ضمن بوتقة سائر الشبه التي لم تصح لديه، كما قال هو في معرض إبطاله لما روي من أن سورة البينة كانت قد تضمنت أسماء سبعين رجلاً من قريش بقوله: "وليس في هذا القول ذرة من الصحة، فمن المستحيل أن يكون قد ورد في ذهن محمد، الذي كان يتجنب ذكر أسماء في القرآن، أن يذكر سبعين شخصاً دفعة واحدة"^(٣).

وقد أحسن الباقلاني في ردّ هذه الطعون وفضحها، يقول ناقلاً أكاذيب الروافض التي تمسك بها المستشرقون: "وزعم قوم من الرافضة، أن القرآن قد بُدّلَ وغيّرَ وخولف بين نظمه وترتيبه، وأحيل عما أنزل إليه، وقرئ على وجه غير ثابت عن الرسول، وأنه قد زيد فيه ونقص منه، وقال بعضهم: قد نقص منه ولم يزد فيه... وأنا لا ندرى لعل الذي بين أيدينا من القرآن أقل من عشر ما أنزله الله تبارك وتعالى"^(٤)، ثم جعل يرد بعدد من الأدلة تقتصر منها على أنه نقل إلينا بطريق التواتر الذي يفيد اليقين والقطع في التلقي، "وقد علم أن التشاجر والتراسل واتفاق الكذب متعذر ممتنع على مثلهم، فوجب لذلك العلم بصحة ما نقلوه، وسقوط كل رواية جاءت من جهة الأحاد بخلاف ذلك عن بعض الصحابة والتابعين، وما يجوز أن يروى من ذلك ويفتعل ويُكذّب في المستقبل، لأن نقل ما ذكرناه أوجب لنا علم الضرورة بصحة ما

١ - المرجع السابق، ص ٣٢٤.

٢ - ينظر كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، حيث استعرض المؤلف المزاعم المذكورة حول جمع علي عليه السلام للقرآن واستقلاله بمصحف خاص، ثم قال: "لا شيء من الصحة في هذا كله. فمصادر هذه الأخبار تفاسير قرآنية شيعية، وكتب تاريخية سنية ذات أثر شيعي مشكوك بأمرها، ذلك أن كل ما يرويه الشيعة عن وليي شيعتهم الأعلى، غير موضوعي ومنحاز بجملته... الخ" ص ٢٤٣ و ٢٤٤. وفي معرض تفنيد نولدكه لسورة النور المدعاة يحذ نقد هذه السورة من نواحي قاموسية وأسلوبية ومضمونية، فيبدأ بتحليل ألفاظها وعباراتها مقارناً إياها بما في القرآن الكريم، ليقرر أخيراً بأنه توصل إلى دليل قاطع على أنها وضع شيعي كما سبق لكاظم بخ أن اكتشفه. ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه، ص ٣٣١ - ٣٣٦.

٣ - المرجع السابق، ص ٣٢٥.

٤ - الباقلاني. أبو بكر، الانتصار للقرآن، ١/٦٧.

نقلوه، وانتفاء السهو والإغفال والكذب والافتعال عنهم لما هم عليه من كثرة العدد واختلاف
الطباع والأسباب والهمم^(١).

لكن ما معنى تفرد علماء القرن الرابع للهجرة، بإثبات ذلك دون سواهم؟ ويا هل ترى ما
رأي علماء القرون السابقة واللاحقة لهذا القرن، ومن هؤلاء العلماء المقصودون بذلك؟ أغلب
ظني أن الأمر لا يتعدى أن يكون (جعجة بلا طحن)^(٢)، وإلا ما يمنع تولدك من ذكر أسمائهم
إن وجدوا؟ وههنا مسألتان:

المسألة الأولى: لفظ فلاناً في سورة الفرقان

يقول تولدك: "ويقال إن اسماً معيناً كان موجوداً مكان لفظ فلاناً في سورة الفرقان"^(٣),

الرد:

هذا التجني يرده الإجماع والنقل المتواتر، وما هو معلوم ومشهور لدى المسلمين قاطبة
أن القرآن لم يقرأ بلفظ اسم شخص، ثم نسأل تولدك؛ من هو الشخص المذكور؟ ومن قرأ به أو
استحل وضع حرف واحد مكان كلمة فلاناً؟ إذن لاختفى رونق القرآن وأسلوبه وموسيقاه،
فسبحان الله الذي أبى لكتابه إلا التمام والحفظ، إذ بفضلته وإرادته سبحانه وقي من كل ما أصاب
الكتب السابقة من تزوير وعبث وتحريف.

المسألة الثانية: اللطف مع زيد والعنف مع أبي لهب

يقول تولدك: "فبحسب معرفتنا للظروف التي سادت آنذاك، لم يكن الابن المتبني المطيع
يستحق التفاتة لطيفة إلى هذا الحد، ولا العم الكافر وصماً عنيفاً كهذا. هكذا يجوز لنا أن نعتبر
اسم زيد في ذلك الموضع (سورة الأحزاب ٣٣: ٣٧) هامشاً تفسيريًا قديماً"^(٤)

١- الباقلائي. أبو بكر، الانتصار للقرآن، ٩٤/١-٩٥.

٢- أصله: مثل عربي، يضرب لمن يعد ولا يفي، يقال: (جعجة ولا أرى طحناً) ينظر: مجمع الأمثال، أحمد
بن محمد النيسابوري الميداني، ٦٩/١.

٣- تولدك، تاريخ القرآن، ص ٣٢٤.

٤- المرجع السابق، ص ٣١٩.

ويدعي نولدكه أن الأسماء الموجودة في القرآن ملفقة، وما ذكر في القرآن من أسماء يفسره وضع النص غير الجاهز الذي تركه النبي، أو حصول تسرب هوامش تفسيرية قديمة إلى النص، لأن زياداً المذكور في القرآن لا يستحق كل هذا اللطف، ولا العم الكافر يستحق كل هذا التعنيف.

ثم يذهب إلى أن اسم زيد قد تسرب من جهة هامش تفسيري، لأن الإشارة إليه جاءت بواسطة لفظ الموصولية، ولا يحبذ بعدها ورود اسم الشخص المشار إليه. وأما عبد العزى فليس هو المقصود بأبي لهب مهما كانت الرواية بهذا الخصوص واضحة.

الرد

تقدم ما يكفي للرد على نولدكه حول دعوى تسرب شيء للقرآن الكريم زيادة أو نقصاً، وأكتفي بالإشارة بهذا الخصوص إلى أن القرآن يختلف اختلافاً كبيراً عن الكتاب المقدس وشروح كتب أهل الكتاب التي اختلط فيها الحابل بالنابل^(١)، حتى لم يعد يصح أن ينسب منها شيء لله تعالى، فهو قد توفر له من العناية والاحتياط في النقل ما يضمن له السلامة من كل ما أصاب هذه الكتب.

لكن المدهش والغريب ذلك الحنق الذي جعل نولدكه يكاد يتميز من الغيظ بسبب تعنيف القرآن لأبي لهب، فيا ترى ما السر الذي أثار حفيظة الرجل حتى بلغ به الأمر أن ينكر ما ورد بهذا السياق قرآناً أم سنة؟ لعلي أكون مضطراً لاستنتاج جواب بسيط جداً وساذج ساذجة قول نولدكه، فأقول: إذا ما عرف تاريخ الشبهات واتصالها الوثيق، تبين أن أصلها يعود للمشركين الأولين ومنهم أبو لهب، وقد استجدى المستشرقون بعض هذه الشبهات وطوروها وأضافوا إليها زيادات، فالفضل للأولين على اللاحقين، ونولدكه لم ينس فضل هذا المشرك، فأشفق عليه مما أصابه من العذاب والهلاك.

أقول لعلي مضطراً للقول بمثل هذا الاحتمال، لأنه كان يتوجب على نولدكه أن لا يصدر الأحكام هكذا دون برهان، فمن أين استدل على أن أبا لهب لا يستأهل كل هذا التعنيف؟ ولماذا

١ - اختلط الحابل بالنابل، مثل عربي يضرب لمن اختلط رأيه ووقع في الخطأ، والحابل: الذي يصيد الوحش بالحبال، والنابل: الذي يصديها بالنبل، ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق: إحسان عباس، لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧١، ص ٤٢١.

استشاط غضباً من نظرة اللطف لزيد؟ بل كيف عرف أن زيدا لا يستحق هذا اللطف؟ أما علم أن الله يحب أوليائه حتى يكون سمعهم وبصرهم، وإذا أتوه بمشون أقبل إليهم يهروا^(١)؟ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء: ٥٤ أم يريد أن يصل في النهاية إلى ما قرره سابقاً أن القرآن قد زيد فيه وأنقص منه؟ لقد أفادت التفسير والأخبار أن هذا الجزاء كان لقاء اعتدائه وموقفه المتكرر من النبي ﷺ ودعوته، وهو مناسب تماماً لفعلة ذكر ابن كثير "عن ابن عباس (أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه" فاجتمعت إليه قريش فقال: "أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟" - قالوا: نعم، قال: - فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب: ألهذا جمعنا؟ تباً لك فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ المسد: ١ إلى آخرها^(٢) وذكر أيضاً أنه كان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والازدراء به والتقصص له ولدينه. قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهلياً فأسلم قال: (رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين^(٣)) يقول: إنه صابيء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب^(٤)، فهل تصح الشفقة على من هذا شأنه مع نبي من أنبياء الله عليهم السلام؟

- ١ - ينظر أصل هذا في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح إسناده قوي، كتاب البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها.
- ٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة المسد، ١٧٩/٦.
- ٣ - الغديرتان: الذؤابتان اللتان تسقطان على الصنبر، لسان العرب، لابن منظور ٢٣/١٠.
- ٤ - ينظر: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ٥٨٦/٤. والحديث رواه أحمد في مسنده، ٣٤٢/٣١ برقم: (١٩٠٠٤). وعلق شعيب الأرنؤوط عليه بقوله: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن. ينظر تعليقه على الحديث في الموضع نفسه من المسند.

الفرع الرابع: سورة النورين المدعاة

يبقى في هذا السياق ملحوظة يحسن الابتداء بها هنا، وهي أن المؤلف قام بتفنيد مزاعم غلاة الشيعة حول وجود سورة تدعى النورين، وتفنيد هذه السورة المفتراة من حيث المضمون صحيح، يتفق مع الحقيقة التاريخية إلى حد ما، فهو يقول: "بهذا نحصل على دليل قاطع بأن سورة النورين هي وضع شيعي"^(١).

لكن هذا لا يكفي، وكان حرياً به أن ينقض أساس هذه السورة المفتراة، لأنها تفتقر إلى سند تقوم عليه، فلم يكن لها وجود في عصر الصحابة، بدليل أن أحداً من الصحابة لم يذكر ذلك، وقد تولى علي عليه السلام الخلافة، وكان شجاعاً وصداعاً بالحق، ولم يقل لأحد أن هناك سورة من القرآن اسمها (سورة النورين) وتخص أهل البيت، ولكن الحق أن المستشرقين لا يعرفون هذا النوع من العلم، نظراً لعدم وجوده لديهم، ويتشبثون بدراسة المضمون فحسب، رجاء تحقيق أكبر عدد من أهدافهم، وبهذا الميزان قاسوا القرآن الكريم.

الفرع الخامس: دعوى تحريف سورة الأحزاب

يقول نولدكه: "وتعمل مصادر سنوية الخيال الذي كانت عليه سورة الأحزاب ٣٣٣".

فهذا فوق ما هو اتهام للصحابة عليه السلام بالعبث في المصحف، فهو أيضاً - يعوزه الدليل والبرهان، وينقصه الحجة والبيان، لأن الرواية الواردة عن عائشة رضي الله عنها بهذا الشأن، لا تصح إسناداً ولا تستقيم متناً، ومفادها أن عائشة - عليها السلام - قالت: (كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتبت المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي عليه الآن)^(٢).

فأما إسنادها فقد ذكره القرطبي عن أبي بكر الأنباري، قال: وقد حدثنا ابن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة..^(٣)

وابن لهيعة ضعيف^(٤).

١- نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٣٥.

٢- المرجع السابق، ص ٣٢٤.

٣- أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص ١٤٦.

٤- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله القرطبي، ج ١٤ ص ١٠.

وليس في هذا الخبر تصريح بالسماع، ففيه عننة ابن أبي مريم، وابن لهيعة، وأبي الأسود، كما أنه قد رواها القاسم بن سلام، وأبو بكر بن الأنباري بسند ضعيف^(١).

فضلاً عن أن هذا الخبر مضطرب، لأنه روي عن زر بن حبيش: قال لي أبي بن كعب: (كأين تعد سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وسبعين آية أو ثلاث وسبعين آية، قال: إن كانت لتعدل سورة البقرة، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم. قلت: وما آية الرجم قال: إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)^(٢).

وعدد آيات سورة البقرة ٢٨٦ آية لا ٢٠٠، فالفرق بينهما كبير، إلا إن افترضنا أن آياتها أطول من آيات سورة البقرة، وعلى كل فتوجيه هذه الأخبار فيه تكلف.

وأما متنها فهو مُنكر، لأنه يعارض القطعي، ولأنه إذا كان المقصود من تلك الرواية أن سورة الأحزاب سقط منها أكثر من النصف بسبب النسخ، فإن النسخ لا يصح إلا في زمن النبي -ﷺ وبأمر منه، ولا يصح أن يقال: إنها أسقطت زمن عثمان ؓ، عندما كتب المصاحف، كما أفادت الرواية^(٣).

إن خلو القرآن من الزيادة والنقص والتحريف لا يشك ولا يرتاب فيه مسلم حتى لو لم يكن يشده المنزع الديني كثيراً، بل كلهم يعترفون أن القرآن هو الوثيقة الوحيدة اليوم التي تستحق النسبة إلى الله تعالى، ولكن نولدكه يأبى إلا أن يذهب هذا المذهب، فقد نقل عنه مثل هذا أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية^(٤).

١ - الذهبي. الكاشف، دار القبلة للثقافة الإسلامية، حققه محمد عوامة، الطبعة الأولى، مؤسسة علو - جدة، ١٤١٣ - ١٩٩٢، ١/ ٥٩٠.

٢ - ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ٣٣١١/٩.

٣ - السيوطي. جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ٣ / ٧١. وإسناده ضعيف، لأن عاصم بن نقة له أوهام بسبب سوء حفظه، فلا يحتمل تفرده بمثل هذا المتن. ينظر: كلام محقق الإتيان حوله في حاشية الصفحة نفسها.

٤ - ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن عميرة، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٤م، ٤ / ٣٦٩.

٥ - عباس. فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ٢١٣.

الفرع السادس: البسمة وسورة براءة

يقول نولدكه: "ولا يستحق الذكر من بين الدوافع المختلفة التي اخترعوها لذلك إلا دافع واحد لا غير. وهو أن صحابة محمد لم يستطيعوا الاتفاق على ضم سورتي الأنفال ٨ والتوبة ٩ إلى سورة واحدة. فكان الحل الذي توصلوا إليه أن يدعوا بين السورتين فراغاً... لكن نأرجح الصحابة المزعوم هذا صعب التصديق... من جهة أخرى تبدو لي المعلومات التي يزودنا بها محررو النص للتخلص من حيرتهم مغالية في الغموض والتصنع.

فيقدر أكبر من البساطة والبدئية يمكننا إرجاع الأمر إلى الصدفة التي أدت إلى حذف البسمة... وذلك نتيجة سهو أثناء الكتابة، أو بسبب اختفائها نتيجة تضرر خارجي من دون أن يجرأ اللاحقون على إجراء تعديل على الوضع الذي نقل فيه النص. ومن المعروف أن كثيراً من الغرائب الموجودة في نص العهد القديم، إنما تعود لظروف مماثلة"^١

الرد

يدعو موقف نولدكه من البسمة أول السور للعجب والاستغراب، فنجد هنا يناقش هذا الأمر على طريقة الرد والأخذ الخرافي الذي دأب الكتاب في الغرب يتوسعون فيه لمعرفة الترتيبات الاجتماعية لدى العصور البدائية القديمة، وهو ما تكرر في هذا الكتاب باستمرار، فالتعليقات الملقاة هنا تتعلق بقوله: " لكن نأرجح الصحابة المزعوم هذا صعب التصديق" فبالإضافة إلى أنه نأرجح فهو لم يصدق، كما أن المعلومات ذاتها التي مصدرها الرواية فيها اصطناع ومغالاة في الغموض، وهو فوق هذا كله، طعن صريح في الصحابة وجماع القرآن الذين كانوا بحسب تفكير نولدكه- يعبثون فيما أتمنوا عليه، ويهملون ما أمروا بالانتباه إليه، فلا أدري أي سفاهة في التفكير هبطت بالإنسان إلى مستوى تجعله ينظر إلى الأمور بمראה مقلوبة حيث يظهر الأعلى في الأسفل، والصغير كبيراً أو العكس؟ إذ لا يعقل مطلقاً أن تتفق هذه الأمة -التي أحببت هذا الكتاب وقُدّسته- على مثل هذا العمل المفترى دون أن يقوم من ينكر ذلك، مع أن الصدق والأمانة في الأداء والدقة في النقل كانت السمة البارزة لهم، حتى إنهم اشترطوا لجمعه موافقة المحفوظ في الصدور لما هو مكتوب عندهم في السطور، بل إن مجرد براءة عن البسمة لهو أحد مظاهر نزاهة الصحابة وسلامة القرآن، إذ أنهم لم يجرؤوا فعلاً على

^١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣١٠ - ٣١١.

سحب ما انطبق على ١١٣ سورة على سورة واحدة، وفي أمر مختلف فيه بين العلماء فيما بعد، هل البسمة من القرآن أم لا؟

ويُظهر قوله: "وهو أن صحابة محمد لم يستطيعوا الاتفاق.." أن هناك خصومة واختلافاً شديدين حول وضع البسمة أول براءة أو تجريدها منها، ثم استقرّ بهم الأمر على الثاني منهما، ولكن شيئاً من هذا لم يدلّ عليه دليل، فهلا جاد قلم نولدكه بشبهة برهان يثبت مثل هذا؟ ولو تقبل الدعاوى بغير دليل، لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، إن هذا الموضوع أيضاً يضم إلى تخبطات نولدكه واقتراءاته الكثيرة على القرآن والإسلام؟

أما قوله: "بسبب اختلافها نتيجة تضرر خارجي من دون أن يجرأ اللاحقون على إجراء تعديل على الوضع الذي نقل فيه النص"، فإن المتتبع لأحكام نولدكه الكثيرة سيخرج حتماً بنتيجة مفادها أنه يعلم علم اليقين أن لا أحد يجرأ على إجراء تعديل يذكر في شكل القرآن الكريم مهما كان، وإلا فليم لم يجرأ اللاحقون على تغيير شيء يحتاج لعمل ما؟ ولكنه كعادته كثير التناقضات والاضطرابات، فتجده يتخير هنا ما يرفضه هناك أو العكس، فأين الموضوعية المدعاة للأستاذ شيخ المستشرقين؟ إن الحق الذي يجب أن يقرّ به هنا بأنه لم يجر تعديل على أي موضع في القرآن، إلا ما كان بأمر الله تعالى وفي حياة النبي ﷺ، لا من قبل اللاحقين ولا السابقين، وكما طالعنا حال القرآن في التمهيد وما بعده، فإن بقطة كتبة الوحي وعناية الصحابة ﷺ ومن بعدهم بهذا الكتاب العظيم تجعل من قول نولدكه: "يمكننا إرجاع الأمر إلى الصدفة التي أدت إلى حذف البسمة... وذلك نتيجة سهو أثناء الكتابة، أو بسبب اختلافها نتيجة تضرر خارجي"^(١) تجعل منه أمراً في غاية الاستحالة والحصول، وهو شهادة زور وبهتان لا تغتفر، وما كُزّر في أكثر من موضع من هذه الدراسة من مظاهر كمال الضبط والإتقان والعناية والرعاية التي أحيط بها القرآن يكذب هذا الإدعاء ويبطله^(٢).

وقوله نولدكه: "ومن المعروف أن كثيراً من الغرائب الموجودة في نص العهد القديم، إنما تعود لظروف مماثلة"^(٣) لا تطيل الدراسة مناقشته في ذلك، فقد تقدم ما يكفي لرده، بيد أن ما

^١ - المرجع السابق، ص ٣١٠.

^٢ - للتوسع ينظر كتاب: دفاع عن القرآن، عبد الرحمن بدوي، ص ١٠٧-١٠٨. فقد فندّ زعم كل من نولدكه وشفالي حول أصل البسمة، كما أنه أشار إلى مواطن تغليطهما وخذاعهما للقارئ في هذا الأمر.

^٣ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣١٠ - ٣١١.

يحتاج للإشارة -هنا- هو أن المستشرقين يجمعون على أن أصل القرآن هو اليهودية أو النصرانية، وهذا يدين نولدكه في جميع كتابه الذي لا يكاد يخلو قسم من أقسامه من شيء من ذلك، وهو يعلم أن غرائب في نصوص الكتاب المقدس غير موجودة البتة في القرآن، وأن الظروف التي تعرض لها الكتاب المقدس طوال تاريخه الموسوم بالعبث والزيف والإفساد، لم يسجل شيء منها بحق هذا الكتاب، فلم هذا الإسفاف في إسقاط الأحكام؟

الفرع السابع: مصحف أبيّ ﷺ:

يقول نولدكه: "أما المعلومات المتعلقة بثلاث آيات مفقودة كانت في قرآن أبيّ، فمؤكدة.."^١
ثم شرع بذكرها والتعليق عليها وهي:

(لو كان لابن آدم وادياً من مال لابتغى إليه ثانياً..)
(إن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية..)
(لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..).

الردّ

بخصوص ما تقدم يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

أولاً: لقد ناقض نولدكه نفسه واضطرب كثيراً حينما استبعد أن يكون شيء منها قرآناً، لاختلاف الفاصلة ولجوانب أسلوبية ومضمونية، ثم ما فتىء حتى أكد ورودها، مما أفاد أن كتاب الله قد نقصت منه آيات قرآنية، لأن الرواية لم تذكر أن تلك الآيات نسخت أو أنسيّت.

وكان عليه أن يريح نفسه من عناء الالتفاف والدوران المهلك حول أمور معلومة لدى أهلها علم اليقين، وأن يختصر الطريق ويسأل أهل الذكر إن نقصته المعرفة، (فَاتِمًا شِفَاءً أُنْعَى السُّؤَالُ)^(٢)، فالقرآن نقل بالتواتر وهو واضح الحدود والمعالم، ولم يظهر على أمة القرآن ما يشير إلى جدل حول آيات هل هي من القرآن أم ليست منه؟

ثانياً: لم تصح هذه الرواية لا إسناداً ولا متناً، فإسنادها فيه عنعنة، لأنه لم يصرح شعبة بن الحجاج بالسماع من عاصم، وأما الراوي وهو عاصم بن أبي النجود، فهو وإن كان إماماً في

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٢٧٦.

٢ - جزء من حديث رواه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: في المجروح يتيم، رقم: (٢٨٤) ٤١١/١.

القراءة وثقة^(١)، إلا أنه ضعيف في ضبطه، وكان كثير الخطأ في حديثه، وعندما روى له الشيخان البخاري ومسلم رويًا له مقروناً بغيره^(٢)، وهذا اعتراف منهما بضعف الرجل، وأنه ليس حجة بنفسه.

وأما منتها فهو واضح البطلان، لأنه يعني أن كتاب الله قد ذهب منه آيات قرآنية، وهذا زعم باطل، يجب رفضه، لأنه يخالف ثوابت الدين وشواهد التاريخ في سلامة القرآن الكريم من التحريف على اختلاف أشكاله، وكل رواية تاريخية أو حديثة تزعم ذلك أو مثله، فهي رواية باطلة قطعاً.

ثالثاً: مما يزيد في بطلانها أن الرواية المذكورة تخالف الثابت الصحيح الذي نص على أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَنْي كَعْبٍ: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ نَمَ يَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا وَسَمِعْتَنِي لَكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَبَكَى)، فليس فيها ذكر لتلك الآيات المزعومة.

رابعاً: إن تلك الآيات المزعومة ليست قرآناً، وإنما هي في الأصل حديث نبوي صحيح . ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (لو كان لابن آدم واديان من مال لا يبتغي ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)^(٣).

خامساً: ومما يؤكد أن تلك الآيات مزعومة ومكذوبة، أن رواية عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب ، لا وجود لها أصلاً في قراءة حفص وشعبة الذين رويًا قراءة عاصم بن أبي النجود، والتي تنتهي إلى عدد من الصحابة^(٤).

سادساً: إن تلك الآيات المزعومات لا تشبه القرآن، ولا توجد فيهما لغته ولا روحه ولا تركيبه وذوقه ولا موسيقاه، فنحن عندما نسمع آية قرآنية واحدة، نعرف أنها قرآن بالسماح والسدوق، وهذا لا نجده عند سماعنا لهذه الآيات، فالقول بقرآنتها هو مجرد ادعاء ليس عليه دليل^(٥).

١ - ينظر: مقدمتان في علوم القرآن، وهما مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية، ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م. ص ٨٣.

٢ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط الثانية، ١٤٠٣ ج ١٣ ص: ٤٧٧ وما بعدها.

٣ - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال، ٩٢/٨.

٤ - السيد أحمد عبد الرحيم: أسانيد القراء العشرة، ص: ٣٦ وما بعدها. ويراجع المصحف الشريف بقراءة حفص عن عاصم، فلا وجود لتلك الآيات المزعومات.

الفرع الثامن: سبب نزول آية الأحقاف

يرفض نولدكه ما ذهب إليه فايل من أن قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ مَسَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي إِنَّي أَنَا مِنَ الْمُتَسَلِّمِينَ ﴿١٥﴾﴾ الأحقاف: ١٥ من وضع أبي بكر، ويعلل رفضه لرأي فايل فيها؛ لأنه يستحيل أن يسم أبو بكر ابنه بسمة كهذه، فضلاً عن أن مناقبه (أي أبو بكر) تمنعه من عمل هكذا، عدا عن أن هناك مفسرين كالزمخشري-مثلاً- يرفضون أن تختص هذه الآية بأبي بكر رضي الله عنه.^(١)

الرد:

هذا كلام مبطن يريد صاحبه من تسطيره تقرير أن المعطيات المادية المتنوعة هي التي تضبط عملية تأليف القرآن، وليس التوقف على إعلام الوحي من الله تعالى، لكن بطريق ظاهره اليسر والسهولة، وباطنه العنت والوعورة، وذلك من خلال ظهوره بثوب المدافع عن حمى الإسلام، وبالتزام المنهج الموضوعي المعتدل، فالحق أن أبا بكر ومعه من في الأرض جميعاً لن يستطيعوا تغيير شيء في القرآن الكريم، حتى ولو نزل هذا القرآن في أحد أبنائه كما قال ابن عباس والسدي وأبو العالية ومجاهد: (نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يدعو أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل)^(٢).

ولا يضره ذلك لأنه إن وقع منه فهو قبل إسلامه، فقد قال قتادة والسدي: (هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعواته إلى الإسلام وبعاداته بالبعث، فيرد عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه، وكان هذا منه قبل إسلامه)، والإسلام يجب ما قبله^(٣).

١ - ينظر: المدخل لدراسة القرآن، محمد أبو شهبه، ص ٣٠٠ فما فوق.

٢ - ينظر: تاريخ القرآن، ص ٣١٤.

٣ - تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩٧/١٦.

٤ - جزء من حديث صحيح، ينظر: مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، ٢٥٠/١.

وقد ثبت -أيضاً- أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن، فعن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْتِي أُفٍّ لَكُمَا ﴾ (١٧) الأحقاف: ١٧ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُنْدِي^(١).

فهذا كل ما في الأمر، فليس في الإسلام شيء يستحي من إظهاره، أو يحابي فيه أحد مهما كان شأنه، بشرط واحد أن يكون ذلك صحيحاً ومن الإسلام، لا أن يفتري عليه ويؤخذ بجريرة غيره.

^١ - صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْتِي أُفٍّ لَكُمَا) ١٣٣/٦.

الفرع التاسع: دعاوى حول معجزة الإسراء

أما اعتراض فايل حول التشكيك في صحة الآية الأولى من سورة الإسراء، الذي يعتقد فيه أنها وضعت في عهد أبي بكر، لأن النبي لا يدعي لنفسه أنه مجتوح عجائب بل واعظ ومنذر فقد صرح نولدكه أنه اعتراض مشروع لو لم يكن حليماً.

ثم ذكر أن القرآن يتحدث عنه وكأنه حقيقة لا حلم، والأمر يتلخص في أن فكر النبي المنار لأمس فكر شعوب بدائية، فظن الحلم حقيقة^(١).

لكن على افتراض أنه حلم كما ادعى^(٢)، فقد جهل أن رؤيا الأنبياء حق، كما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال (رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ الصافات: ١٠٢)^(٣).

ومع ذلك فليست القصة حليماً، بل حقيقة وواقع، ذلك أن رسول الله ﷺ كان يجيب على أسئلة السائلين حول تفاصيل دقيقة لا يملك الحالم مثلها، فقد ورد في السيرة أن أبا بكر ركب (أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله أخذت هؤلاء القوم أنك جئت بينت المقدس هذه الليلة؟ قال نعم قال يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئت - قال أحسن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع لي حتى نظرت إليه - فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر صدقت أشهد أنك رسول الله كلما وصف له منه شيئاً، قال صدقت أشهد أنك رسول الله)^(٤).

لذا رد العلماء على هذه الشبهة منذ القدم، قال الطبري: "بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام.

١ - ينظر: تاريخ القرآن، ص ٣١٥.

٢ - هناك من ذهب لهذا من المسلمين، فابن هشام بعد أن ذكر الرايين قال: "والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعانين فيه ما عانين من أمر الله على أي حاله كان نائماً، أو يقظان كل ذلك حق وصدق". ينظر: السيرة النبوية، أبو محمد بد الملك ابن هشام، ٣٢/٢.

٣ - صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: التخفيف في الوضوء، ٣٩/١.

٤ - ابن هشام. أبو محمد بد الملك، السيرة النبوية، ٣١/٢.

إلا أن يقول قائل: إن معنى قولنا: أسرى روحه: رأى في المنام أنه أسرى بجسده على البراق، فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التي رُويت عن رسول الله ﷺ، أن جبرائيل حمله على البراق، لأن ذلك إذا كان مناما على قول قائل هذا القول، ولم تكن الروح عنده مما تركب الدواب، ولم يحمل على البراق جسم النبي ﷺ، لم يكن النبي ﷺ على قوله حُمِلَ على البراق لا جسمه، ولا شيء منه، وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين، وذلك دفع لظاهر التنزيل، وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين^(١).

لقد غاب عن بال المستشرقين أن الذي أسرى بمحمد ﷺ هو الله تعالى، القائل: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ﴾ الإسراء: ١، ولم يستطيعوا فهم أن الذي أسرى به هو الله الذي لا يخضع لقوانين الكون، فليس مثله شيء، وإذا نسبت الفعل وهو الإسراء إلى الفاعل وهو الله الذي لا يعجزه شيء، أصبح كل ما حدث يقيناً وصحيحاً لأنه تم بقدرته تعالى.

لكن هذه الدعوى تضاف -أيضاً- للركام الهائل من الخرافات والأفاسيص الذي ورثه الأستاذ نولدكه عن تركة الكتاب المقدس عندما كان يدرسه بتمعن، فظن أن ما وجدته هناك يمكن أن يوضع هنا، على طريقة معظم المستشرقين في الإسقاط، لذا نجده يحاول ربط هذه الحادثة بما في الكتاب المقدس من الأساطير، فيدعي أنه ليس في الأساطير القديمة ما يشبه هذه الحادثة، إلا ما ورد عن حزقيال، حيث إن الروح أخذه ورفعته بين السماء والأرض وأتى به إلى اورشليم دون مكة.

وأما ما لخص نولدكه به معجزة الإسراء بأنها تولدت من طريق فكر نبي نائر لأمس فكر شعوب بدائية، فظن الحلم حقيقة^(٢).

فمن يطّلع على ما قرّره نولدكه هنا يدرك تماماً أنه يخوض في بحر من المأزق ليس له ساحل، وذلك تراه وهو يكتب عن معجزة الإسراء يشعر بمدى التجني والتحامل غير المبرر، والعجز الكامل عن أن ينتج شيئاً ذا بال، أو يأتي بجديد فيما هو بشأنه، فيلجأ إلى الطعن في الإسلام ورموزه كعادته المتكررة باستمرار، ليلفت المطلع إلى ما يوارى جريمته.

١ - الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ٣٥١/١٧.

٢ - ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه، ص ٣١٥.

إن فلنسال من هم البدائيون؟ ومن أولى البشر باستحقاق هذه الصفة؟ ألم يكن الذين يرسمون الصليب على وجوههم بعد أن رسمه البابا على نعليه مبالغاً منهم في الدونية والاحتقار، وتقديماً لمظاهر التكريم والتبجيل لنوع خاص من الأدميين، ثم يصورون لبعض القديسين وجوهاً كوجوه الكلاب، وأجساداً كالناس، ثم يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله^(١)، ألم يكن ذلك غاية في الذناء والبهيمية والتأخر؟ بلى.

لكن ذلك لم يلق منه حكمة الشيوخ، وهو الذي عاش عمراً مديداً ككله بكثير من التزوير والخداع، كما أنه لم يستفد من حماس الشباب وقد كتب ما كتب وهو في ريعانه، فلم يسجل شهادة مبراة أمام الله تعالى، وأمام خلقه أجمعين، بل إنه غارق في آثار الوقاحة الصبيانية كما أقرّ هو بذلك^(٢)، وإلا فالإسلام حارب الخرافات والأساطير التي كانت تثن الأرض تحت وطأتها منذ ولادته إلى اليوم، وردّها على أهلها، وحذر أصحابها من أخطارها وشروها، ومن ذاق عرف. فلم يحاول النصارى إثارة الشبهات حول معجزتي الإسراء والمعراج؟ ولم يشككون في وقوعهما؟

إن هذه الأمة التي ادعى المؤلف أنها بدائية قد كانت جيلاً فريداً أثر فيمن بعده وأحدث تحولاً واضحاً في مسار الإنسانية كلها، وقد يكون في توسع الألفاظ والأرقام أن تحصي لنا آثار العرب في بعض العلوم... ولكن آثار العرب في الحضارة العامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ، ولا هي موقوفة على استقصاء أرقام وألفاظ، لأن زعم الزاعم أنها قد مضت بغير أثر كبير يناقض العقل البشري كما يناقض المشاهد والمحسوس...^(٣)

كما نجد نولدكه يذكر أن ملاحظة فايل حول عدم ارتباط الآية بما يليها ملاحظة صائبة، لكن قد تكون الفاصلة قد فقدت تتمتها.

فهذا رمي للقرآن بالنقص والتحريف، رده العلماء والمفسرون قديماً وحديثاً وأبطلوه، فابن عاشور يذكر أن الآية الثانية من السورة "عطف على جملة ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيْ أَسْرٰى بِمَبْيُوتِهِ﴾ الإسراء: ١ الخ فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبد محمد وأتى موسى الكتاب، فهما منتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد

١ - ينظر هذه المظاهر الساذجة وغيرها كثير في كتاب: (إظهار الحق) رحمة الله الهندي، ٣ / ٨٤٣.

٢ - ينظر: تاريخ القرآن، مقدمة نولدكه للطبعة الثانية، ص IXXX.

٣ - العقاد. محمود عباس، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار نهضة مصر، ط - ٢٠٠٢، ص ٩٦.

الأقصى، فإن أطوار المسجد الأقصى تمثل ما تطور به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا^(١).

ونكر البقاعي وجه ترابط الآيتين بقوله: "ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة على كل ما يريد، وما حباه ﷺ به من الآيات البيّنات في هذا الوقت اليسير، أتبعه ما منح في المسير من مصر إلى الأرض المقدسة من الآيات في مدد طوال جداً موسى عليه السلام الذي كان أعظم الأنبياء بركة على هذه الأمة ليلة الإسراء لما أرشد النبي ﷺ إليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين إلى خمس مع أجر خمسين"^(٢).

فالآيتان متلاحيان متناسقتان مترابطتان ترابطاً عضوياً واضحاً، لا كما ادعى نولدكه ومن وراءه المنصرون وتلامذتهم.

وهو - أيضاً - يرفض اعتراض قائل بخصوص لفظ (ليلاً) في الآية السابقة بأنه غير صحيح لغوياً، معللاً ذلك بأنه قد يكون هذا اللفظ من قبيل الحشو.

فلا المعترض ولا المعترض عليه أصاب أحد منهم الحق، فليس في القرآن الكريم حشو أو كلام عاطل، بل كل من عباراته وألفاظه وحتى حروفه لها فائدة ورسالة تؤديها، وفيما يخص هذا الموضوع جاء في الظلال: "والإسراء من السرى: السير ليلاً. فكلمة { أَسْرَى } تحمل معها زمانها، ولا تحتاج إلى ذكره، ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ الإسراء: ١ للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم فيلقي ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجي على النفس، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها"^(٣).

وقال ابن عاشور: "وإذ قد كان السرى خاصاً بسير الليل كان قوله: (لَيْلًا) إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيداً، على أن الإفادة

١ - ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٢٠/١٤.

٢ - البقاعي. ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط ٣ - ٢٠٠٦، ٢٩٨/١١.

٣ - قطب. سيد، في ظلال القرآن، ٢٢١٢/٤.

كما يقولون خير من الإعادة، وفي ذلك إيماء إلى أنه أسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضاً ليتوصل بذكر الليل إلى تنكيه المفيد للعظيم^(١).
وصدق الله القائل: ﴿الرَّكِنُ أَثْبَتَ أَيْتُهُ ثُمَّ قُضِيَ مِنَ لَيْلَةِ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾ هود: ١

وخلاصة الأمر أن توقعات نولدكه حول هذه الموضوعات هشة، قد ذكر القرآن الكريم أكثرها على لسان أهل الكتاب والمشركين من قبل ورد عليها، وكل ما ذكره هنا لا يشكل دليلاً يستأهل زيادة من النقاش أكثر مما تقدم.

^١ - ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ٤٧/١٥.

الفصل الرابع
طلعت كتاب فولدك، وأثره
فيمت جاء بعده في جمع القرآن
الكريم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع: ملحق كتاب نولدكه، وأثره فيمن بعده في جمع القرآن.

تأتي أهمية ملحق كتاب نولدكه الذي جعله خاتمة للجزء الثاني من كتابه من جهة وصفه المذهل لمصادر دراسته، وتقييمه الرائع لمحتواها، وقد اشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: المصادر المحمدية

تحت هذا العنوان يتناول نولدكه جملة من المصادر العربية والمسيحية المستعملة في الجزأين الأول والثاني من كتاب (تاريخ القرآن)، وستكتفي الدراسة -هنا- بنقد الموضوعات التي لم يتقدم الرد عليها سابقاً في هذه الدراسة، علماً بأن هذا الملحق لا يرتبط بموضوع جمع القرآن وتاريخه إلا من باب وجودهما في جزء واحد من كتابه.

وعلى الرغم من وجود حذاقة لفظية واضحة يتمتع بها المؤلف تظهر قدرته على هضم جهد هائل من الإرث الإسلامي طوال قرون فيما يخص القرآن، إلا أن ملامح السذاجة الاستشراقية تبدو -أيضاً- جلية ظاهرة، فاستنتاج نولدكه لأحكام لا تتفق مع الحقيقة التاريخية، وقيامه بإلقائها بشكل مباشر وغير منتظم، يضطرنا للميل إلى تعليل ذي لون مختلف، مؤداه أن هذا الملحق هو بكامله من إعداد شفالي، وكان نولدكه سابقاً يتبع في إعداد كتابه أسلوباً موارباً في إلقاء الشبهات، أشبه بطريقة الكرّ والفرّ في الحرب، فيه كثير من التدليس والتغليب، مما ألقى في أذهان المستشرقين وفي خيالات بعض العرب والمسلمين نوعاً من طابع الصبغة العلمية والموضوعية في تناوله للموضوعات الشرقية، وحتى بدا للبعض الآخر وكأنه متناقض في آرائه تناقضاً مذهباً، ومتضارب في أقواله فلا يكاد يقرّ له قرار.

وستتناول الدراسة هذا الملحق بالعرض والنقد في المطالب الآتية:

المطلب الأول: أدب الحديث

يتناول نولدكه هنا المصنفات الحديثية بالتعريف، ويذكر ما يكرره باستمرار أن النقد الإسلامي نقد شكلي ومتخلف، فيقول:

"لا يتخطى النقد في أي موضع هنا المقياس إلى درجة المؤلف عند المسلمين والذي لا يتعلق إلا بالشكليات، ويبقى في العادة متخلفاً"^(١).

الرد

ما دام أن نولدكه قد دأب -عموماً- على توجيه التهمة للمصادر الإسلامية ودم مؤلفيها، فينبغي أن نسأله؛ لماذا اعتمد أبحاث المسلمين التي نعتها بالسطحية وقلة القيمة حيناً، وعدم الجدة والجهالة حيناً آخر لتكون مصدراً لكتابه؟ ألم يعلم بأن سخافة المصدر ستعكس بالضرورة على شكل الفرع ومضمونه؟ لذا فهو يقوم من خلال عمله هذا بدم كتابه ودعوة القراء إلى الانصراف عنه، وكان الأجدر به أن يتحاشى هذه المصادر التي يعتقد بأنها عقيمة، ومع ذلك فهو لم يلتزم بمنهج سليم تلقاه اعتماده على هذه المصادر، بل كان منهجه انتقائياً، يختار ما يشاء منها لأمر ما، ويغض الطرف عن ما يشاء، وقد مرّ في هذه الدراسة ما يكفي لإثبات ذلك، وسيجد القارئ أيضاً -مصدق ذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: صحيح البخاري رحمه الله تعالى

لقد وجه نولدكه مطاعنه إلى أشهر كتب السنة والصحاح، لكنه خصّ صحيح البخاري، ومسند أحمد -رحمهما الله تعالى- بحظ وافر منها، وذلك لما لهما من مكانة هامة عند الفقهاء والمحدثين، ومع أنها لا دخل لموضوعاتها بميدان تاريخ القرآن وتدوينه، إلا أنه أقحمها هنا ليدلس على القارئ الغربي الذي لا يفهم حقيقة تواتر القرآن وقطعيته بأنه قد أوكل الأمر فيه إلى جهد الناس واعتراه ما أصاب غيره من خطأ أو تحريف، وشتان ما هما.

أما صحيح البخاري فقد ذكر بأن التحسينات التي أضافها إلى صحيحه تقوم على الشكليات، لأن ما أثبتته من كومة الأحاديث ليس بأفضل مما حذفه^(٢)، فهو ظاهر البطلان والسقوط، لأن البخاري الذي قيل فيه "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل"^(٣)، قد شهد له الناس جميعاً بتميز كتابه في بابته حتى قال فيه ابن حجر رحمه الله: "إنه التزم فيه الصحة، وأنه

١ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٦٨.

٢ - ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه، ص ٣٦٩.

٣ - العسقلاني. ابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري، القاهرة: دار الريان للتراث، ط ٢-١٩٩٨ ص ٥٠٢.

لا يورد فيه إلا حديثاً صحيحاً، هذا أصل موضوعه، وهو مستفاد من تسميته إياه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، ومما نقلناه عنه من رواية الأئمة عنه صريحاً، ثم رأى أن لا يخليه من الفوائد الفقهية، والنكت الحكيمة، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانترج منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة^(١).

فبهذا يعلم فداحة زعم نولدكه أن ما أثبته البخاري من كومة الأحاديث ليس بأفضل مما حذفه، لأن البخاري نفسه قال: "أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح"^(٢)، فالصحيح واضح لديه وكذلك غيره.

كما أن جهده لم يكن شكلياً كما ادعى نولدكه، ذلك أن نواعي التأليف كانت قائمة آنذاك، فأثار النبي ﷺ وأخباره لم تكن جميعها مدونة في عصر الصحابة وكبار التابعين، وذلك لأمرين: - إنهم كانوا في ابتداء الأمر قد نهوا عن كتابة الحديث.

- سعة حفظهم وقوته، وقد حدث تدوين الآثار، وتبويب الأخبار في أواخر عصر التابعين لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار، وغيرهم، فألف عدد من علماء الإسلام مصنفات في أحاديث النبي ﷺ، وكانت تشمل الأحاديث الصحيحة والحسنة، والضعيفة، فحرك ذلك همة البخاري لجمع الحديث الصحيح، وقوى عزمته على ذلك ما سمعه من أستاذه ابن راهويه، قال الإمام البخاري: "كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ قال: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح"^(٣).

الفرع الثاني: الإمام أحمد ومسنده

وأظن أن نولدكه لم يعلم عن أمر أحمد ومسنده شيئاً، ولم يطلع على ما يخص حياته إلا من خلال المنظور الاستشراقي الذي إن أصاب طرفاً مما يختص بالإسلام جعله صلباً وقاعاً

١ - المرجع السابق، ص ١٠.

٢ - النووي أبو زكريا محيي الدين ت (٦٧٦) هـ، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق: مصطفى عبد القادر

عطا، نشر: إدارة الطباعة المنيرية، بيروت: دار الكتب العلمية، ١/ ٦٨ .

٣- العسقلاني. ابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص ٨.

صفتها، لذا نجده يسخر من مسنده ويذكر بأنه يتمادى في المسند بذكر أحاديث تشبه الفكاهة،
يمتدح بها السفاح ويتنبا بفتح الهند.

إن هذا الجهل المركب بمعالم التراث الإسلامي اضطره أن يخفي الحقيقة التي أجمع عليها
نقلة التاريخ في حق أحمد رحمه الله.

قال مهني بن يحيى: قد رأيت ابن عيينة، ووكيعاً، وبقية، وعبد الرزاق، وضمرة، والناس،
ما رأيت رجلاً أجمع من أحمد في علمه وزهده وورعه، وذكر أشياء^(١).

قال ابن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو: يا أبا زرعة، أنت أحفظ، أم أحمد؟ قال: بل
أحمد، قلت: كيف علمت؟ قال: وجدت كتبه ليس في أوائل الأجزاء أسماء الذين حدثوه، فكان
يحفظ كل جزء ممن سمعه، وأنا لا أقدر على هذا^(٢).

وحدثنا عبدالله بن أحمد، قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف،
فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا
بالكلام^(٣).

فكيف يصح بعد هذا أن ينعت بأنه يتمادى بذكر أحاديث تشبه الفكاهة، لا يستطيع أحد أن
يوافق نولده على هذا الافتراء، لأن أحمد رحمه الله أحد الأئمة الأعلام، مشهود له ولمسنده
بالفضل والتفوق ممن يعتد بشهادته، ولما مات حضر جنازته ألف وخمسمائة ألف^(٤).

أما التعليل بأن الإمام تقول أحاديث يمتدح بها السفاح، فهو مدفوع بشهادة تاريخ ابن حنبل
الذي لم يكن ليودع المحنة والعذاب، ويعيش الفتن السوداء، ثم يعود ويتزلف إلى الحكام وذوي
الهيئات على حساب الحق، وقد قال فيه ابن معين: أرادوا أن أكون مثل أحمد، والله لا أكون
مثله أبداً^(٥).

وقال أبو خيثمة: ما رأيت مثل أحمد، ولا أشد منه قلباً^(٦).

^١ - ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ١٧٥/١١.

^٢ - المرجع السابق، ١٨٥ / ١١.

^٣ - المرجع السابق، ١٩١/١١.

^٤ - المرجع السابق، ١٨٦ / ١١.

^٥ - المرجع السابق، ١٨٦ / ١١.

^٦ - المرجع السابق، ١٨٨/١١.

وقال علي بن خنيس: سمعت بشر بن الحارث، يقول: أنا أسأل عن أحمد بن حنبل؟ إن أحمد أدخل الكير، فخرج ذهباً أحمر^(١).

وقال عبدالله بن أحمد: قال أصحاب بشر الحافي له حين ضرب أبي: لو أنك خرجت فقلت: إني على قول أحمد، فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء^(٢)؟

ولو سمح المقام للتوسع لأنت الدراسة على كثير مما يدفع افتراءات نولده والمسنشرين حول الإمام ومسنده، فأكتفي هنا بهذا.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

^١ - المرجع السابق، ١١/١٨٩.

^٢ - المرجع السابق، ١١/١٩٢.

المطلب الثاني: سيرة النبي ﷺ

يستعرض نولدكه هنا أعمال من كتبوا في سيرة النبي ﷺ، فذكر أن أول اهتمام بها بدأ بالمغازي، فألف فيها كل من أبان بن عثمان^(١)، وعروة بن الزبير^(٢)، وغيرهما، ولم يصلنا من أعمالهم إلا ما حفظ عند اللاحقين.

أول عمل وصل إلينا بهذا الخصوص: كتاب ابن إسحاق في السيرة، نُقل بواسطة ابن هشام الذي تصرف فيه كثيراً، عكس مخطوط ابن سيد الناس حيث قدم النص كاملاً.

علماً بأنه طرأ على الآثار تعديلات منحازة من قبل أشخاص بارزين لأسباب شخصية أو سياسية أو عقائدية، ولأن الدوافع يصعب اكتشافها سريعاً، فقد احتيج للكشف عما حل بسيرة الرسول من تحريفات عقود كثيرة، وعلى الرغم من اعتماد اللاحقين على كتاب ابن إسحاق، فقد اتهم من المسلمين بأنه مزور وكذاب.

لكن تظهر أهمية ابن إسحاق من خلال تأليفه أقدم كتاب مغازي ورد إلينا^(٣)، وقد تجاهل المتأخرون وثنائق ابن إسحاق بسبب أحكام مسبقة، حيث نقل إلينا وثنائق مبكرة تجاهلها المتأخرون تماماً بسبب أحكام عقائدية مسبقة، وتبرز أهميته -أيضاً- في وفرة الأخبار الجديدة، والأشعار الصحيحة.

١ - أبان بن عثمان بن عفان، ت ١٠٥ هـ الأموي القرشي: أول من كتب في السيرة النبوية. وهو ابن الخليفة عثمان، مولده ووفاته في المدينة، شارك في وقعة الجمل مع عائشة، وتقدم عند خلفاء بني أمية فولي إمارة المدينة سنة ٧٦ إلى ٨٣ وكان من رواة الحديث الثقات، ومن فقهاء المدينة أهل الفتوى. ينظر: الأعلام، خيرالدين الزركلي، ٢٧/١.

٢ - عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله، ت ٩٣ هـ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان عالماً بالدين صالحاً كريماً، لم يدخل في شيء من الفتن، وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين، وعاد إلى المدينة فتوفي فيها، وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. الأعلام، خيرالدين الزركلي، ٢٢٦/٤.

٣ - ينظر: تاريخ القرآن لنولدكه، ص ٣٥١ - ٣٥٧.

الردّ

إن أي جهد بشري لا يخلو من النقص أو التقصير، والله تعالى يأبى التمام لكتاب غير كتابه، لذا فنحن نلتمس لسلفنا وعلماننا السابقين العذر على ما بدر منهم من هفوات غير متعمدة، أما منهج نولدكه الذي يحاول أن يتسلل إلى عقول البسطاء والمغفلين في العالم من أجل تمرير أحقاد الصليب إليهم عن طريق الغارة على مقدسات المسلمين ورموزهم فهو منهج استشراقي مكشوف ومفضوح.

لذا نجده يقوم بمحاول تحديد الطريق التي نُقلت السيرة الزكية من خلالها، ثم تضيقها لتتحدد في عدد معين لا يتعداهم، إضافة إلى إن هذا العدد منهم بخلاف سيئة، كاتهامه ابن إسحاق - وهو أول من وضع كتاباً في السيرة النبوية - بأنه مزور كذاب^١.

ولعله اعتمد في قوله: "بينما تجاهله المتأخرون كلياً كما يبدو بسبب أحكام عقائدية مسبقة"^٢ على عبارة ذكرها ياقوت الحموي في كتابه "معجم الأدياء" بأن الإمام مالك روى ابن إسحاق بالتشيع وقال إنه دجال من الدجاجلة^٣، وهذه العبارة كتبها الحموي في القرن السابع الهجري، ومالك وابن اسحق توفيا في القرن الثاني الهجري، ولو نطق الإمام مالك هذه العبارة لرواها عنه الأئمة السابقون على ياقوت الحموي، وليس من المقبول أن تظل هذه العبارة تنتقلها الرواية الشفوية طوال ٥٠٠ سنة دون أن يسجلها الأئمة الأقدمون الذين تحدثوا عن ابن اسحق كاتب السيرة الأول، بل على العكس مما ذكره الحموي، فإن كثيراً من الأقدمين اثتوا على ابن اسحق، منهم الزهري وهو شيخ مالك ومن كبار علم الرواية والحديث، والشافعي وهو تلميذ مالك، رحمهم الله تعالى.

قال الذهبي: "وقال ابن عدي: ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلا الاشتغال بمغازي رسول الله - ﷺ - ومبعثه، ومبتدأ الخلق، لكانت هذه فضيلة سبق بها، ثم من بعده صنّفها قوم آخرون فلم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق منها، وقد فتشت أحاديثه كثيراً، فلم أجد من أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما

١ - ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه، ٣٥٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٥٤.

٣ - ينظر: معجم الأدياء، ياقوت الحموي، بيروت: دار الفكر، ط الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ٣٥٣/٢.

أخطأ، أو يهيم في الشيء بعد الشيء، كما يُخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه النقات والأئمة، وهو لا بأس به^(١).

والغريب أن المؤلف يضرب بثناء الأئمة على ابن اسحق وكتابه عرض الحائط، ويصر على أنه مزور كذاب، ولم يكتف بهذا الحكم، بل عممه على كل ما كتبه علماء الأمة سابقاً ولاحقاً في السيرة المطهرة، لأنهم - كما يزعم - اعتمدوا في كتاباتهم على سيرة ابن اسحق، فهو الأصل، وهم الفرع، وإذا بطل الأصل بطل لا محالة كل ما تفرع عنه.

ومعنى هذا أن مؤلفات الواقدي، وابن سعد، والطبري وابن الأثير، وابن كثير، وغيرهم في السيرة النبوية هي مصادر يجب إتلافها فوراً، لأن المستشرقين ومنهم تولدكه قد اكتشفوا أنها مزورة.

أما ادعاء تولدكه بأن سيرة ابن إسحاق هي الأصل الوحيد لكل ما كتب في السيرة فهو ادعاء باطل بكل المعايير، فالواقدي صاحب المغازي، وابن سعد صاحب الطبقات لم يذكرهما مؤلفيهما المشار إليهما، والمؤلف عالم بهذا. والطبري في تاريخه، وابن الأثير في كتابه (الكامل) لهما مصادر أخرى في رواية وقائع السيرة، والمؤلف له إطلاع على (تاريخ الطبري)، وكامل ابن الأثير، فلماذا إذن يتجاهل هذه الحقائق، ويجزم بأن كتاب ابن اسحق هو الأصل الوحيد لكل ما كتب بعده عن سيرة الرسول ﷺ؟

لكن الذي يترجح أن المؤلف لا يعرفه ولم يشر إليه من قريب أو بعيد هو كتاب: (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) للصالح^(٢)، وهو كتاب ضخيم في السيرة النبوية، طبعه حديثاً المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، بلغ المطبوع منه حتى الآن اثني عشر جزءاً من القطع الكبير، لا يقل الجزء عن ٤٠٠ صفحة.

١- الذهبي. محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ٤٨/٧.

٢- الشامي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، شمس الدين، ت ٩٤٢ هـ - محدث، عالم بالتاريخ، من الشافعية، ولد في صالحية دمشق، وسكن البرقوقية بصحراء القاهرة إلى أن توفي، من كتبه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) أربعة مجلدات، يعرف بالسيرة الشامية، جمعه من ألف كتاب. ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٥٥/٧.

قهل ٲصدق أن مسرة ابن اسحق بحجمها الصغفر؁ هف أصل مسرة (سبل الهدف والرشاد)
بأجزائها الاثنف عشرة؁ ألها الحد فبلق الصلف بالناس حتى كادوا أن ففخوا نور الشمس؟

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المطلب الثالث: سلسلة الإسناد عند المسلمين.

يقول نولدكه: "ليست سلسلة الإسناد دوماً مكتملة.. ليس بسبب الإهمال بقدر ما هو نتيجة قواعد معتمدة في التأليف.. من معالم الإسناد المميزة أنه لا يفرق بين النقل الشفوي والخطي.. هكذا لا يتم التفريق بين تلك الأقسام من الإسناد التي تقوم على مصادر مكتوبة والرجال الثقات الذين لا علاقة لهم بمثل هذه المصادر هذا بالرغم من أن المصادر المذكورة أولاً أكثر أمانة إذ يمكن ضبطها في كل حين.. لم يتقبل المسلمون الإسناد من دون نقد لكنهم وضعوا لنقدهم معايير شكلية فقط.."^(١)

ثم يذكر نولدكه أنه بحسب جولدنسيهر فإن جميع صراعات الأحزاب العقائدية والفقهية والسياسية في الحياة الإسلامية قد ترسبت في الحديث الشرعي، بواسطة أنصار المذاهب اللاهوتيين، فقبلها الرأي العام، ولم يستطع النقد الإسلامي الذي عالج الشكل وترك المضمون إصلاح هذا الخلل، لذا فكل حديث شرعي يخضع لشبهة الوضع.

فهو يقول: "ظهور النقد الإسلامي للروايات الذي تمسك حصراً بالشكل، وغض الطرف عن المضمون الخالي من أية دلالة لم يتمكن من إحداث أي تغيير نحو الأحسن.."^(٢)

وفكرة نولدكه تتلخص بما أورده من مثال بين فيه سلسلة الشهود في الرواية التي يعول عليها أهل الحديث، وذكر أنها غالباً ما تكون ناقصة بسبب قواعد معتمدة في التأليف، فيذكر أن من معالم الإسناد المميزة عدم التفريق بين الشفوي والخطي، كما أن الثقات لا علاقة لهم بالمصادر المكتوبة، وهي أكثر أمانة من الحفظ لأنه يمكن ضبطها في كل حين، لذا كم مرة أخطأ الشهود وكان الإسناد سبباً لاختلاف روايات طبعت بخاتم الموثوقية لأنها جاءت من قبل المحدثين؟

ويدعي أنه كثيراً ما تذكر روايات تنتمي للجيل اللاحق من الصحابة، بينما يندر أن تنتمي للأقدمين كعمر، وذلك بسبب انشغالهم بالأحداث، وفي الوقت نفسه هناك أحاديث سخيفة وغير صادقة قبلت لأنها تعود لشهود ثقات كما يزعم.

^١ - ينظر: تاريخ القرآن، نولدكه ص ٣٤٧.

^٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، ص ٣٦٧.

والردّ على نولدكه ستخصص الدراسة لهذه الشبهات مساحة تتناسب مع إطناب نولدكه في تزويره للحقيقة وغمطه للحق، حيث صب جام حقه وناقح سمه على الحديث ورواته، فأقول: إن المستشرقين عموماً لا يعرفون الأسانيد ولا يميزون بين الصحيح والسقيم، فجميع الأخبار المحكية عندهم مسلمة، وقد يعذرون في هذا لأنهم قد حرّموا الإسناد الذي اختصت به أمة الإسلام، فإن كان هناك اهتمام راجح من المسلمين بالإسناد على المتن^(١)، فهو نعم؛ اهتمام بالإسناد ولكن ليس على حساب المتن، وبيان ذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: أسباب اهتمام المسلمين بالإسناد

إن هناك أسباباً محددة دعت العلماء لأن يولوا الإسناد عناية فائقة يمكن إجمالها فيما يلي^(٢):

١- إن أساس الرواية يقوم على رجال الحديث، فإذا اختل الأساس انهدم البنيان كله، ولأجل ذلك فإن علماء الحديث اهتموا كثيراً بدراسة الرجال الحاملين للروايات ينتقدونهم ويسألون أهل الخبرة عنهم، قال نعيم بن حماد: قلت لعبد الرحمن بن مهدي: كيف يعرف الكذاب؟ قال: كما يعرف الطبيب المجنون^(٣).

٢- لقد علل الإمام الدارقطني سبب الاعتماد على السند أكثر من الاعتماد على المتن: بأن خلل السند أصعب من خلل المتن، فنقد السند يحتاج لعلم بالتراجم والرجال، لأن نقد السند يسمح بنقد موضوعي مبني على معيار دقيق بسبب الرجوع إلى تراجم الرواة التي تعطينا فكرة عنهم، وبذلك تعرف درجة صحة الحديث، والمحدثون يقولون: إنهم كانوا قائلين بمعرفة

١ - ذكر الشيخ صبحي الصالح أن عناية المحدثين بالمتن قد فاقت عنايتهم بالسند، ينظر: علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح، ص ٢٨٦.

٢ - ينظر: المستشرقون والسنة، سعد المرصفي، الكويت: مكتبة المنار، وبيروت: الريان، ١٩٩٠، ص ٤٣ - ٤٥.

٣- ينظر: لمحة عن علم الجرح والتعديل، سلمان الحسيني الندوي، الهند: دار السنة للنشر والتوزيع، ١٩٩٢، ص ٢٦-٧.

ترجمة الراوي على تكوين فكرة واضحة عن درجة وثوق روايته وعن علمه^(١).
وإذا جرح الراوي؛ فإن كل رواياته ترفض، إلا أن تكون معضدة بروايات أخرى مقبولة،
فالعلة القادحة في السند، والنقد الذي يثبت في السند يعطى أهمية أكبر كإجراء احتياطي^(٢).

٣- أما الخلل في المتن فإنه ليس دائماً يؤثر في صحة الحديث، فقد يكون الحديث صحيحاً إلا أن
الراوي قام بإدراج بعض الكلمات فيه أو بإدراج بعض الجمل التي تؤثر في فهم الحديث
بشكل خاطئ، وفي بعض أنواع الإدراج يكون من الصعب التفريق بين الحديث الأصلي وبين
كلام الراوي المدرج، وقد يخطيء الراوي في نص الحديث خطأ يغير المعنى إلا أنه لا يؤثر
في صحة الحديث وذلك كبعض أنواع التصحيف والتحريف^(٣).

٤- إن فتح الباب على مصراعيه للحكم على المتن سيجعل المجال مفتوحاً أمام إصدار أحكام
غير موضوعية (متحيزة) وذلك لأن النص قد يؤول بوجوه عديدة، مما يجعل اعتبار صحة
الحديث مبنية على التأويل، وفي ذلك من الخطورة ما لا يخفى على أهل العلم.

٥- قد يصنف الحديث في باب الأحاديث المتشابهة التي تحتاج للراسخين في العلم كي يؤولوها،
أو لا يمكن تأويلها وتؤخذ كما وردت^(٤).

أضف إلى ذلك أن الحديث قد يكون فيه مجاز أو استعارة فيسيء بعضهم الفهم، لذا فمن
الخطأ تماماً الحكم عليه من ناحية ظاهرية، وقد يكون مضمون الحديث يتحدث عن أمور
أخرى لا تخضع لموازن دنيوية، بل تخالفها؛ ولهذا لا يمكننا رفضها لمجرد عدم معرفتنا
بتأويلها.

فهذه الأسباب وغيرها تجعل رفض الحديث ذي الإسناد الصحيح بناء على عدم فهمنا
لمتة أمراً غير علمي، فعدم فهمنا للحديث قد يكون راجعاً لأحد الأسباب السابقة التي يكون فيها
الحديث صحيحاً، إلا أنه لسبب ما لم نجد من يعطينا تفسيره الدقيق، وإذا قمنا برفض الحديث

١- ينظر بحث: الرد على مزاعم المستشرقين جولدسيهر وشاخت ومن أيدهما من المستعربين، عبدالله عبد
الرحمن الخطيب، ندوة العناية بالسنة والسيرة النبوية، التي نظمها مجمع طباعة المصحف الشريف بالمدينة
المنورة، الثلاثاء ١٥ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - الخميس ١٧ ربيع الأول ١٤٢٥هـ. ص ٢٩.

٢- نفس المرجع والصفحة.

٣- ينظر: منهج النقد، نور الدين عتر، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٣-١٩٩٢، ص ٤٣٧-٤٤٨.

٤- ينظر: دفاع عن السنة، محمد أبو شهبة، القاهرة- مكتبة السنة، ١٤٠٩/٥١٩٨٩م- ط١، ص ٤٥.

لسبب من الأسباب السابقة فسنع في خطأ كبير، وهو رفض حديث صحيح؛ لأننا لم نجد عالماً راسخاً يفسره لنا تفسيراً صحيحاً، وكان المفروض عرض الحديث على أهل الذكر فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب مبلغ أوعى من سامع.

إنه فهو اهتمام بالسند لكنه ليس إهمالاً للمتن كما ادعى نولدكه.

الفرع الثاني: دعوى إهمال المحدثين لنقد المتن

يقول نولدكه: "ليست سلسلة الإسناد دوماً مكتملة.. ليس بسبب الإهمال بقدر ما هو نتيجة قواعد معتمدة في التأليف.."^(١).

إن من لديه أدنى اطلاع على كتب علوم الحديث ومصطلحه يدرك أن قول نولدكه السابق ما هو إلا محض ادعاء ليس له دليل، وإن أحسنا الظن بمن قال بهذا الرأي فنقول: إنه ينم عن جهله العميق بعلم مصطلح الحديث، ذلك أن معالم اهتمام علمائنا السابقين بنقد المتن تظهر في جوانب كثيرة منها:

١ - إن في بيان الهدف من نقد السند عند المحدثين لرداً قوياً على مزاعم نولدكه القائل: بأن نقد الحديث عند المسلمين كان نقداً شكلياً ومتخفاً ومختصاً في السند، حيث جاء الهدف منه تحقيق نقد المتن وخدمته، وكما نقد المحدثون السند واهتموا به واشتروا سلامته من وجود الوضاعين والكذابين، فكذا وضع العلماء شروطاً لقبول المتن، ووضعوا علامات تدل على الوضع فيه دون النظر إلى سنده.

٢ - تعد سنة النبي ﷺ النموذج الأول والأكبر في الدعوة إلى ترسيخ نظرية نقد المتن، فقد كان ﷺ يصحح المفاهيم الخاطئة، ويدعو أصحابه إلى محاكمة النصوص والأخبار والمفاهيم الوافدة والموروثة.

مثاله ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن

^١ - تاريخ القرآن، ص ٣٤٧، بتصرف يسير.

يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»^(١).

وجه الدلالة: أن الرسول ﷺ انتقد ما استقرّ في نفوس الصحابة رضياً من أن المفلس هو من لا درهم له ولا متاع، فبين لهم خطأ هذا الرأي وفساده، وأوضح لهم أن هذا ليس هو حقيقة المفلس، لأن هذا الأمر يزول وينقطع بموته، كما ينقطع أيضاً بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته، فيستطيع أن يتدارك ما وقع فيه من الإفلاس، وبيان لهم أن حقيقة المفلس هو المذكور في الحديث^(٢).

٣- انتقد بعض الصحابة رضياً متون روايات بعضهم، فمثلاً ردت السيدة عائشة روايات بعض الصحابة، وكذلك تعرضت بعض رواياتها للنقد من بعض الصحابة الآخرين^(٣). مثاله ما روي عن ابن أبي مليكة قال: (تُوِّفِيَتْ ابْنَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَكَّةَ وَجِئْنَا لِنَشْهَدَهَا وَحَضَرَهَا ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَإِنِّي لَجَالِسٌ بَيْنَهُمَا أَوْ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى أَحَدِهِمَا ثُمَّ جَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيَّ جَنِّبِي فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِعَمْرٍو بْنِ عُثْمَانَ أَلَا تَنْتَهَى عَنِ الْبِكَاةِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنْ أَمَيْتَ لِيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَدْ كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ بَعْضُ ذَلِكَ، ثُمَّ حَدَّثَ قَالَ: صَدَرْتُ مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ إِذَا هُوَ بِرُكْبٍ تَحْتَ ظِلِّ سَمْرَةٍ فَقَالَ أَذْهَبُ فَانظُرْ مَنْ هُوَ لَأَنَّ الرُّكْبُ قَالَ فَانظُرْتُ فَإِذَا صُهِيبٌ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ادْعُهُ لِي فَرَجَعْتُ إِلَى صُهِيبٍ فَقُلْتُ ارْتَحِلْ فَانْحَقَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا أَصِيبَ عُمَرُ دَخَلَ صُهِيبٌ يَبْكِي يَقُولُ وَآ أَخَاهُ وَآ صَاحِبِيهِ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا صُهِيبُ أَتَبْكِي عَلَيَّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ أَمَيْتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَلَمَّا مَاتَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: رَحِمَ اللَّهُ عُمَرَ وَاللَّهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ أَلَّهَ لِيُعَذَّبَ الْمُؤْمِنَ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنْ أَلَّهَ لِيُزِيدَ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الإسراء: ١٥.

١ - أخرجه مسلم، كتاب البرِّ والصلة باب تحريم الظلم، رقم (٦٧٤٤) ١٨/٨.

٢ - ينظر: النظر في متن الحديث في عصر النبوة، صالح أحمد رضا، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد الثاني والعشرون، شوال ١٤٢٢هـ/ديسمبر ٢٠٠١م، ص ٣٣٤-٣٧٨.

٣- ألف الإمام الزركشي كتاباً جمع فيه الروايات التي انتقدت فيها السيدة عائشة مرويات بعض الصحابة بعنوان: الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة، وينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج: ١، ص: ٧.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ ﴿ مَرَّ أَحْسَكَ وَأَبْكَ ﴾ النجم: ٤٣
قَالَ ابْنُ أَبِي مَيْكَةَ: وَاللَّهِ مَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَيْئًا^(١).

وجه الدلالة أن عائشة رضيها رفضت أن يكون الميت يعذب ببيكاء أهله عليه، وكان سبب هذا الرفض يتصل بناحية المتن، بدليل أنها استشهدت بالقرآن وقالت حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ الإسراء: ١٥.

٤- مما يظهر عناية المحدثين الفائقة بالمتن، ما عرف من علوم في مصطلح الحديث تدل على ذلك، مثل:

١- (علم مختلف الحديث) الذي يعنى بالأحاديث النبوية الشريفة التي ظاهرها التعارض^(٢)، فهناك كتاب: (اختلاف الحديث) للشافعي، وكتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة، وكتاب (مشكل الآثار للطحاوي).

ب- علم علل الحديث الذي هو عبارة عن أسباب خفية غامضة قاذحة، فالعلة سبب غامض يدل على وهم الراوي سواء أكان ثقة أم ضعيفاً وسواء أكان الوهم في السند أم المتن، والحديث المعلل هو الذي اكتشفت فيه علة تقدر في صحته، وإن كان يبدو في الظاهر سليماً من العلل^(٣). وقد أطلق علماء المصطلح على العلل الموجودة في المتن مصطلحات عدة مثل: هذا حديث منكر^(٤) المتن، حديث غريب^(٥)، حديث شاذ^(٦)، حديث مضطرب^(٧)، ومعلوم لدى

١ - صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ) ٧٩/٢.

٢ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، النوع الثامن والأربعون، (في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض) فقد أشار فيه لما صنف في مختلف الحديث.

٣ - الصالح. صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، ص ١٧٩.

٤ - والمنكر: ما تفرد به واحد غير متقن ولا مشهور بالحفظ، فاجتمع في اشتراط المخالفة وافتراقا في وصف الراوي، ومقابل الأول المحفوظ والثاني المعروف.

٥ - والغريب: هو ما تفرد به واحد.

٦ - الشاذ هو ما روى الثقة أو الصدوق مخالفا لرواية الناس.

٧ - المضطرب: هو ما يروى على أوجه فأقل من راويين فأكثر أو راو واحد مختلفة لا يمكن الجمع بينها متساوية لا ترجيح فيها.

لمعرفة معاني هذه المصطلحات ينظر: التوضيح الأبهري لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي، الرياض: مكتبة أصول السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٨، تحقيق: عبد

المحدثين أن معرفة صحة الحديث لا تعتمد فقط على إسناده بل تعتمد على معرفة كبيرة بالحديث ومثونه^(١).

ج- كما أن هناك أنواعاً كثيرة من علوم الحديث تتصل بالمتن لا بالسند، كالأشاذ والمنكر والمعلل والمضطرب والمرج^(٢).

٥- هذا وإن نظرة إلى كتب الموضوعات، تتبك بما بذله العلماء من جهود جبارة في نقد المتن وتمحيصها، في منهج غاية في العمق والموضوعية، بعيد كل البعد عن السطحية والشكلية التي ما زال يكررها المستشرقون، بما لا يدع مجالاً لطعن طاعن أو تشكيك مغرض^(٣).

من هنا فإن نقد المتن عند المحدثين بدأ مع نقد السند، وكان نقد العلماء للمتن واسعاً كسعة نقدهم للسند، بل نستطيع القول بأن نقدهم للمتن كان أوسع وأكثر من نقدهم للسند، أفصح بعد هذا أن يقال إن المحدثين لم يعنوا بنقد المتن؟ وكيف يقال بعد ذلك كله إن متن الحديث لم يلق من العناية والاهتمام ما لقيه الإسناد؟

إن ما ذكره نولدكه من أن هناك أحاديث سخيصة وغير صادقة قبلت لأنها تعود لشهود ثقات، هو في حد ذاته غاية في السخافة والتضليل والافتراء الذي لا يقبله عقل عاقل، لأن علماء الحديث لم يكن لينظري عليهم حديث سخيصة أو حكاية كاذبة، بل هذا تخرص من نولدكه بغير علم، مبني على إسقاط ما لدى النصارى من سخافات تسربت لأصول دينهم ببسر، وانطلت على جميع رهبانهم بسهولة، فمثلاً إن المسيحية التي وجدت بعد (بولس)، هي شيء آخر غير ما كان معروفاً عنها قبل مجيئه وتحوله إليها، ذلك أن بولس هذا رأى رؤيا وبنى الدين كاملاً على هذه الرؤيا^(٤)، فإذا صح قبول أكبر السخافات التي نسفت بالمسيحية عن

الله بن محمد عبد الرحيم البخاري، ص ٤٩ فما بعدها. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، ص ٣٩٦ فما بعدها.

١ - ينظر: معرفة علوم الحديث، الحاكم النيسابوري، عمان: دار النفائس، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص ٥٩.

٢ - المدرج وهو زيادة تقع في المتن من صلة بأخره أو غيرها من أوله وأثنائه بدون فصل لها عنه. ينظر: التوضيح الأبهري، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ص ٥١.

٣ - ينظر: المستشرقون والسنة، سعد المرصفي، ص ٤٨ فما بعدها.

٤ - ينظر: المسيحية دراسة وتحليل، ساجد مير، ص ٢٤٤.

بكرة أبيها مرة واحدة، فإن مثل هذا مرفوض ولا يصدق في حق دين الإسلام الذي تناقلته الأجيال بضبط وإتقان وأمانة منقطعة النظير، شهد بها العدو والصدوق.

وهذا يبطل -أيضاً- ما استشهد نولدكه به من زعم (جولدتسيهر) بأن جميع صراعات الأحزاب العقائدية والفقهية والسياسية في الحياة الإسلامية قد ترسبت في الحديث الشرعي بواسطة أنصار المذاهب اللاهوتيين، فقبلها الرأي العام، لأن علماء الحديث بينوا درجة صحة كل قول نسب للرسول ﷺ، وكان هناك تركيز أكثر منهم على ما يدعو للريبة من الأقوال التي تؤيد الأشخاص أو الأحزاب والفرق التي نشأت أو تعلقت بها إشكالات بعد ظهور الفتن، وهذا يختلف تماماً عما قام به مجمع نيقية من تمثله لجميع الترهات والأساطير والوثنيات التي كانت سائدة قبل ظهور النصرانية وتشكيل دين جديد منها جميعها، فعقيدة التثليث مثلاً أخذت من البرهميين والبوذيين وقدماء المصريين واليونانيين والرومانيين والفرس وغيرهم من الوثنيين^(١)، وهكذا سائر عقائدهم.

الفرع الثالث: أقسام الحديث

يقوم نولدكه بتقسيم الأحاديث إلى ثلاثة أنواع:

- حديث تفسيري؛ وهو ما تعلق بأسباب النزول.
- حديث السيرة؛ وهو ما تعلق بأحداث اتصلت بحياة الرسول ﷺ وحياته.
- حديث شرعي؛ ويقصد به أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقاريره^(٢).

الردّ

الناظر فيما كتبه المستشرقون عموماً يجد أنهم غالباً ما يقومون باستحداث مصطلحات خاصة بهم، دون أن يشعروا بمدى التغليب والتدليس الذي نشروه بصنيعهم هذا، حتى وإن تعلقت تسمياتهم بعلوم لم يهضموا مداخلها، ولم يسبروا أغوارها، كالحديث النبوي في الإسلام. فنولدكه يبتدع له تسميات ومصطلحات غريبة عن الإسلام وبيئته، وليس هناك فائدة ترجى من استحداثها واستجدائها، ولو قيس عملهم هذا على المعطيات التي انطلق منها أهل الحديث في

١ - للتوسع ولمعرفة أصل المسيحية المحرفة ينظر: المسيحية بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي، مراجعة وتقديم علي الجوهري، القاهرة: دار الفضيلة، ط ١٩٩٢، ص ١٣٥ فما بعد.

٢ - ينظر: تاريخ القرآن لنولدكه، ص ٣٨٣ وما قبلها وما بعدها، حيث احتل هذا التقسيم مساحات واسعة من الكتاب.

لتشكيلهم لأنواعه حسب عدد الرواة أو من حيث القبول والرد، لأننا استخلصنا بون شاسع في الدرجة من كل وجه، يشي بإكبار نظرة المحدثين واحترامهم وإجلال جهودهم، وبالعكس فإنها ستعطي صورة مشوهة ذات منظر مزرٍ لمثل جهود نولدكه وزملائه التي أتيح لها من الإمكانيات والتسهيلات ما يعجز عن ذكره اللسان، وعن تسطيره القلم واليراع، فهذه جهود لا قيمة لها في ميزان البحث العلمي ومن منظور أهل الاختصاص، لأنها لا تقدم ولا تؤخر.

فالحديث يبقى حديثاً سواء استشهد به أهل التفسير، أم كتاب السير، أم المحدثون، أم غيرهم، وإذا كان قصد نولدكه من (حديث السيرة) ما كتبه أهل السير من كلام لا يعود للرسول ﷺ، فخطأ نولدكه يصبح أكبر فداحة حين سمى كلام الناس حديثاً، لأن إطلاق الألقاب أو الأسماء أو المصطلحات عند أهل كل علم في الإسلام منضبط ومقيد بقواعد العلم نفسه، وإلا كان على المطلق أن يبين مراده من إطلاقه، فأين نولدكه من هذا؟

المطلب الرابع: دعوى نولدكه حول الشعر الجاهلي واللغة السريانية

أما ما ادعاه نولدكه بأنه سبق أن تطور الشعر الجاهلي، وإلا لكان القرآن بلغة سريانية أو أثيوبية، فهو مما لم يعلمه أحد من المنصفين، بل يخالف الواقع والتاريخ والمنطق، هدف نولدكه من ورائه محاولة إقناع القاريء أن هناك صلة وثيقة بين القرآن واللغة السريانية، وبمعنى آخر بين لغة القرآن ولغة الإنجيل.

ولكي يوصل القاريء إلى التشكيك في أصالة الألفاظ الرئيسية في القرآن الكريم، وردها إلى أصول غير عربية، عمد إلى لفظة "قرآن" وبيّن أنها مأخوذة من الكلمة السريانية (قرئنا)، ومعناها: القراءة المقدسة⁽¹⁾، وهو تمهيد لإقناع القاريء بأن القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله ﷺ ولم يوح إليه، بل أخذه لغة ومضموناً من المصادر السريانية المسيحية.

ولا بد من التأكيد -ابتداءً- على أن تمسكنا بعربية القرآن ليس عنصرية، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولكن لأن هذه هي الحقيقة، أما الالتواء والتفنيق الاستشراقي لإثبات الأصل السرياني للقرآن فهي أساليب غير نظيفة تخفي ورائها أهدافاً خبيثة.

وما ألغز فيه نولدكه كلامه محاولاً إثبات تأثير الشعر الجاهلي في القرآن الكريم فيبطله واقع كل منهما، وقد قابل علماؤنا السابقون بين القرآن الكريم والشعر الجاهلي في أكثر من

¹ - ينظر: تاريخ القرآن، ص ٣٠ فما بعدها.

ميدان، وأثبتوا من كل ذلك فرقاً كبيراً، حيث توصلوا إلى جوانب عظيمة من إعجاز القرآن الكريم، فالباقلائي -مثلاً- بعدما نفذ فصيحة امرئ القيس التي هي من محاسن قصائده، ومن غرر شعره، أخذ عليه مواضع ناقصه، وتخلّفه عن الأسلوب القرآني ثم قال: "فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تنبته في جهته، وتحرار في بحره، وتضلل دون وصفه"،^١ وبذلك يعلم أهمية وجود الشعر الجاهلي في إبراز سمات الإعجاز القرآني، كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

والسؤال المهم طرحه -هنا- كيف منع الشعر الجاهلي أن يكون القرآن باللغة السريانية أو الأثيوبية؟ وما تأثير هذه اللغات في العربية؟ ولا يحتاج الجواب إلى مزيد شرح وبسط، لذا أكتفي -هنا- باستعراض سريع لتاريخ اللغة السريانية التي دأب المؤلف على الإلغاز بها وتكرير ذكرها باعتبارها لغة أصلية للعرب^(٢) فأقول: إن السريانية تعدّ واحدة من اللغات السامية، كما أنها تعد امتداداً للغة الآرامية في العصر المسيحي، حيث كانت في بادئ أمرها تسمى الآرامية، ويُعرف المتكلمون بها بالآراميين الذين كانوا يعيشون في البلاد التي تسمى في التوراة: "آرام"^(٣)، وهي المعروفة ببلاد الشام والعراق، وقد لاقت هذه اللغة انتشاراً واسعاً، حيث تحدث بها المسيح عليه السلام، وكان إنجيله مكتوباً بها، وبعد أن نفر المسيحيون من تلك التسمية القديمة، لأنهم كانوا يعدونها مرادفة للوثنية والإلحاد، سارعوا إلى الأخذ بكلمة سريان، من وقتها صارت كلمة آرامي تطلق على الوثني، وكلمة سرياني تطلق على النصراني^(٤).

وعلى الرغم من أن أمر اللغات ليس محسوماً فلا يجزم أيها ظهر قبل الآخر، وما مدى التأثير بين اللغات وبعضها البعض، إلا أن نولدكه يقرر في مواضع من كتابه بكل ثقة أن لغة

١ - إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاهرة: دار المعارف، تحقيق: السيد أحمد صقر، ١٨٤.

٢ - بصير المستشرقون على إلصاق الأصل السرياني بالقرآن، وقد ألف ألفونس منجانا كتاباً بعنوان: (التأثير السرياني على لغة القرآن).

٣ - ينظر: السريانية نحوها وصرفها، زكية رشدي، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص ٩.

٤ - ينظر: السريانية وعلاقتها بالعربية، زكية رشدي، مجلة الدراسات الشرقية، العدد الثالث، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٠.

القرآن مدبجة من لغات متعددة، فلا أدري علام يعتمد نولدكه في بحثه لإثبات أسبقية اللغة السريانية كلغة للقرآن على اللغة العربية؟

فالحق أن تاريخ اللغة العربية وبالأخص زمن ظهور الإسلام يمنع تصديق مثل هذا القول، بل ويعده نوعاً من التخريف والهذيان وضرباً من العبث بعقول البسطاء، فأهل اللغة من العرب يفتخرون بما عندهم أيما افتخار، كما أن السريانية وقت ظهور الإسلام لم يكن لها أي وجود في مكة أو منطقة الحجاز بصفة عامة، إذ كانت منحصرة في منطقة جنوب تركيا، لذا فاللغة السائدة والغالبة ضمن حدود البلاد العربية كانت اللغة العربية، كما أنه لم يعلم عن النبي ﷺ معرفة لغة غير العربية، وصدق الله القائل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم: ٤٤.

وعلى الرغم من أن القرآن جاء على أساليب العرب الفصيحة في البيان والتعبير كما قال تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَهُمْ يَنْقُرُونَ ﴾ الزمر: ٢٨ إلا أنه لم يكن متأثراً بالشعر أو بالأدب الجاهلي من حيث المضمون، ولم يدل دليل على أن الشعر العربي حفظ القرآن أو ضمن له الانتشار والثبات، بل العكس هو الصحيح، فوجود القرآن الكريم يعدّ أحد أهم العوامل التي أمدت اللغة العربية بالانتشار والخلود، فلم إذن كلّ هذا التخريف؟

^١ - ينظر المزهري للسيوطي، تحقيق جاد المولى وأبو الفضل وعلي البجاوي، مصر: دار إحياء الكتب العربية، دون تاريخ، ص ٦٤/١ - ٧٦.

المبحث الثاني: أثر نولدكه فيما جاء بعده.

تقدم عند الكلام على مكانة نولدكه في الاستشراق الألماني^(١) أن له مكانة معلومة، وأنه كان يتمتع بصبر وجدد ومثابرة وتضحية وتميز في الأسلوب وقدرة على الإبداع، جعلته محط أنظار مدارس الاستشراق ودوائره، على نطاق واسع، وجعلت لأرائه الصدارة -عندهم- في كل ما يتعلق بالقرآن، فهو أحد أقطاب الاستشراق الألماني ورواده المشهورين^(٢).

وقد سبقت الإشارة هناك -أيضاً- أن أحد أهم مظاهر التميز المنسوب له، يتضح من خلال تقليد المستشرقين له واستمساكهم بمنهجه، وسيرهم على خطاه، حتى غدت أفكاره في هذا المجال مسلمات يتأقلمها اللاحقون وينطلقون منها، بل ويحتقرون نتائجهم بجانب نتاجه^(٣)، وقد دمغت الأبحاث الاستشراقية أكثر من سبعين سنة بطابع شخصيته، واعتبر كتابه (تاريخ القرآن) أهم المصادر الغربية في موضوعه، وخاصة الجزء الثاني الذي عدله شفالي^(٤).

لقد جاءت هذه الظاهرة، على صورة تأثر مباشر وغير مباشر، فليس جميع الذين قبلوا فكرته -من المستشرقين والمستغربين- هم بالضرورة ممن تتلمذ على يديه، أو التقاه وراه عن كثب، فهناك تتلمذ غير مباشر، تتضح معالمه عن طريق تسلسل الأفكار وتواردها عبر أجيال منهم، وربما طرأ عليها شيء من التحوير أو التعديل الطفيف لكنها تعود في أصل فكرتها إلى نولدكه.

ولقد تعدى ذلك الأثر حدود الدائرة الاستشراقية، إلى أوساط متنوعة وواسعة في أصقاع الدنيا كلها وبالأخص إلى الشرق، حيث استقرت اتجاهات مدرسته في بعض العقول العربية، فعليها اعتمدت ومنها انطلقت كما سنرى عند الحديث عن المتأثرين به من غير المستشرقين.

١ - ينظر: المطلب الثالث من المبحث الثالث من الفصل الأول.

٢ - ينعته بذلك المستشرقون وغيرهم من المعجبين، وهو ثناء يناسب ما أسداه من خدمة جليلة لتحقيق أهداف الاستشراق وتطلعاته، لكنه -من وجهة نظر الباحث- إطراء غير جدير به، على ما أبداه من تقريرات تخالف العقل والمنطق والعلم، وتشوه أصول الإسلام، وتدمر فروعه.

٣ - فأثر جفري وهو بروفييسور في اللغات السامية، معهد الدراسات الشرقية، القاهرة -مثلاً- يعترف بأنه لو أسند كتابه: (المفردات الأجنبية في القرآن) لنولدكه؛ لجاء أدق وأوفى وأكثر فائدة، ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إيزاهيم رضوان، ١٤٤/١.

٤ - ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة، ص ٤٠٤، عمود ب.

لذا سنتناول هذا المبحث أثر نولدكه فيمن جاء بعده في جمع القرآن من خلال قسمين؛ أولهما: يختص بأثره فيمن بعده من المستشرقين، وثانيهما: يتعلق بأثره فيمن بعده من غير المستشرقين، لكن ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: بعض المستشرقين المتأثرين بنولدكه

وضعت دراسات نولدكه أمام المستشرقين قاعدة منهجية مهمة للدراسات القرآنية حتى يومنا الحالي، وخاصة كتابه (تاريخ القرآن) الذي وصف بأنه: "مليء بالشبهات التي اجترها من بعده المستشرقون"^(١).

وستعرض الدراسة فيما يلي أهم المستشرقين والآراء التي تأثروا فيها بمنهجه، في مجال جمع القرآن:

- يعدّ أول هؤلاء مدرسة نولدكه التي سبق استعراض بعض رموزها^(٢)، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- فرانكيل (1855 - 1909) تتلمذ بشكل مباشر على نولدكه وكان موضوع رسالته للدكتوراه: (الكلمات الأجنبية في القرآن)، وهي من أهم أعماله في الدراسات القرآنية، تخصص في اللغات الشرقية، وعين أستاذاً لأصل اللغات في جامعة برسلو، وله أيضاً كتاب (الدراسات الشرقية لنولدكه)^(٣).

- شغالي (١٨٦٣ - ١٩١٩) تخرج باللغات الشرقية على نولدكه، فهو من تلاميذه المباشرين، له جهد كبير في إعادة طبع كتابه: (تاريخ النص القرآني).

- إدوارد سخاو (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مؤسس معهد اللغات الشرقية، برلين ١٨٨٨، ويرجع إليه الفضل في تعريف الغرب بالبيروني (حقق الآثار الباقية من القرون الخالية مع

١ - رضوان. عمر إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، ١/١٨٨.

٢ - ينظر: المبحث الثاني من الفصل الأول من هذه الدراسة.

٣ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٤٠١/٢.

ترجمة إنجليزية، لندن ١٨٧٩، وترجمة فرنسية، ليبسيغ ١٩٢٣ بمساعدة فستفيلد (١٨٠٨ - ١٨٩٩)، كما حقق ماللهند من مقولة ١٨٨٧، وترجمه إلى الإنجليزية^(١).

- جوتهلغ برجشتراسر (١٨٨٦ - ١٩٣٣) اهتم بالدراسات القرآنية اهتماماً كبيراً، وشارك بريتل في نشر الجزء الثالث من كتاب نولدكه: (تاريخ النص القرآني)، وله عدة أعمال، توضح مدى تطبيقه لمنهج نولدكه في تناوله للدراسات القرآنية، وكل هذا يشير إلى اهتمامه بعمل نولدكه.

- جيورج يعقوب (١٨٦٢-١٩٣٧)، عني بعلاقة العربية لغة وحضارة بلغات أوروبا الشمالية والشرقية. وأطروحته " تجارة العرب الشمالية البلطيقية" ونال شهادة الأستاذية حول الشعر الجاهلي حقق فيها أسماء النباتات المذكورة في الأشعار (١٨٩٢)، وله أثر الشرق في الغرب ولا سيما في العصر الوسيط (١٩٢٤)، ولقد نقله إلى العربية فؤاد حسنين علي^(٢).

- أوتو بريتل (١٨٩٣ - ١٩٤١) واحد من أهم المستشرقين الدارسين للقرآن الكريم على منهج نولدكه، وقد قام بنشر الجزء الثالث من (تاريخ النص القرآني) لنولدكه بمشاركة برجشتراسر ومن الواضح تركيز بريتل في دراساته القرآنية على تطبيق منهج نولدكه والتوسع في دراسة القراءات القرآنية نشرأ وتحقيقاً وتأليفاً، وجمع مصادر القرآن ومراجعته^(٣).

- بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦) صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي) صرح فيه أنه اعتمد على مؤلفات نولدكه^(٤). ويلاحظ على معظم نتاجه، الصبغة التاريخية، ككتاب (تاريخ الإسلام) الذي يشير إلى الاعتماد على فكرة النشوء والتطور للإسلام، وهو المعنى المرتبط ارتباطاً مباشراً بنظرية نولدكه في دراساته للإسلام^(٥).

- دوائر المعارف (الإسلامية، والبريطانية، والألمانية)^(٦) اعتمدوا على نولدكه كثيراً فيما يخص الدراسات القرآنية.

١ - ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٣٨٩/٢.

٢ - المرجع السابق، ٤٠٨/٢.

٣ - المرجع السابق، ٤٦٢/٢.

٤ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ص ٢٠١.

٥ - ينظر: المستشرقون، نجيب للعقيقي، ٧٧٦ - ٧٨٢.

٦ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٤. وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، فضل حسن عباس، ص ٦٥ فما بعد.

- المستشرق بلاشير: له كتابا: (القرآن) و (مقدمة القرآن)، والذي يدقق فيهما، يلمس وضوح تأثير المؤلف بمن سبقه، وخاصة بنولدكه، الذي اعتمد عليه كثيرا^(١) كما سنرى، بل إن بعض الباحثين قد أشار بصريح العبارة إلى أن بلاشير قد اتكأ في إعدادة الفصل الأول من كتابه: (القرآن) على آراء نولدكه اتكاء ملحوظاً^(٢).

- جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) حيث أفاد من نولدكه كثيراً في الموضوعات القرآنية وخاصة ما يتعلق منها بالقراءات^(٣).

- ريتشارد بل، له كتاب (مقدمة القرآن) عالج في الفصل السادس منه قضية ترتيب القرآن من قبل المستشرقين وخاصة نولدكه^(٤).

- مونتجمري وات، من آثاره: (عوامل انتشار الإسلام) و (محمد في مكة).

- جون برتون، له كتاب: (جمع القرآن) اعتمد في بحثه على من سبقه، وخاصة: نولدكه، وشفالي، وبراجشترسر، وجولدتسيهر^(٥).

- ممن أفاد من جهود نولدكه في موضوع كتابة القرآن وتكوينه، المستشرق الإنكليزي (أنوارسل) في كتابه: (التطور التاريخي للقرآن)^(٦).

- جون جلكررايست، منصرّ ومستشرق معاصر، له كتاب: (جمع القرآن) يعدّ كتابه نسخة رديئة مستخلصة بشكل مشوه من كتاب نولدكه (تاريخ القرآن).

١- ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ١٠٣/١. وكتاب بلاشير (القرآن) يأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب نولدكه فيما يتعلق بتاريخ القرآن من حيث الأهمية. ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، للصغير، ص ١٠٠.

٢ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ٢٩.

٣ - ينظر: الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، محمد حسن جبل، طنطا، ط ٢ - ٢٠٠٢، ص ٥.

٤ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ١٠٣/١.

٥ - رضوان. عمر إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، ١٣٧/١.

٦ - ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسين الصغير، ص ١٠٠.

- أما المستشرق جفري فيذكر بأن كتاب نولدكه (تاريخ القرآن) هو أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا مع زيادات لبعض تلاميذه^(١).

المطلب الثاني: أثر نولدكه في المستشرقين

مما سبق يتبين أن لنولدكه مزايا متعددة جعلت المستشرقين يقبلون عليه وينهلون من تركته فيما يتعلق بالدراسات القرآنية، وق ساعد على ذلك مكانة كتابه (تاريخ القرآن) الذي فاق جميع دراسات المستشرقين في بابيه، ويمكننا تلمس ذلك ضمن الفروع التالية:

الفرع الأول: وقائع جمع القرآن

١ - المرحلة الأولى من الجمع.

ذهب محررو مادة (قرآن) في دائرة المعارف الإسلامية إلى ادعاء أن القرآن لم يكتب كله زمن النبي ﷺ، لذا فقد ضاعت بعض أجزائه، وأنه ﷺ أدخل آيات جديدة ضمن نص قرآني سابق، وكان ينسى بعض نصوصه، وأن القرآن قد اعترف بتبديل آية بأخرى أحسن منها^(٢).

ورجح بروكلمان أن القرآن لم يجمع كله زمن النبي ﷺ، وهو ما أكده كل من بلاشير وبرتون، واستدلوا على ذلك بحديث: (مات النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء)^(٣).

٢ - المرحلة الثانية من الجمع

كما ادعى بلاشير ودائرة المعارف الإسلامية، أن أبا بكر ﷺ لم يجمع القرآن الكريم، وإنما بدأ بعملية الجمع وعمر ﷺ هو الذي أتم الأمر، وهو الجامع الأول من الخلفاء^(٤).
وشكك كل من: ويلش^(٥)، وكتاني، وبروكلمان^(٦)، أن تكون معركة اليمامة سبباً في جمع جمع أبي بكر ﷺ للقرآن.

^١ - ينظر: مقدمة كتاب المصاحف، ابن أبي داود، ص ٤ و ٥.

^٢ - ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، ٤٠٥/٥.

^٣ - ينظر: مقدمة القرآن، بلاشير، ص ٤١. وجمع القرآن، جون برتون، ص ١١٧. وتاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ١٣٩/١. والحديث تم تخريجه ص ٩٢.

^٤ - ينظر دائرة المعارف الإسلامية، ٤٠٦/٥. ومقدمة القرآن، بلاشير، ص ٣٤.

^٥ - ينظر: القرآن الكريم من منظور استشراقي، محمد أبو ليلة، ص ١٥٨.

كما طعن بلاشير ووات في تواتر القرآن الكريم، بسبب حديث أبي خزيمة فيما يتعلق
بآخر سورة التوبة^(٣).

٣- المرحلة الثالثة من الجمع

وزعمت دائرة المعارف الإسلامية، أن الجمع العثماني قد تسبب ببعض المشكلات مع
الصحابة الذين أحرقت مصاحفهم، وخاصة: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأن هذا الجمع قد
اكتننه المنزوع الشخصي، كالولاء لعثمان رضي الله عنه، بحكم القرابة أو المناصرة^(٤).

أما جفري فقد توسع في ذكر الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف الصحابة رضي الله عنهم، وقام
بجمع الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف التابعين فمن بعدهم، والاختلافات المنسوبة إلى
المصاحف المجهولة الأصحاب^(٥).

ويحاول بلاشير أن يصل إلى أن اختيار أعضاء لجنة جمع القرآن، كان لأسباب طبقية،
نابعة من مؤثرات عشائرية، فزعم أن دافع عثمان رضي الله عنه لجمع القرآن الكريم كان دافعاً
ارستقراطياً، ولمصلحة الطبقة المكية الارستقراطية التي كان يمثلها^٦.

١ - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ١/١٣٩.

٢ - ينظر: مقدمة القرآن، بلاشير، ص ٥٧. ومقدمة القرآن، مونتجمري وات، ص ٤٢.

٣ - ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية،
القاهرة: دار الشعب، ٤٠٧/٥.

٤ - ينظر: الجمع الصوتي الأول للقرآن، لبيب السعيد، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ط ١
١٩٦٧، ص ٣٢٣.

٥ - ينظر: مقدمة القرآن، بلاشير، ص ٥٣.

الفرع الثاني: ترتيب القرآن

سبقت الإشارة -في الفصل السابق^(١)- إلى القول بأن نولدكه بعد من أبرز المستشرقين الذين بحثوا موضوع ترتيب القرآن في كتابه (تاريخ القرآن)، حيث تشكلت لديه نظرية وجددت ترحيباً كبيراً في الأوساط الاستشراقية، وبقيت سائدة في الكتابات الغربية وقتاً طويلاً، وما زال الترتيب الذي وضعه نولدكه للسور معتمداً لدى معظم الأوساط العلمية المتخصصة في الغرب، رغم قيام باحثين آخرين مثل الإنكليزي (بل) والفرنسي (بلاشير) بمحاولات مماثلة، لا تحوز القدر نفسه من الرصانة والتحصين^(٢) فريتشارد بل -مثلاً- عندما ناقش المبادرات الاستشراقية في هذا المجال، في الفصل السادس من كتابه (مقدمة في تاريخ القرآن)، عدا مبادرة نولدكه الأكثر قبولا بين جميع المحاولات السابقة^(٣)، لكن مع الاعتراف بأن نولدكه الذي كانوا مدينين له في هذه الفكرة، قد أفاد كثيراً في هذا الأمر، من أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي^(٤).

فمحاولة نولدكه في ترتيب القرآن، وإن كان مسبوقة بها، كتقسيم الفترة المكية إلى ثلاث فترات، من قبل (جوستاف فايل) في كتابه: (الفتوحات الحربية التاريخية في القرآن)، ومن قبل (ويل)، الذي قسم المراحل إلى أربع: ثلاث في مكة، ورابعة في المدينة، إلا أنها تعد أول عمل جاد من قبل المستشرقين في هذا المضمار^(٥).

وبعد محاولة نولدكه تأتي محاولة (جريم) في كتابه: (محمد)، الذي اتبع فيها نولدكه بجميع تفاصيلها، لكن مع تعديل طفيف^(٦)، فقد تعسف في التعامل مع الروايات الخاصة في الترتيب، ليتبع نولدكه في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القرآني^(٧).

١ - ينظر: المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الثالث.

٢ - نولدكه، تاريخ القرآن، مقدمة المترجم، ص ١٧٨.

٣ - ينظر: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، ص ١٢٥.

٤ - هو (أبو القاسم) عمر بن محمد بن عبد الكافي، ت حوالي (٤٠٠ هـ) (١٠٠٩ م) من آثاره كتاب (عدد سور وآي القرآن)، وغيرها. ينظر: معجم المؤلفين، عمر كحالة، ٣١٢/٧.

٥ - ينظر: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، ص ١١٩. وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، فضل عباس، ص ١٨١.

٦ - ينظر: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، ص ١٢٢.

٧ - ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ١٧٦.

ثم يأتي المستشرق (بلاشير) في ترجمته للقرآن، ليعتمد ترتيب نولدكه وشفالي جميعه،
عدا جوانب طفيفة -أيضاً- لا يؤبه لها^(١)، وقد أثنى على ترتيب نولدكه للقرآن أيما ثناء^(٢).

ثم يرجع بعد ذلك، ليقرر استحالة ترتيب القرآن زمنياً، ويرى ضرورة العدول عن هذه
المحاولة، إلى ترتيب القرآن حسب المراحل والموضوعات، مما يهيئ وحدة نفسية وتاريخية
أكثر ملاءمة ومناسبة للترجمة والقراءة^(٣).

أما محاولة (وليم موير) في الترتيب، التي زاد فيها على ترتيب نولدكه، بجعله الفترات
الثلاث عنده مراحل كبرى، فإنه فوق نقد نولدكه وشفالي له فيها، اعترف هو بإخفاقه في هذه
الخطوة^(٤).

ويرى هنري ماسي: أن ترتيب سور القرآن وآياته، إنما وضع بعد وفاة النبي ﷺ^(٥).

وتذهب المستشركة اليهودية لزروس أن القرآن رتب زمنياً ترتيباً عكسياً، فالسور
القصيرة التي في نهايته هي السور المكية، والعكس صحيح حسب زعمها، وتدعي أن أصل
الترتيب هو يهودي حيث تقول: "الترتيب حسب الطول هو أمر شائع وموجود في المشنا"^٦ أما
أما المستشرق اليهودي زاوي فيرى أن ترتيب السور القرآنية يأتي وفق حجمها، ولم يتم في
عصر النبي، بل تأخر قرابة مئة وخمسين عاماً^(٧).

وفي باب بيان سر ترتيب القرآن الكريم على هذا الشكل، يذهب (بروكلمان) -الذي هو
أحد تلاميذ المدرسة الألمانية- إلى اتباع رأي نولدكه الذي قال فيه: "إن زيدا رتب في هذا
الجمع السور حسب طولها، وابتدأ بأطولها بعد الفاتحة، التي وضعها على رأس السور كلها،

١ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٢٤.

٢ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ١/ ١١٣.

٣ - ينظر: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، محمد البشير مغلي، رسالة ماجستير
ماجستير بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، ١٤١٠-١٩٩٠. ص ٢٥٠.

٤ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٢٤.

٥ - ينظر: المرجع السابق، ص ٢٤٨.

٦ - جلاء. محمد، الاستشراق الإسرائيلي، ص ١٧٥.

٧ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٧٥.

وعلى هذا المنوال جمع القرآن أيضاً أبي بن كعب، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري^(١).

وممن أفاد من نولده في هذا الجانب، المستشرق جولد تسيهر، فقد تتلمذ على مائدة المدرسة الألمانية، حيث ذهب إلى برلين سنة (١٨٦٩)، وضمّن موضوع ترتيب القرآن زمنياً كتابه المشهور: (مذاهب التفسير الإسلامي)، ففي الفصل الخامس منه ذكر ما كان من ترتيب الإمام علي عليه السلام، وترتيب عقبة بن عامر عليه السلام، مركزاً على مخالفتها للمصحف العثماني^(٢).

أما المستشرق الفرنسي جاك بيرك^٣ فيرى أن الترتيب الزمني للنزول، يناقض الترتيب الترتيب المصحفي، سواء في السور أم في الآيات^(٤).

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١ - بروكلمان. كارل، تاريخ الأدب العربي، ١/٤١٠.

٢ - ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم، عمر إبراهيم رضوان، ص ١٦٥.

٣ - مستشرق فرنسي، ولد في مدينة (فريندة) الجزائرية، سنة (١٩١٥)، أكمل تعليمه في السوربون، ثم عاد إلى المغرب وعمل بها، ينظر: حوار الاستشراق، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، المركز العربي للدراسات الغربية، ط ١ - ١٩٩٩، ص ١٩ - ٣٤ .

٤ - القرآن وأوهام مستشرق، محمد حسين أبو العلا، مصر: المكتب العربي للمعارف، ط ١، ص ١٣.

الفرع الثالث: روايات جمع القرآن

رفض المستشرق الانجليزي جون وانسبورو في كتابه: (دراسات قرآنية) سنة (١٩٧٧) الرواية الإسلامية في تدوين القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ ثم جمعه في عهد عثمان ؓ. ويذهب برتون إلى أن روايات جمع القرآن الكريم من نسج الخيال، وأن دور زيد بن ثابت ؓ فيه لا أصل له^(١).

وقريب منه ما ذهب إليه ويلش، الذي شكك في روايات الجمع، وعزا سبب وجودها للتعظيم على ما قام به النبي ﷺ من وضع نص جاهز بيده^(٢). وخلص الأمر أن فكر نولده لم يغب عن الساحة الاستشراقية طوال قرن كامل، وخاصة فيما يتعلق بالدراسات القرآنية، ويظهر أن المؤلفين منهم اکتفوا بتريد آراء المستشرقين الكبار مثل نولده ومن تابعه، فراحوا يعرضون أفكارهم كمسلمات دون مناقشة.

^١ - ينظر: جمع القرآن، جون برتون، ص ١١٧ - ١٢٠.

^٢ - ينظر: القرآن الكريم من منظور استشراقي، ص ١٥٩.

المطلب الثالث: أثره في غير المستشرقين.

المتأثرون بمبادئ المستشرقين في الشرق والغرب بشكل عام كثيرون لا حصر لهم، لكن ستقتصر الدراسة على بيان مظاهر تأثر الشرقيين وخاصة المسلمين بهذه المبادئ، وذلك ضمن الفروع الآتية:

الفرع الأول: المتأثرون بالغرب وخطرهم.

لا أظن أن مشكلة الشرق تكمن في الاستشراق وحده، بل من المؤكد أن المعضلة الأدهى تتمثل فيما نجم عنه من آثار، عملت على تكوين روافد نصب في تحقيق مآرب المستشرقين، وخدمة مؤسساتهم، فقد حصل شيء من هذا، على أيدي فئة من العرب والمسلمين تتلمذوا على أيديهم، ونهلوا من جامعاتهم ومدارسهم، فاعتنقوا أفكار الاستشراق القديمة، والتزموا مناهجها الجائرة، وقاموا بنقمة الشخصية الاستشراقية، وإتمام مسيرتها على أكمل وجه^(١)، وأصرروا عليها بعد أن تخلى عنها المستشرقون أنفسهم، صدق بهم قول اللورد كرومر حين وصف متعربة المصريين بقوله: "إنهم مسلمون وليس فيهم خواص المسلمين، وأوروبيون ليس فيهم خواص أوروبية"^(٢) ألا وهم المستغربون^(٣)،

ولم يكف الغرب باحتضان أبناء الشرق في محاضنه في أوروبا، بل عمل على إنشاء مؤسساته في الشرق نفسه، لتقوم بمهمته على أحسن وجه، فهذا كرومر مثلاً - يذكر في احتفال أقيم بمدرسة فيكتوريا، بأن الهدف من هذه المدرسة، تنشئة أجيال من أبناء المسلمين، يكونون جسراً بين الثقافة الغربية ومواطنيهم المسلمين^(٤).

١ - يقول الغزالي: "هناك مستشرقون مصريون، ولدوا في بلادنا هذه، ولكن عقولهم وقلوبهم تربت في الغرب... إنهم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، بيد أنهم خطر على كياننا... وهم سفراء فوق العادة ل (انجلترا وفرنسا وأمريكا) " محمد الغزالي، ظلام من الغرب، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٢ - ٢٠٠٠م، ص٣.

٢ - الفيومي. محمد إبراهيم، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الإصدار الثالث، القاهرة، ١٩٩٤، ص٧.

٣ - لم يكن لطفه حسين -مثلاً- أي جهد يذكر في كتابه: (في الأدب الجاهلي) سوى استعادة نسخ ما لدى أستاذه مرجليوث، ثم القيام بنسبته لنفسه. ينظر: المستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص١٠.

٤ - ينظر: الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥ - ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ص٤٦. وهناك عشرات بل مئات المؤسسات التعليمية الاستشراقية المبنوثة في أرجاء الوطن العربي، من

ومع الأسف الشديد فإن الشبه التي أثارها المستشرقون حول وقائع جمع القرآن الكريم، وبنوا عليها دراساتهم وأبحاثهم، قد احتضنها بعض المستغربين من أبناء المسلمين وولعوا بها، حيث وجدت لها آذناً صاغية تلقفتها وروجت لها، من غير وعي أو تمحيص بل ربما تحت ستار المنهج العلمي والبحث الموضوعي، وما هي إلا صدى لما رده قبلهم المستشرقون.

ولعل أوضح تعبير عن منهج المستغربين هو ما قاله أحد رموزهم -طه حسين- في كتابه:
(مستقبل الثقافة في مصر) حيث يقول:

"إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب".^١

إن لدى المستشرقين من الدوافع والأهداف الظاهرة ما يبرر عملهم، ويسوغ موقفهم تجاه حضارة الأمة وتراثها ودينها^(٢)، أما الكتاب العرب والمسلمون الذين يقتفون آثارهم، فهم فضلاً عن أنهم لا يملكون شيئاً من هذا لأنهم خسروا أعز شيء لديهم وهو الدين، فإن معاولهم تهدد حصوننا من داخلها، وتأتي على بنياننا من جهاته أجمع، لذا كانوا بعملهم هذا أسرع هدماً، وأنضى^(٣) سيفاً، وأوسع شراً، وهذا ما أراده المستشرقون وهدفوا إليه، يقول محمد قطب:
"وعملية التغريب -أو الغزو الفكري- كانت أهم ما يحرص عليه الصليبي المستعمر .. فحين يفقد المسلم شخصيته الإسلامية فإنه يفقد في الحقيقة نقطة ارتكازه .. ومن ثم فإنه يتهاوى ويضيع. حين يظل المسلم مسلماً فإنه يمكن أن "يستعير" من العالم حوله ما يحس أنه في حاجة إليه، دون أن يفقد شخصيته، ودون أن يفقد استعلاءه الذي يستمدّه من الإيمان".^٤

مدارس ومعاهد وجامعات. للاستزادة يراجع كتاب: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن إبراهيم رضوان، ٥٦/١ - ٦٠.

١ - حسين. طه، مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣، د. ط. ص ٤٦

٢ - رسالة المستشرقين في نظر الغرب سامية ومقدسة، لأنهم ينطلقون من قاعدة دينية وفكرية يؤمنون بها، من أجل تحقيق أهداف ذات قيمة خاصة بهم.

٣ - نضاً السيف نضواً وانتصاه: سلّه من غمّده، ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/١٨٢.

٤ - قطب. محمد، مذاهب فكرية معاصرة، ص ٥٧٩.

وإذا ما أخفقت دوائر الاستشراق في تحقيق بعض أهدافها، فحينئذ تلجأ إلى ما تأمل منهم حلاً ناجعاً وعملاً شافياً مضموناً ألا وهم المستغربون^(١).

وعلى العموم، فإن منهجهم في البحث، يتناغم إلى حد بعيد مع ما عند المستشرقين من مناهج، فتراهم يبذلون كل جهد متاح، لردّ النصوص الشرعية المخالفة لمقرراتهم، أو تأويلها تأويلاً تعسفياً، بينما يعتمدون الروايات الموضوعة، والخرافات الساذجة للوصول إلى الأحكام، كما أنهم يحاولون نزع القداسة عن القرآن الكريم، ويتمسكون بتعبيرات غريبة عن بيئة القرآن، مثل: (نص) أو (خطاب) أو (الكتاب المقدس) وغيرها من أوصاف مستوردة من لاهوت أهل الكتاب، مما يوجي بإعجابهم الشديد بالمستشرقين، وانبهارهم الكبير بمناهجهم، فهناك مئات من طلاب العلم المخدوعين يدرسون القرآن وعلومه من مصادر مسمومة وعقول موتورة، للخروج بنتائج خطيرة^(٢)، وهذا هو كل ما استفادوه من الغرب.

ومن رموز هذا التيار: طه حسين، محمد احمد خلف الله، حسين مروة^٣، طيب تيزيني^٤، نصر حامد أبو زيد^٥، محمد عابد الجابري^٦، صادق جلال العظم، حسن حنفي^٧، علي حارب^٨، محمد أركون، وغيرهم^(٩).

١ - ينظر: الحيل والأساليب المنحرفة في الدعوة إلى التبشير، مصطفى فوزي عبد اللطيف غزال، ص ١٩ فما بعدها.

٢ - ينظر الاستشراق الإسرائيلي، محمد جلاء، ص ٥ وما بعدها.

٣ - (١٩٠٨-١٩٨٧)، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني سابقاً أبرز مؤلفاته كتاب: (النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية) الكتاب الذي أثار جدلاً كبيراً في وقته. ترأس تحرير مجلة الطريق الثقافية من العام ١٩٦٦ حتى شباط ١٩٨٧ عندما اغتيل في منزله.

٤ - ولد في حمص عام ١٩٣٤، وتخرج في ألمانيا حاملاً الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٦٧، عمل في التدريس في جامعة دمشق، وهو عضو جمعية البحوث والدراسات.

٥ - مصري واحد من اللاهوتيين المتحررين، يعمل حالياً أستاذاً زائراً في جامعة ليدن بهولندا بعد أن صدر ضده حكم التفريق بينه وبين زوجته بسبب ما كتبه من تجديف وافتراء على القرآن.

٦ - مفكر مغربي ولد عام ١٩٣٥ من مؤلفاته (مدخل إلى القرآن) (للتشكيك في سلامة القرآن من التحريف)، (معرفة القرآن الحكيم أو التفسير الواضح حسب أسباب النزول) في ثلاثة أجزاء وهو أول تفسير علماني للقرآن. نال جائزة بغداد للثقافة العربية اليونسكو. ١٩٨٨.

أما عن أسباب هذا الانبهار والإعجاب لدى هذا الفريق بالفكر الاستشراقي، فيمكن تحديد دوافعه وأبعاده بالعودة إلى ما يتمتع به الغرب نفسه من تقدم مادي أولاً، وبما يتصف به المستغربون إجمالاً من سذاجة وجهل ثانياً، فقد "كان التأثير الاستشراقي عظيماً في نفوس عدد من هؤلاء المسلمين الذين تعلموا في الغرب، أو الذين تحقق لهم نوع من الاتصال بالغرب وحضارته ومؤسساته الثقافية، فأصابهم ما أصاب الغرب عامة من هجر للدين، واحتقار له، وفصل بينه وبين أمور الدنيا.

لذلك لم يتعلم "المستغربون" من الغربيين قط قدرتهم الفائقة على "التنظيم" ولا جلدتهم الشديد على "العمل" ولا التزامهم الشديد "بالانضباط" في كل شيء. إنما تعلموا اللهو والعبث والمجون والرطانة بلغة الأعاجم.. وتعلموا -أسوأ من ذلك كله- التباهي بالانسلاخ من الدين والعرض والأخلاق الدينية المتطهرة من الرجس. وكان ذلك هو التنفيذ الدقيق لوصية الصليبي القديم للصليبيين المحدثين"^(١).

وقد خضع هؤلاء للقيم الغربية وتأثروا بمعطيات الحياة الغربية، وحاولوا نقل قيم الحضارة الغربية إلى عالمنا الإسلامي، على اعتقاد منهم بأفضلية هذه القيم على القيم الإسلامية، نتيجة الانبهار الشديد بحضارة الغرب وتقدمه العلمي والتكنولوجي، والأخذ بمظاهر الحضارة

١ - ولد بالقاهرة عام ١٩٣٥م، وفيها نشأ وتعلم حتى تخرج في جامعة القاهرة، ثم سافر إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراة من السربون، فحصل عليها عام ١٩٦٦، وعاد ليعمل بقسم الفلسفة بالقاهرة ويجيد الدكتور حسن حنفي اللغات التالية: الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

٢ - كاتب علماني لبناني، من مؤلفاته: (أزمة الحداثة الفاتكة: الإصلاح-الإرهاب-الشراكة)، (أصنام النظرية وأطيار الحرية).

٣ - للتوسع ينظر: كتاب نصر أبو زيد ودحض شبهاته، رفعت فوزى عبد المطلب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م. وكتاب: العلمانية وموقفها من العقيدة والشريعة، للدكتور عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، ١٩٩٢م.

وكتاب: حصوننا مهددة من داخلها، للدكتور محمد محمد حسين، جدة: دار الرسالة، الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ٢٠٠ فما بعد.

وكتاب: التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل عباس، ص ٦٦٩ - ٧٠٨. وكتاب: أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والعلمانية والتتوير الغربي، للأستاذ أنور الجندي، القاهرة: دار الفضيلة، بدون تاريخ، ص ٤١٠ فما بعد.

٤ - قطب. محمد، مذاهب فكرية معاصرة، ص ٥٨٠.

الغربية، والاعتقاد بعجز الحضارة الإسلامية عن استيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا الغربية، وعدم تعمقهم في فهم المشكلات الحضارية التي نجمت عن الاستغراق في الحضارة المادية حين انفصلت عن الدين، وأصبحت بلا رقيب ديني أو أخلاقي يوجهها، ويحدد لها هدفها ومسيرتها، كما أنهم لم يتعمقوا في فهم دينهم الإسلامي وتراثهم وحضارتهم الإسلامية^(١).

وبالإضافة إلى هذه الدوافع والأهداف، فهناك ما يشبه السعي لتحقيق الذات، من أجل الحصول على المكاسب الدنيوية من شهرة ومجد، فقد صار الطعن في القرآن الكريم طريقاً سهلة لنيل ذلك، لأنهم يعلمون أنهم سيحظون باحتفال مختلف وسائل الإعلام، وستتنافس دور النشر على تبني أعمالهم، وستتسابق جامعات الغرب على احتضانهم.. وماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وسيكشف لنا هذا الجزء من الدراسة عن بعض أصولهم التي يتحدرون منها في كتاباتهم، وعن المنابع التي يستقون منها في مشاربهم، فأركون مثلاً تلقى كثيراً من معارفه عن العرب والإسلام من أفواه المستشرقين مباشرة، كما ربطته معهم علاقات وثيقة، وشاركهم بنشاطات مختلفة^(٢)، وسنرى بعد قليل أن هؤلاء اكتفوا بترديد آراء المستشرقين من أمثال: نولدكه ومن اتبعه ليس إلا، جاعلين أحكامهم وأبحاثهم في رتبة الحقائق والمسلمات التي لا تحتاج مناقشة ولا تحتمل رداً^(٣).

وبنظرة عابرة إلى أفكار المستغربين الآتية، فإنها ستذكرنا لا محالة بمدى التطابق العجيب مع ما سلف في هذه الدراسة من تقديرات وأحكام تضمنها كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، مما يؤكد صحة تأثيرهم المباشر أو غير المباشر بالمستشرقين، مع الإشارة إلى أن هذه الأفكار سُجلت على سبيل التمثيل لا الحصر، وإلا فاستقصاؤه مما يضيق به المقام.

١ - آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، محمد خليفة حسن أحمد، ص ١٣-١٤.

٢ - ينظر: مجلة إسلامية المعرفة، الاستشراق في فكر محمد أركون بين الشعور بالمديونية والرغبة في التجاوز، الحسن العقابي، ص ٤٩، السنة ١٤، العدد ٥٥، ٢٠٠٩.

٣ - سنكشف لنا الدراسة عن أصل كثير من الأفكار التي تبناها بعض الحداثيين، وسيبضح أنها مستوردة وليست من بنات أفكارهم أو إبداعاتهم.

الفرع الثاني: ما تأثر به المستغربون بنولده في جمع القرآن الكريم.

أود الإشارة ابتداءً إلى أن آراء المستغربين التالية تنتسب إلى أفكار المستشرقين بشكل عام، إذ أن هناك شبه إجماع استشراقي حول ما يتصل بمسائل جمع القرآن، فجلهم يكرر ما سجله قداماؤهم منذ وقت بعيد، مع التذكير بمكانة أفكار نولده فيما يخص القرآن الكريم وعلومه وتقديمها لدى المستشرقين عامه، لذا سيلحظ أن هذه الآراء قد تلقفها المستغربون مباشرة أو بواسطة بعض المستشرقين.

لكن ما هو غني عن الإعادة بيان كون هذه الآراء التغريبية تتماهى حتماً من حيث المعنى مع أفكار نولده السابقة في هذه الدراسة، دونما ضرورة ملجئة لتسجيلها مرة أخرى أو الرد عليها.

١- وقائع الجمع

يرى الجابري أن جمع القرآن الكريم، وترتيبه في مصحف واحد، لم يتم بشكل نهائي إلا في زمن عثمان رضي الله عنه.^(١)

وأما أركون؛ فيذكر روايات المسلمين لجمع القرآن الكريم، ثم يعقب بعدم تسليمه بها، ومن جانب آخر يثني على كتابات المستشرقين حول الموضوع، أمثال كتابات: نولده، في: (تاريخ القرآن)، وشفالي، في (جمع القرآن) وبرجستراسر في: (تاريخ النص القرآني)، وبلاتشير في (القرآن) وغيرهم^(٢).

ويرى الحداد أن جمع القرآن تم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى الله عليه وسلم تدخل في شكل المصحف بالزيادة والنقصان، كما زعم بأن مصحف عثمان ليس هو القرآن الذي كان متداولاً بين المسلمين^(٣).

أما طه حسين فيصف عمل عثمان رضي الله عنه في المصاحف بأنه عمل فيه كثير من

١- ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١ - ٢٠٦، ص: ١٠٧، ١٧٨، هامش: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٣٢.

(٢) ينظر: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط ٣ - ١٩٩٨، ص ٨٦.

٣ - ينظر: القرآن والمسيحية في الميزان، أحمد عمران، بيروت: الدار الإسلامية، بدون تاريخ، ص ٨٣.

وقد قلده طه حسين^٢ المستشرقين^(٣) حينما قال: (هناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم إليه، وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبدئ بها بعض السور، مثل ألم، الر، طس، كهيعص، حم، عسق... إلخ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز وضعت للتمييز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب، فمثلاً (كهيعص) رمزاً لمصحف ابن مسعود، (حم عسق) رمزاً لمصحف ابن عباس (طس) رمزاً لمصحف ابن عمر، وهلم جراً، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً^(٤)).

ب- ترتيب القرآن

ذهب الحداد إلى أن آيات القرآن الكريم لم ترتب في عهد الرسول ﷺ ولا بأمره، مستنداً في ذلك إلى واقع القرآن وتاريخه كما يزعم.

كما ادعى بأن ترتيب سور القرآن تم باجتهاد الصحابة، واعتراه تصحيف كبير^(٥).

د- الرمي بالأساطير والتحريف

١ - ينظر: الفتنة الكبرى، طه حسين، ١ | ١٨٢ وما بعدها. وبهذا يتبين مخالفته تماماً ما استهل به كتابه بقوله: "هذا حديث أريد أن أخلصه للحق وحده، وأن أتحرى فيه الصواب ما استطعت إلى تحري الصواب سبيلاً، وأن أحمل نفسي على الإنصاف لا أحمده ولا أمالي فيه..." طه حسين، الفتنة الكبرى، ٤/١.

٢ - ولد في (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ضاع بصره في السادسة من عمره بعد إصابته بالرمد، حفظ القرآن الكريم قبل أن يغادر قريته إلى الأزهر، على درجة الدكتوراه الأولى في الآداب والثانية في علم الاجتماع عام ١٩١٩ عين أستاذاً لتاريخ الأدب العربي.

٣ - عنون محمد أحمد عرفه مقالا في كتابه: (نقض مطاعن في القرآن الكريم) بقوله: طه حسين يسرق طعونه في القرآن من كتب المبشرين" القاهرة: القاهرة مكتبة الزهراء، طبعة ثانية ١٩٨٦، ص ٤٠.

٤ - مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ج ٢٧ / ص ٤١٤).

٥ - ينظر: المرجع السابق، ص ٨٤.

زعم هشام جعيط، أن بداية حياة الرسول ﷺ، تمثل مشكلة يستحيل حلها، لأننا لا نعرف شيئاً عنه قبل الدعوة، سوى الإشارات القرآنية، وأن ما نقل من ذلك، يعدّ من باب الخيال الديني والأسطورة^(١).

وذهب نصر أبو زيد إلى أبعد من ذلك، إذ ادعى أن كل حديث في القرآن، هو من باب الخرافة والأسطورة^(٢).

ولقد تمثل الفكر الاستشراقي بتمامه حين اعتقد أن القرآن الكريم ذو أصل بشري بقوله: "إننا ننسب القول ببشرية النصوص الدينية"^(٣).

ويقول: "لم ينج القرآن من عمليات المحو والإثبات".

وتبنى بعض أصحاب المدرسة البيانية الحديثة فكرة الطعن بالقرآن الكريم من خلال ادعاء أن في قصصه أساطير لا حقيقة لها^(٤).

ومن ناحية الزعم بتحريف القرآن الكريم، يرى محمد عابد الجابري، في كتابه: (مدخل إلى القرآن)، أن آيات من القرآن قد ضاعت، واستدل بروايات تتعلق بذلك، منها: ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتبت المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي عليه الآن)^(٥).

وقال: "كانت هناك آيات لم تكن معروفة من لدن الجميع، وأن زيد بن ثابت استترك بعضها"^(٦).

وذكر أن دعاء القنوت كان قرآناً، وأنه كان ضمن ما أنزل من سورتي الخلع والحفد^(٧).

١- ينظر: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، بيروت: دار الطليعة، ط١-٢٠٠٧. ص ١٥٤.

٢- ينظر: مفهوم النص، نصر أبو زيد، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠ م. ص ٢٧-٣٠.

٣- المرجع السابق، ص ٢٠٦.

٤- تبني هذه الفكرة أمين الخولي، وأشرف بنفسه على رسالة بعنوان: (الفن القصصي في القرآن) لمحمد أحمد خلف الله، قدمت إلى جامعة الأزهر ولم تجاز. ينظر: الفن القصصي في القرآن الكريم، مُحَمَّد أحمد خلف الله . القاهرة: دار امريث للنشر، الطبعة السادسة-١٩٣٦م

٥- ينظر: مدخل إلى القرآن، محمد عابد الجابري، ص ٢٢٣. والحديث تقدم تخريجه ص ١٨٣.

٦- المرجع السابق، ص ٢١٩.

واستدل على تحريف القرآن الكريم بما روي من أن الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة لم تكونا قد أدرجتا في جمع القرآن الأول.^(١)

واتبع الجابري عامة المستشرقين في التدليل على تعرض القرآن للتحريف بالزيادة والنقصان بأقوال الشيعة وموقفهم من القرآن.^(٢)

وزعم هشام جعيط أن الرسول ﷺ، كان يتصرف في القرآن بقوله: "إن محمداً كان يثري النص القرآني بتعميقه له"^(٣) وأن القرآن قد تعرض للتحريف بالزيادة والنقصان، مدعياً أن

عبارة ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الشورى: ٣٨ ، غريبة على نسق الآية التي وضعت فيها، ويهدف من قوله هذا إلى استنتاج باطل، مفاده أن هذه العبارة مقحمة من قبل عثمان ؓ، فوضعت لمصلحته لأنه أنتخب بعملية شورى. كما زعم أن تكرار آيات القرآن، كان بسبب صيغته الشفوية الأولى.^(٤)

أما أركون؛ فيرى أن القرآن الكريم، يعدّ نصاً وخطاباً أسطورياً، فيقول: "إن الحكايات التوراتية والخطاب القرآني، هما نموذجان رائعان من نماذج التعبير الميثي (الأسطوري)"^(٥).

ويعول الحداد كثيراً في الاستدلال على تحريف المصحف، بالخلاف بين السنة والشيعة، ووجود مصاحف خاصة لكل منهم، يرمي عثمان بالاعتداء على المصحف بالتحريف والزيادة والنقصان.^(٦)

ويتمثل غالب المستغربين مذهب ما يدعى تاريخية القرآن التي ابتدعها فلهاوزن، وطبقها نولدكه على أكمل وجه، في كتابه: (تاريخ القرآن).

-
- ١ - المرجع السابق، ص ٢٢٤ .
 - ٢ - المرجع السابق، ص ٢١٧ .
 - ٣ - المرجع السابق، ص ٢٢٦ وما بعدها.
 - ٤ - جعيط. هشام، تاريخية الدعوة المحمدية، ص: ٢٤٨ .
 - ٥ - المرجع السابق، ص ٢٢، ٢٣ .
 - ٦ - أركون. محمد، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦م. ص ٢١٠.
 - ٧ - ينظر: القرآن والمسيحية في الميزان، أحمد عمران، ص ٩١ - ٩٣ .

فهشام جعيط يرى أن الإسلام بأكمله، هو نواتج طبيعية للعصر الذي نشأ فيه، فيقول:
"إن محمداً كان بالضرورة إفرزاً لعصره"^(١)، وما دام أنه ﷺ إفرزاً للمجتمع الذي عاش فيه، فإن
كل ما جاء به -أيضاً- يخضع للحكم نفسه.

وبهذا السياق، رجح الجابري رأي من زعم بأن القرآن الكريم ظاهرة عربية، يستحيل
فهمها إلا في نطاق معهود العرب، وثقافتهم، وحضارتهم، لأن القرآن يُشكل قوام حياتهم
الروحية، والفكرية، والاجتماعية^(٢).

وادعى الخوري الحداد: عن اقتصار عثمان في جمعه للقرآن على حرف واحد بقوله:
"بذلك أضاعوا علينا معرفة ما كان في الأحرف الستة من مبيانات ومناقضات واختلافات بالنسبة
إلى الحرف الذي أثبتوه واقتصروا عليه".

ويقول: "إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية
يهودية، وأن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة، المنزلة على الأنبياء السابقين،
ومقتبس منها، وأنه كتابي توراتي إنجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه
وجدله"^(٣) إلى آخر كلامه وهذيانه.

خلاصة الأمر أن هذه الشبهات التي تلقفها مفكرون من الشرق والغرب، تضارع إلى حدٍّ
كبير ما طوره نولدكه أو سجله في كتابه ولو لم يكن من نتاجه، وأن الباحث لم يقصد من ذكرها
الحصر بقدر ما يريد التمثيل، وإلا فلن يتسع المقام.

١- جعيط. هشام، تاريخية الدعوة المحمدية، ص ٤٣.

٢- ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم للجابري ص ٢٨.

٣- ينظر: القرآن والمسيحية في الميزان، أحمد عمران، ص ١٠١ فما بعد.

الخاتمة

والآن بعد القراءة الفاحصة والوقفة المتأنية مع نولدكه في القسم الثاني من كتابه (تاريخ القرآن)، وبعد أن ظهر خطأ المؤلف فيما أورده من حجج واهية لا تتم عن دراسة علمية أو وعي تام للأمر، أختتم هذه الدراسة بالنتائج والتوصيات الآتية:

النتائج:

١- خلصت الدراسة إلى أن لنولدكه وكتابه مكانة مرموقة لدى دوائر المستشرقين، وذلك لما أسداه من خدمة جليلة تصب في تحقيق الهدف المشترك لدى دوائر الاستشراق كافة، ولكنه من وجهة النظر الإسلامية عبارة عن إطراء لا يستحقه، لما أبداه من قرارات لا تتفق مع أصول البحث العلمي المتجرد، أو مع ضرورات المنطق وبدهيات العقل، لأن ما يذكر له من دواعي المدح والثناء لا يكاد يظهر بجانب ملامح الذم والإساءة إلا كنقطة في بحر.

٢- توصلت الدراسة إلى أن الاختلاف المزعوم بين مدارس الاستشراق هو اختلاف شكلي لا جوهري، فهناك اتساق عام في الدوافع والأهداف والوسائل، لكن مع التأكيد في هذا الباب على أمرين؛ أولهما: صحة القول بتميز المدرسة الألمانية في مجال الدراسات القرآنية عن سائر المدارس الأخرى، وثانيهما: خطأ القول بإنصافها واعتدالها المتميز من بين المدارس الأخرى في المجال نفسه.

٣- تبين من خلال نتائج الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم وعلومه التي خرج بها المستشرقون، أنهم يعملون لصالح جهات مشبوهة، لذا يصعب الفصل بين دوافعهم العلمية والدينية.

٤- كشفت الدراسة عن خطورة المنهج الاستشراقي المتمثل في الدراسات القرآنية التي طبق فيها بعض المستشرقين اتجاهات نقد العهد القديم على القرآن الكريم، وهم يمثلون المدرسة النقدية الأساسية المرتكزة على قضية المصادر وتاريخ النص، ويتصدر هذه المدرسة: نولدكه، وتلاميذه ومن تبعهم، وتبين أنه لا يصح تطبيقه على نص إلهي ينتمي إلى مجال موضوعي مختلف تماماً عن المجال البشري المحدود، لذا كان تطبيق هذا المنهج فاسداً لأنه اقتضى منهم النظر إلى القرآن الكريم على أنه من صنع البشر، وبالتالي محاكمته على هذا الأساس.

٥- تبين في هذه الدراسة أثر منهج نولدكه في مناهج المستشرقين، وفي تكوين الخلفية

الفكرية والأطر العامة لديهم، وعلى الأخص المدرسة الألمانية، ومن يتتبع رحلة الاستسراق الطويلة، سيلحظ أنهم يقتفي بعضهم بعضاً، فالغالبية العظمى منهم ناقلون مقلدون، أكثر من كونهم باحثين ناقدين.

٦- كشفت الدراسة عن أن نولدكه قد فقد أحد أهم جوانب تميزه من وجهة نظر المستشرقين، ألا وهو امتلاك زمام العلمية في البحث، والموضوعية في النقد، إذ كشفت الدراسة عن جوانب مختلفة من تناقضه وتخطئه وتشتته في المنهجيات التي يزعم استخدامها والتي يمتدحها فيها دائماً بعض الباحثين، مع إخفاق نريع في تلك المناهج في مجال تطبيقها، وخاصة عندما يرتبط الأمر بالإسلام وفروعه وأولها القرآن الكريم، ولم يكن في أي خطوة من خطوات بحثه وفيها للمنهج الذي اعتمده في الدراسة، أو أميناً في تحليله للنص أو صادقاً في طرح أبعاده وبيان مرامييه أمام قارئه، لذا فقد اتبع نولدكه أساليب متعددة للطعن في كتاب الله تعالى، متسترأ تحت غطاء ما يدعى بالمنهج النقدي أو الأسلوب العلمي والموضوعي.

٧- أظهرت هذه الدراسة النقدية لكتاب الأستاذ نولدكه أنه أخطأ في حق القرآن والنبى ﷺ والصحابة ؓ، وروج لأباطيل كثيرة من دون دليل صحيح، كزعمه بأن وقائع جمع القرآن قد اكتتفها الغموض والفضى، وأن كتاب الله قد ضاعت منه بعض المقاطع القرآنية سهواً أو صدفةً أو بسبب نقص الأمانة أو الدقة العلمية، وأن ثقافة الصحابة بدائية، ومعرفة الخلفاء بالقرآن قليلة.

٨- أظهرت الدراسة أن نولدكه لم يكن في مستوى الكتابة عن تاريخ القرآن أو السيرة النبوية، فهو فوق أنه غير قادر على الكتابة التاريخية لاستغراقه في ميسادين اللغات السامية ونقد النصوص المقدسة، فإنه- أيضاً- يستحيل أن يتوصل لنتائج مقنعة فيما يتعلق بتاريخ نص القرآن الكريم، لأنه لا يمتلك المنهج العلمي الصحيح والنزيه الذي يُمكنه من الكتابة في ذلك الموضوع، لذا فقد امتلأ كتابه بالافتراءات والظنون والخرافات والتناقضات من دون أن يقدم أي دليل سليم على مزاعمه، كزعمه بأن النبي ﷺ كان متأثراً بكتب أهل الكتاب، وأنه هو الذي أنتج القرآن وصاغ شكله النهائي، بالإضافة إلى أنه ابتعد عن مقتضيات المنطق في عرض القضايا واستخلاص النتائج، فقد عبث بالأدلة والشواهد لكي يخرج بأحكام جاهزة سلفاً قبل خوضه فيها.

٩- كما أظهرت الدراسة أن محاولة تولدكه تعليل ترتيب سور القرآن الكريم على الشكل الذي هي عليه بقصر السور وطولها كان عملاً عبثياً، وذلك حين جهل أو تجاهل أن الأمر كله منوط بالترتيب الإلهي، مما أوقعه بكم هائل من التناقضات والأقوال المتضاربة والغريبة.

١٠- إن المستشرقين يدعون المحكم الواضح من أي القرآن الكريم، ويأخذون بما قد يكون متشابهاً ليصرفوه إلى ما يوافق معتقداتهم الباطلة، وإن كان في حقيقته لا يدل على ما يدعون، سعيًا منهم لتضليل المسلمين والهجوم عليهم من خلال مسلماتهم، ولا سيما القرآن الكريم، وذلك منذ أيام الإسلام الأولى.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - التوصيات:

يوصي الباحث بما يأتي:

- ١- عقد المؤتمرات والندوات العلمية الدولية حول القرآن الكريم في داخل العالم الإسلامي وخارجه للتعريف بالقرآن الكريم ومفاهيمه، وذلك بالاتفاق والتنسيق مع المختصين داخل الجامعات الإسلامية والعالمية ومراكز البحوث المتخصصة في الدراسات الإسلامية وخارجها، ومشاركة العلماء المسلمين في الندوات والمؤتمرات الاستشرافية وإتاحة الفرصة للعلماء لإلقاء المحاضرات، ونشر الكتب والبحوث باللغات الأوروبية المختلفة حرصاً على أن يصل صوت الإسلام إلى العالم أجمع من أبنائه المؤمنين به لا من أعدائه المحاربين له.
- ٢- مواصلة العمل العلمي الجاد في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى كل لغات العالم مع مراجعة الترجمات الموجودة وتقييمها من علماء أكفاء.
- ٣- وجوب مواجهة أخطار الشبهات، ويتمثل ذلك بدراسة كتب غير المسلمين وعقائدهم، ومناقشتهم بأسلوب علمي رصين.

٤- أن تُضمَّن كتب تفسير القرآن المترجمة إلى اللغات الأخرى ما يكون فيها الجواب على الشُّبه التي يثيرها المستشرقون بين حين وآخر، وعلى نحو غير مباشر مع عدم توسيع الشبهة أو حتى ذكرها.

٥- ضرورة عمل موسوعة إسلامية باللغات الأجنبية العالمية تُعرِّف بالإسلام وحضارته تعريفاً صحيحاً، وتصدر عن هيئة إسلامية يقوم على إدارتها علماء الإسلام للردّ على الشبهات وتفنيد دعاوى الخصم.

٦- وجوب مناقشة نولده، والتصدي لما تضمنته مؤلفاته من شبهات ومطاعن.

وبعد، فهذا ما يسره الله تعالى لي وأعاني عليه، فأرجو ختاماً أن أكون قد وفيت الدراسة حقها من العرض والنقد والتوصل إلى النتائج المترتبة عليها، وأرجو أيضاً أن تكون هذه الدراسة قد حققت غرضها من الانتصار للحق وتعرية الباطل، لعلني أكون قد أدت جزءاً من واجبي في المنفعة عن هذا الدين، ورد كيد المعتدين.

وأخيراً دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع:

أ- المراجع العربية

- أركون. محمد، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط ٣، ١٩٩٨.
- أركون. محمد، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- الأباني. محمد ناصر الدين، مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٥ - ١٩٨٥.
- الأوسي. شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٤، ١٩٨٥ م.
- بارت. رودى، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة: دار نولدكه العربي، ١٩٦٧ م.
- الباقلاني. أبو بكر محمد بن الطيب، الانتصار للقرآن، حققه عمر الفتيام، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٤ م.
- الباقلاني. أبو بكر محمد بن الطيب، نكت الانتصار لنقل القرآن، ت ٤٠٣ هـ، تحقيق محمد زغلول سلام، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧١ م.
- البخاري. محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري المسمى (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) اعتنى به: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة-بيروت، ط ١-١٤٢٢ هـ.
- بدوي. عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر بدون تاريخ.
- بدوي. عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٩٣.
- بروكلمان. كارل، تأريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة: دار المعارف، ط ٢.
- بسانتة. أحمد عزت شيخ، علماء الغرب ومفكره، ما الذي وجدوه في الإسلام والقرآن، دمشق: التكوين للطباعة والنشر، ٢٠٠٤ م.

البستي. محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

البقاعي. إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط ٣ - ٢٠٠٦م،

البكري. أبو عبيد، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس، لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧١.

البلاذري. فتوح البلدان، تعليق رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م. بلاشير. القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، ط ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.

بهاء الدين. محمد، المستشرقون والحديث النبوي، عمان: دار النفائس، ط ١، ١٩٩٩م.

بوكاي. موريس، والتوراة والإنجيل القرآن والعلم، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٩٩٠. البيهقي. أحمد بن الحسين، الجامع لشعب الإيمان، الهند/ بومباي: الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

الترمذي. أبو عيسى محمد، جامع الترمذي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (ت ٢٩٧هـ)، بدون تاريخ.

الجابري. محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠٠٦م.

جبل. محمد حسن، الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، طنطا، ط ٢، ٢٠٠٢م.

جحا. ميشيل، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، بيروت: معهد الإنماء العربي. الجديع. عبدالله بن يوسف، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ليندز-بريطانيا: مركز البحوث الإسلامية، ط ١، ٢٠٠١م.

الجرجاني. علي بن محمد، كتاب التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٣م.

ابن الجزري. أبو الخير محمد، النشر في القراءات العشر، راجعه الشيخ علي محمد الضباع، دار الكتاب العربي - بدون تاريخ.

ابن الجزري. محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.

جلاء. محمد، الاستشراق الإسرائيلي، القاهرة: العربي للنشر، ١٩٩٥.

جعيط. هشام، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٧. ابن الجوزي. عبدالرحمن بن علي، (٥٩٧هـ) نواسخ القرآن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

جلكريست جون. جمع القرآن، كتاب مأخوذ عن الانترنت على الموقع الآتي:
www.an-swering-islam.org\Arabic\Gilchrist\jam

الحاج. ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، بيروت- دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢.

ابن حزم. أبو محمد علي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٩٨٠م.

ابن حزم. أبو محمد علي، المُحكَّى، بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ.

حسن. محمد خليفة، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٧.

حسين. طه، الفتنة الكبرى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م.

حسين؛ محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥ - ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

الحلبي. علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية في سيرة الأمين العامون، بيروت: دار المعرفة، ط١٤٠٠هـ.

الحميد. حميد بن ناصر، القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية، بحث مقدم لندوة الاستشراق، ٣٠/٣٢ السنة

الخضري. محمد، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، بيروت: دار الكتب العلمية، دون تاريخ.

الخطيب البغدادي. أحمد بن علي بن ثابت، الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، القاهرة: دار الهدى، ط١ - ٢٠٠٢.

خلف الله. محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، القاهرة: دار امريث للنشر، الطبعة ١٩٣٦، ٦م.

- خليفة. إبراهيم، الإحسان في مباحث من علوم القرآن، دار الحديث للنشر - القاهرة ط ١، ٢٠٠٢م.
- خليل. عماد الدين، قالوا عن الإسلام، ط ١، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الدارقطني. علي بن عمر أبو الحسن البغدادي، السنن، دار المعرفة - بيروت، د.ط، ١٣٨٦ - ١٩٦٦. تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني
- دراز. محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت: دار القلم، ط ١، ٣١٤٠هـ - ١٩٨١م.
- دراز. محمد عبد الله، انبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ط ٣، ١٩٧٤م،
- الدليمي. أكرم، جمع القرآن، دراسة تحليلية لمروياته، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٦م.
- ديدات. أحمد، الاختيار بين الإسلام والنصرانية، ترجمة: أكرم ياسين الشريف، مكتبة العبيكان، ط ١ - ٢٠٠٨.
- ديدات. أحمد، من دحرج الحجر، ترجمة خليل إبراهيم احمد، سلطنة عمان: دار المنار، ١٩٨٨.
- دي كاستري. هنري، الإسلام خواطر وسواتح، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩١١م، ص ٢٢-٢٣.
- الذهبي. شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٠، ١٩٩٤م.
- الذهبي. الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني، تذكرة الحفاظ، الناشر مكتبة الحرم المكي، بدون تاريخ.
- الذهبي. شمس الدين محمد بن أحمد، الكاشف، دار القبلة للثقافة الإسلامية، حققه محمد عوامة، جدة: مؤسسة علو، ط ١، ١٩٩٢م.
- رضوان. عمر بن إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دراسة ونقد، الرياض: دار طيبة للنشر، بلا تاريخ.
- أبو رية. محمود، أضواء على السنة النبوية أو دفاع عن الحديث، قدم له طه حسين، مصر: دار المعارف، ط ٦، ١٩٥٧م.
- الزحيلي. وهبة، أصول الفقه الإسلامي، دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٦.

- الزرقاني. محمد عبد العظيم، *مناهل العرفان في علوم القرآن*، بيروت: دار إحياء التراث العربي .
- الزركلي. خير الدين، *الأعلام (قاموس تراجم)*، بيروت: دار العلم للملايين ، ط ٦ ، ١٩٨٩م.
- الزركشي. محمد بن عبدالله، *البرهان في علوم القرآن*، القاهرة: دار التراث، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د ت.
- زقروق. محمود حمدي، *الإسلام في تصورات الغرب* ، مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٨٧م .
- الزمخشري. جار الله محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجوه التأويل*، بيروت : دار المعرفة، دون تاريخ.
- الزيادي. محمد فتح الله، *الاستشراق أهدافه ووسائله*، بيروت: دار قتيبة ، ط ٢/ ٢٠٠٢
- ابن زنجلة. عبد الرحمن، *حجة القراءات*، مؤسسة الرسالة، ط ٤/ ١٩٨٤.
- الزهري. محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري، *الطبقات الكبرى لابن سعد*، بيروت: دار صادر ، الطبعة ١، ١٩٦٨م تحقيق: إحسان عباس.
- أبو زيد. نصر حامد، *مفهوم النص*، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
- زيغريد. هونكه، *شمس الله تسطع على الغرب*، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال نسوقي، بيروت : دار الجبل، ط ٨ - ١٩٩٣.
- السايع. أحمد عبد الحميد، *الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي*، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٦م.
- السباعي. الشيخ مصطفى، *الاستشراق والمستشرقون*، ما لهم وما عليهم، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣/ ١٩٨٥م.
- السجستاني. ابن أبي داود، *كتاب المصاحف* ، حققه محمد بن عبده ، ط ١ ، دار الفاروق الحديثة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- السجستاني. أبو داود سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، بدون تاريخ.

السعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط ١ /
١٩٨١م.

السعيد. لبيب، الجمع الصوتي الأول، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧ .
سمايلوفيتش. أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، (رسالة دكتوراه
منشورة)، د.ط، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠.

السيوطي. جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق محمود القيسية وزميله، أبو ظبي:
مؤسسة النداء، ط ١، ٢٠٠٣.

السيوطي. جلال الدين، المزهر، تحقيق جاد المولى وأبو الفضل وعلي البجاوي، دار إحياء
الكتب العربية بمصر، دون تاريخ.

شاكر. أحمد محمد، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير، بيروت: دار
الكتب العلمية، ط - ١٩٥١.

أبو شامة المقدسي. عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، المرشد الوجيز إلى علوم الكتاب
العزیز، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣.
شحاته. عبدالله محمود، علوم القرآن، القاهرة: دار غريب، ط ٢، ٢٠٠٢.

شليبي. عبد الجليل، ردّ مفتریات المبشرين على الإسلام، مكتبة المعارف، الرياض،
ط ٢، ١٩٨٥.

أبو شهبه. محمد محمد، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، القاهرة،
١٤٠٩هـ/١٩٨٩م الطبعة الأولى.

أبو شهبه. محمد محمد، مدخل لدراسة القرآن الكريم، الرياض: دار اللواء، ط ١، ١٤٠٧هـ -
١٩٨٧م.

الشوكاني. محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،
تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ١،
١٩٩٤م.

الشيبياني. أحمد ابن حنبل، المسند (مسند الإمام أحمد)، تحقيق شعيب الإرنؤوط وآخرين،
بيروت-مؤسسة الرسالة، ط ٢ - ١٩٩٩.

- ابن أبي شيبة. المصنف، تحقيق : كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد ، ١٤٠٩ .
- الشيخ. أحمد، حوار الاستشراق من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، المركز العربي للدراسات الغربية، ط١ ، ١٩٩٩ .
- الصالح. صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١١ - ١٩٧٩ .
- الصالح. صبحي، مباحث في علوم القرآن، بيروت: دار العلم للملايين ، ط١٥ ، ١٩٨٣ .
- الصباغ. محمد بن لطفی، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣ ، ١٩٩٠م .
- الصغير. محمد علي حسين، المستشرقون والدراسات القرآنية ، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١ / ١٩٩٨م .
- الصنعاني. أبو بكر عبد الرزاق بن همام، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٢ - ١٤٠٣هـ .
- الصنعاني. محمد بن إسماعيل الأمير الحسنی، توضیح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المكتبة السلفية - المدينة المنورة، ط٢، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد.
- الطبراني. المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله وزميله، القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ .
- الطبري. محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م .
- ابن عاشور. الطاهر محمد، تفسير التحرير والتنوير، د.ط، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م .
- المالم. عمر لطفی، المستشرقون والقرآن، مالطا: منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ص ٢٦ .
- العاني. عبد القهار، الاستشراق والدراسات الإسلامية، عمان: دار الفرقان ، ط١ / ٢٠٠١ .
- عباس. فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن ورد شبهات ، عمان : دار الفتح ، ٢٠٠٠م .
- ابن عبد البر. يوسف بن عبدالله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي الجاوي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٦٠م .

عتر. حسن ضياء الدين، وحى الله، حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة، نقض مزاعم

المستشرقين، دمشق: دار المكتبي، ط ١، ١٩٩٩.

عتر. نور الدين، منهج النقد في علوم الحديث، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع النشر، ط ٣،

١٩٩٢م.

العراقي. الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين، ألفية السيرة النبوية المسماة: نظم الدرر

السنية في السيرة الزكية، تحقيق وتعليق: محمد بن علوي المالكي، دار المنهاج

دون طبعة وتاريخ.

العراقي. الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين، المعني عن حمل الأسفار في الأسفار في

تخريج ما في الإحياء من الأخبار، الرياض: مكتبة طبرية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تحقيق: أشرف

عبد المقصود.

عرفه. محمد أحمد، نقض مطاعن في القرآن الكريم، القاهرة: مكتبة الزهراء، ط ٢، ١٩٨٦.

عزوزي. حسن، دراسات في الاستشراق ومناهجه، فاس: الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

العززي. عبد المنعم صالح العلي، دفاع عن أبي هريرة، بيروت-لبنان: دار القلم، ط ٢، ١٩٨١.

العسقلاني. الحافظ ابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري، دار الريان للتراث-القاهرة،

ط ٢-١٩٩٨.

العسقلاني. الحافظ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث-القاهرة،

ط ٢-١٩٩٨.

العقيقي. نجيب، المستشرقون، مصر: دار المعارف، ١٩٦٤م.

ابن عقيل. بهاء الدين عبدالله، شرح ابن عقيل، بيروت- دار الفكر، ١٩٨٥م.

أبو العلا. محمد حسين، القرآن وأوهام مستشرق، مصر: المكتب العربي للمعارف، ط ١.

العماد الحنبلي. الإمام أبو الفرج عبدالحى، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت، ط الثانية

١٣٩٩هـ

عمارة. محمد، القرآن يتحدى، القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، ط ١ - ٢٠٠٩.

عمارة. محمد، الإسلام في عيون غربية، القاهرة: دار الشروق، ط ٢٠٠٤.

عمارة. محمد، الإسلام والغرب افتراءات لها تاريخ، مصر: مركز الإعلام العربي، ط ١
٢٠٠٦م.

عمران. أحمد، القرآن والمسيحية في الميزان، بيروت: الدار الإسلامية، بدون تاريخ.

عوض. إبراهيم، دائرة المعارف الإسلامية الاستشرافية أضاليل وأباطيل، مكتبة البلد الأمين
ط ١، ١٩٩٨م.

عوض. محمد عبد الرحمن، الاختلاف والاتفاق بين إتجيل برنابا والأنجيل الأربعة، القاهرة:
دار البشير للطبع، بدون تاريخ.

عيسى. أحمد عبد الرحمن، كتاب الوحي، الطبعة الأولى، دار اللواء، الرياض، ١٤٠٠هـ.

غزال. مصطفى فوزي عبد اللطيف، الحيل والأساليب المنحرفة في الدعوة إلى التبشير، مكتبة
جامعة أريزونا، بدون طبعة وتاريخ.

الغزالي. مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، بيروت: دار النفائس، ط ١،
٢٠٠٨م.

الغزالي. محمد، ظلام من الغرب، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ط ٢ - ٢٠٠٠م.

الفراهيدي. الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال - تحقيق: مهدي المخزومي
وإبراهيم السامرائي، بلا طبعة وتاريخ.

فوزي. فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ط ١،
١٩٩٨.

فوك. يوهان، تاريخ حركة الاستشراق، بيروت: دار قتيبة، د ت.

الفيومي. محمد إبراهيم، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية، الإصدار الثالث، القاهرة، ١٩٩٤.

القطان. مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتب
العلمية، ط ١ / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٨٢م.

قطب. سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ١١، ١٩٨٥.

قطب. محمد، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق - بيروت، ط ٨ - ١٩٩٣.

كحالة. عمر رضا، معجم المؤلفين: تراجم مصنفى الكتب العربية، دمشق: المكتبة العربية، ١٩٦١م.

ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، بدون تاريخ.

ابن كثير. أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار الجيل، دون تاريخ.

أبو ليلة. محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية، مصر: دار النشر للجامعات، ط ١، سنة ٢٠٠٢م.

المباركفوري. عبيد الله بن محمد، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بالهند: نشر إدارة البحوث الإسلامية والدعوة، بالجامعة السلفية، ط/٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

المجالى. محمد خازر، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، عمان: من منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط ٤، ٢٠٠٨.

مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشنتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة: دار الشعب، الطبعة الثانية.

المرصفي. سعد، المستشرقون والسنة، الكويت: مكتبة المنار، وبيروت: الريان، ١٩٩٠.

مطبقاني. مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامى، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٩٩٥م.

المطيري. عبدالمحسن بن زين بن متعب، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع

عشر الهجري والرد عليها، رسالة لنيل درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم في

القاهرة، ٢٠٠٣م، الكويت: دار البشائر الإسلامية، د.ط.

المعافري. محمد بن عبد الله بن محمد المالكي، العواصم من القواصم في تحقيق موقف

الصحابية بعد وفاة النبي ﷺ، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧، تحقيق:

د. محمد جميل غازي، ص ٢٤٢.

معوذ؛ محمد. جمع القرآن، (رسالة دكتوراه) كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٩٨٤.

مغلي. محمد البشير، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، رسالة ماجستير بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ١٤١٠-١٩٩٠.

المنجد. صلاح الدين، المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م.
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، القرآن الكريم (دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية) الصادرة عن دار بريل في لايدن، ١٩٩٧.

ابن منظور. جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه مكتب تحقيق التراث، بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط٣، ١٩٩٣.

الميداني. أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م،

الميداني. حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، التبشير الاستشراق الاستعمار، دمشق: دار القلم، ط٥، ١٩٨٦م.

ابن نبي. مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، بيروت: دار الإرشاد، ط١، ١٩٦٩م.

الندوي. أبو الحسن علي الحسيني، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣م.

النسائي. أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، المجتبى من السنن، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها.

النملة. علي بن إبراهيم، الاستشراق والدراسات الإسلامية، الرياض: مكتبة التوبة، ط١، ١٩٩٨م.

نولدكه. تيودور، تاريخ القرآن، تعديل فريديريش شفالي، نقله إلى العربية وحققه جورج تامر بيروت: مؤسسة كونراد- أنانور، ٢٠٠٤م.

النووي. أبو زكريا يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا،

بيروت: إدارة الطباعة المنيرية، ودار الكتب العلمية، د.ت.

النووي. أبو زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت: دار الكتب العلمية.

النيسابوري. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، الجامع الصحيح المسمى: صحيح

مسلم، بيروت: دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة، بدون تاريخ.

الهروي. أبي عبيد القاسم بن سلام، فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، تحقيق: أحمد عبد الواحد

الخطاطي، المغرب: وزارة الأوقاف، ١٩٩٥.

ابن هشام. أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، حققها مصطفى السقا وزميلاه، بيروت: دار

الخير، ط ١، ١٩٩٢م.

الهيثمي. نور الدين علي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الفكر، طبعة ١٩٩٢.

وصفي. محمد، المسيحية بين الحقائق والأوهام، مراجعة وتقديم علي الجوهري، القاهرة: دار

الفضيلة، ط ٢، ١٩٩٢.

اليحصبي. العلامة القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الأندلسي، اشفا بتعريف حقوق

المصطفى ﷺ، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة ٣، ١٣٦٩هـ -

١٩٥٠م.

الدوريات والأبحاث وقواميس الكتاب المقدس:

الخطيب. عبدالله عبدالرحمن، الرد على مزاعم المستشرقين جولدسيهر وشاخت ومن أيدهما من المستغربين، ندوة العناية بالسنة والسيرة النبوية، التي نظمها مجمع طباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، الثلاثاء ١٥ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - الخميس ١٧ ربيع الأول ١٤٢٥هـ.

خلف. القس غسان، الفهرس العربي لكلمات العهد الجديد اليونانية، بيروت - لبنان: دار النشر المعمدانية، ١٩٧٩م، ١٠٢١ صفحة.

رضا. صالح أحمد، النظر في متن الحديث في عصر النبوة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد الثاني والعشرون، شوال ١٤٢٢هـ/ديسمبر ٢٠٠١م.
سيف الإسلام. محمد، شمعل عميدة الاستشراق الألماني، زاوية دنيا الرأي، مجلة دنيا الوطن، فلسطين، عدد ٢٩/٧/٢٠٠٥.

شتيفان. فيلد، ملاحظات على مساهمات المستشرقين في الدراسات القرآنية، بحث منشور في ندوة الاستشراق في المدينة المنورة ٢/١١.

العالم. عمر لطفي، نحن والاستشراق، ضمن رسالة الجهاد، ٨٨٤، ١٩٩٠م.

العباقي. الحسن، الاستشراق في فكر محمد أركون بين الشعور بالمدنيونية والرغبة في التجاوز، مجلة إسلامية المعرفة، السنة ١٤، العدد ٥٥، ٢٠٠٩.

عزوزي. حسن، مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، بحث مقدم لندوة الملك

فهد حول: (القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية).

مسوح. جورج، تاريخ القرآن (كتاب ونعرات طائفية) مقال في جريدة النهار اللبنانية،

٢٠٠٥/٩/١٨.

مكرم. مشرقي، معجم أسماء الكتاب المقدس، مصر: مكتبة الأخوة، ط١، ٢٠٠٠م.

نادفي، سيد مظفر الدين، التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة عبدالشافي غنيم عبدالقادر، مصر:

لجنة البيان العربي، ١٩٥٦م.

نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير:

بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمس، إبراهيم مطر.

نخبة من أشهر أساتذة الكتاب المقدس واللاهوت، دائرة الموسوعة الكتابية، قاموس مرتب

حسب الأحرف الأبجدية والموضوعات، جمعه في كتاب الكتروني: مجاهد في الله،

موقع المسيحية في الميزان وموقع ابن مريم.

اليسوعي. صبحي حموي، دليل عربي يوناني لألفاظ العهد الجديد، بيروت: دار المشرق، ط١،

١٩٩٣م.

يوسف. عبدالله، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، مركز

الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد ٥٧.

ج- المراجع الأجنبية

- Blachere, R. Introduction au Coran, Paris, 1947
- Burton, J. **The Collection of the Qur'an.** Cambridge University Press, Cambridge, England. 1977.
- Encyclopedie de I ' Islam, Leyde, 1913 suiv.
- Jeffery, A. **The Qur'an as Scripture.** Books for Libraries, New York, USA. (1952).
- Noeldeke, T. **Geschichte des Qorans.** Georg Olms Verlag, Hildesheim, Germany. (1909).
- Watt, W.M. **Bell's Introduction to the Qur'an.** Edinburgh University Press, Edinburgh, Scotland. 1970.
- **WIKIPEDIA**

© Arabic Digital Library Yamouk University

المُلخَص وَالْفَهَارِس

© Arabic Digital Library - Sismouk University

ملخص

الجزء الثاني من كتاب نولدكه (تاريخ القرآن) ص (٢٣٧-٤٢٩)

١- حفظ تدوين الوحي في أيام محمد على أساس تلويحات قرآنية ووضع السور النصي^١:-

افتتح نولدكه كلامه بذكر إشارات قرآنية تؤيد حصول تدوين القرآن الكريم زمن النبي ﷺ، مشيراً إلى أن هناك روايات غير وثيقة تصرح بأسماء كتبة الوحي، ثم يشير إلى ما ذهب إليه لامنس من أن سبب دعوة الله لرسوله لئلا يستعجل تدوين القرآن، إنما كان لأجل ترك المجال لنفسه لعله يريد تغيير النص، لكنه لا يسلم به، وادعى أن التحليل الأدبي للسور يفيدنا بأن الرسول ﷺ كان يُدخل آيات متفرقة في مجموعات أكبر، وأن الأسلوب الوعظي للقرآن الكريم قد نتج عنه مشكلتان هما:-

- صعوبة اكتشاف أسرار ترتيب الآيات.
- صعوبة تحديد نسبة الآيات، هل تعود للنبي أم لمحررين لاحقين؟

وعلى كل فإن الوحدة الأدبية المستحيلة في السور الكبيرة هي محتملة في سور قليلة، وعملية تدوين القرآن من خلال تدخل الرسول ﷺ أفقده الكمال أو الأمانة الحرفية، فالرسول ﷺ نسي بعضه، وبعضه الآخر قد نسخ، وذلك لأنه اعتمد في نقله على الحفظ دون التدوين.

أما روايات جمع القرآن الكريم المرتبطة بعمل الخلفاء الثلاثة فإنها مطبوعة بنزعات ذاتية غير موضوعية كما يزعم.

٢- جامعو القرآن غير الأصيلين أو حفاظ الوحي^٢

^١ - تاريخ القرآن، نولدكه، ص (٢٣٧-٢٤٠)

^٢ - المرجع السابق، ص (٢٤٠-٢٤٦).

جزم نولدكه - هنا - أن القرآن الكريم لم يجمع كله زمن النبي ﷺ لأنه توفي فجأة، ولأنه قد روى عن زيد نفسه ما يؤيد نحو هذا، محاولاً إبراز عدد من الروايات المتضاربة في شأان الجامعين وتعيينهم ، وحجم تدخل النبي ﷺ في شكل القرآن وصياغته.

المعرفة القرآنية الشعبية عند الخلفاء الأولين

بنى المؤلف رأيه تحت هذا العنوان على فكرة مفادها: أن العلم بالقرآن مقصور على الحضر وأهل المدن، وأن أهل البادية لم يكونوا على علم به حتى وإن كانوا قادة للجيش، واستدل لها بروايات ونقول اعترف هو في ختامها بأنها لم تكن سوى أقاصيص.

٣- المجموعات والنسخ المكتوبة

- علي باعتباره جامعاً للقرآن

يرفض نولدكه كل ما ينسب لعلي من جمع للقرآن، فهو يعتمد على روايات شفهية مشكوك بأمرها، تخالف وقائع التاريخ الأكيدة، مستعرضاً ما لدى اليعقوبي من ترتيب للقرآن الكريم منسوب لعلي عليه السلام، كان قد قسمه سبعة أجزاء، وناقدا لهذا الترتيب بأنه يقوم على ترتيب عثمان، أما تقسيمه فيعتمد على عمل متأخر، ربما وقع في الفترة الأموية.

ويشير هنا باقتضاب إلى جمع سالم بن معقل للقرآن، ثم يشرح كيف بدأ اختيار اسم مناسب للمادة المجموعة، فسالم هذا رفض اسماً مقترحاً وهو (سفر) بحجة صلته باليهود، لكنه اختار اسم مصحف الذي أخذ من الحبشة.

٤- جمع زيد بن ثابت (الأول)

أ- الرواية السائدة^١

يقوم نولدكه بتقسيم الروايات إلى نوعين: سائدة ومختلفة، فيقصد بالرواية السائدة تلك الرواية المشهورة والمعتمدة في أوساط المسلمين، فيستعرض كافة عناصرها مركزاً على مواطن الاختلاف في مضمونها، محاولاً إثبات أن المحفوظ كان مكتملاً للمكتوب، لا مؤيداً له،

^١ - المرجع السابق ، ص(٢٤٦-٢٤٩).

بمعنى أن زيدا اعتمد على المكتوب أولاً فلما أعجزه بعض المقاطع ولم يجدها بين المكتوب، أكمله مما وجد محفوظاً عندهم، كالذي حصل لخاتمة براءة حيث وجدت عند رجل يقال له: خزيمة أو أبو خزيمة.

ب- الروايات المختلفة^١

وهو القسم الثاني الذي يقصد به الروايات المتضاربة أو غير المعتمدة أو غير المشهورة لدى المسلمين، حيث إن هناك أخباراً تفيد عدة معان منها:-
أن الجامع الأول للقرآن الكريم هو عمر وليس أبا بكر.
أن عمر توفي قبل أن يتمكن من إكمال الجمع.
أن السبب الباعث على جمع القرآن زمن عمر هو ضياع آية لم يكن يحفظها إلا واحد سقط في الإمامة.
أن عمر تصرف بحرية في إضافة نص للقرآن الكريم، فقد خاف مرة من أن يستاء المؤمنون إذا لم يجدوا هذه الآية في القرآن الكريم، ومرة أخرى منعه من إضافتها، خشية من اتهامه بإضافة شيء للقرآن ليس منه.
هناك رأي توفيقى، يرى أن الجمع بدأ زمن أبي بكر وانتهى في عهد عمر رضي الله عنهما.
أن أبا بكر رفض جمع القرآن، فقام به عمر.
أن من مؤهلات زيد للقيام بمهمة الجمع: الفتوة، والذكاء، والعمل السابق ككاتب للوحي، وليس في المصادر ما يدل على أنه كان حافظاً للقرآن، لكنه تصرف في القرآن بشكل ما.

أ- نقد الروايات^٢

يدعي المؤلف أن للمسلمين في وقت نشوء الجمع ثلاثة آراء
- أنه نشأ في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

١ - المرجع السابق ، ص(٢٤٩-٢٥١)

٢ - المرجع السابق ، ص(٢٥٢-٢٥٦)

- أنه نشأ في عهد عمر.

- أنه نشأ في عهد أبي بكر وتم في عهد عمر رضي الله عنهما.

فرواية المسلمين متناقضة مع بعضها أو مع غيرها، أما معركة الإمامة التي جعلت سبباً للجمع فكانت أمراً مصطنعاً من أجل إعطائه الطابع الرسمي فحسب، وإلا فلم يسقط من القراء في هذه الواقعة سوى اثنين، مستدلاً بنتائج أبحاث (كتاني) حول ذلك، والذي زعم بدوره أن قتلى الإمامة كانوا من غير القراء فقد أسلموا حديثاً، كما أن مصادر الجمع كانت مكتوبة، فالنبي ﷺ كان حريصاً على تنوين الوحي.

وقد كانت هذه النسخة عملاً خاصاً وجاءت لمصلحة خاصة، بدليل توثيقها لحفصة التي إن كانت تقرأ فهي جديرة بالحصول عليها، وإلا فتحت المجال لعائشة لتقوم بدور بارز في المدينة، ولأن هذه النسخة لم تتمتع برعاية تامة تساوي نسختي أبي وابن مسعود.

ولكن ما يؤيد أن الجمع لم يتم في عهد أبي بكر أن المدة المتبقية من حكمه بعد معركة الإمامة قصيرة جداً ولا تكفي للقيام بهذه المهمة.

وعلى كل حال، فالظروف العامة هي التي أدت للقيام بالجمع وليس وقعة الإمامة.

د- شكل المجموعة الأولى ومضمونها¹

أكد نولدكه على غموض عملية تدوين القرآن الكريم بعد موت الرسول ﷺ، وذكر أن من مظاهره أن المادة كانت محفوظة على أكثر من عشرة أنواع من المواد المختلفة. ويذهب بفرق بين صحف ومصحف، فالأول غير مرتب بشكل ثابت، أما الثاني فهو مرتب كما قيل، ويصفه بأنه رأي غير مقبول.

¹ - المرجع السابق ، ص(٢٥٦-٢٥٩)

ثم يدور سائر حديثه حول معنى هذه الصحف، وحجمها، ومن أين أنت تسميتها، ليختم كلامه حول شكل هذه المجموعة بعدم القدرة على الإجابة على ما يتعلق بها من أسئلة إلا بعد دراسة نشوء النسخ الأخرى.

٤- النسخ الأخرى الشائعة قبل نسخة عثمان رضي الله عنه.

أ- شخصيات الناشرين، انتشار نسخهم وحفظها

يبتدئ هذا المبحث بترجمة سريعة لأصحاب أهم النسخ القرآنية وهم: أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، والمقداد بن عمرو، بالإضافة إلى نسخة حفصة رضي الله عنها، حيث اختار كل قطر أو بلد قراءة تناسبه.

ثم يستطرد في عرض محتوى هذه المصاحف وترتيبها حسب مصادرها في الفهرست والإتقان، مبيناً علاقة الترتيبين مع بعضهما ومع النسخة الرسمية محاولاً إبراز اختلافات كبيرة بينها، فهناك سور في المصاحف لا وجود لها في النسخة الرسمية كسورتي الخلع والحفد في مصحف أبي، وقد احتفظ بهما أبو موسى وقراها ابن عباس، ونقلهما علي إلى ابن زبير كجزء من القرآن.

وقد رفض ابن مسعود أن تكون الفاتحة والمعوذات من القرآن، ورأيه ليس اعتباطياً، فهن لا يشبهن القرآن، إذ أن الفاتحة قريبة من الصلوات اليهودية والمسيحية، كما أن للمعوذتين خلفيتين وثنتين كما يزعم.

ويشير إلى وجود أخطاء في نسخة زيد، كما أن ابن مسعود وأبي كانا أكبر منه سناً، وخدموا الرسول صلى الله عليه وسلم مدة أطول.

لكن هناك آيات فقدت من نسخة ابن مسعود بواسطة النسخ فقد روي أنه استظهر آية ودونها ثم أمسى لا يعرفها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما حدث فأجابته بأنها نسخت.

١ - المرجع السابق ، ص(٢٥٩-٢٧٩)

أما ما ضاع من مصحف أبي فقله: (لو كان لابن آدم وادبَان من ذهب)

وقوله: (إن الدين عند الله الحنيفية السمحة)

وقوله: (لا ترغبوا عن آبائكم الشيخ والشيخة)

ثم يستبعد أن تكون قرآناً لاختلاف الفاصلة ولجوانب أسلوبية ومضمونية.

أما الفصل بين السور قبل النسخة الرسمية فلم يكن معروفاً، هل هو بالبسملة، أم بترك فراغ؟

هـ النسخ القرآنية الغامضة والمشكوك في أمرها.

ويقصد بها نسختي علي وعائشة، وهو يستبعد أن يكون علي أو أحد من الصحابة قد قام بعمل علمي تاريخي في ترتيب السور حسب النزول.

٦ - نشوء نسخة القرآن الرسمية في عهد الخليفة عثمان

أ- الرواية السائدة^١

يستعرض نولدكه-هنا- البواعث التي أدت إلى جمع القرآن الكريم زمن عثمان ؓ حسب الرواية المعتمدة لدى المسلمين، فيركز على صفة المقترح لهذا الجمع بأنه قائد عسكري خشي على النص الحقيقي للقرآن من الضياع، ثم يصور الصحابة ؓ بأنهم خصوم يكيدون لبعضهم، وينتهي إلى القول بأن الرواية السائدة غير قوية لأنها تتقطع عند أنس بن مالك، فلا يمكن الركون إليها.

ب- الروايات المختلفة وقيمتها^٢

يدور محتوى الرواية المختلفة حول أعضاء اللجنة وعددهم، والإشارة أحياناً إلى تراجعهم ونقدها، فعبد الله بن عمرو النقي الغيور وضع مجموعة من الأحاديث، أما ابن عباس فقد أضيف اسمه إلى اللجنة لاعتبار خاص لا يتعلق بجدارته، وهناك عبد الرحمن بن الحارث أسقط اسمه الرواة لما لم يجدوا له دوراً حقيقياً، كما أن القرآن الكريم قد أوكل إلى جهد الناس الذين يقلدون

^١ - المرجع السابق، ص (٢٧٩-٢٨١)

^٢ - المرجع السابق، ص (٢٨٤-٢٨١)

بني إسرائيل في كل شيء حتى في اختيار عدد اللجنة، وفي إضعاف دور عثمان لصالح عمر، تماماً كما حصل في الكتاب المقدس لداود وسليمان.
أما تملك المخطوط لعائشة فهو انحياز من الخليفة واضح، لأنها كانت نسيبة الزبيريين عن طريق أختها أسماء.

ج- نقد الرواية السائدة

أ- أعضاء اللجنة¹

لا يزيد المؤلف- هنا - على وضع ترجمة سريعة لكل واحد من أعضاء اللجنة الأربعة، محاولاً في كل ما أوتي من قوة إيجاد سبب مادي يسوّغ من خلاله سر اختيار عثمان لكل منهم، وقد يكون هذا السبب قرابة أو علاقة ما من عثمان أو من الأمويين بشكل عام.

ب- النهج الذي أتبع في إنتاج النص، وأهلية أعضاء اللجنة لمهمتهم²

يستمر الكلام حول أعضاء اللجنة ويتركز على مدى أهلية زيد للعمل الموكول إليه، ثم يقارن بينه وبين ابن مسعود، الذي يعجب بعض علماء المسلمين من عدم توليه الجمع بدل زيد، وهو يضعف ما قيل بأن زيدا أعرف في القرآن من ابن مسعود والأهم في الأمر أن زيدا هو كاتب مخطوط حفصة السابق.

وفيما يتصل بالقرشيين الثلاثة، فليس هناك مسوغات واضحة لإشراكهم في عمل اللجنة، وما قيل من أن سبب اختيارهم يتعلق بمعرفتهم اللغوية فهو خطأ، فكلمة (تابوت) - مثلاً - التي كانت محل اختلافهم ليست عربية أصلاً، كما أنه ليس لدى النبي ﷺ وخلفائه أي معرفة لغوية دقيقة بحسب زعمه.

لكنه إزاء ذلك يقدم عدداً من الاحتمالات:

¹ - المرجع السابق، ص(٢٨٥-٢٨٦)

² - المرجع السابق، ص(٢٨٦-٢٩٢)

١- أن اختيار هؤلاء الوجهاء كان لرفع قدر المشروع، فليس هناك عمل فعلي ينسب إليهم، بل إن فريقاً من المحترفين قام بعمل الكتابة.

٢- أن للخليفة هدفاً خاصاً من اختياره لهم، وهو غير معلوم.

٣- هناك من يقول بأنهم لم يشتركوا في الجمع مطلقاً، وقد حصل تزوير الحقيقة مراعاة لمصالح قرشية، لكن وجود ابن الزبير بين أعضاء اللجنة يرد ذلك.

ثم يقول إن المسلمين يفضلون جمع عثمان على مجموعة زيد، لذا اخترعوا نظرية الأحرف السبعة التي هي عبارة عن اللهجات المحلية المحكية .

ويلتفت إلى الاستدلال على سقوط شيء من القرآن بما روي في شأن آية لم توجد مكتوبة في سورة الأحزاب وأخرى في سورة التوبة، وهذا ما يناقض الرواية السائدة بأن مصحف عثمان هو نسخة عن مصحف حفصة.

د- ترتيب السور في مصحف عثمان^١

يورد نولدكه هنا احتمالات ترتيب المصحف على هذا الشكل، ويستنتي ابتداءً أن يكون المضمون سبباً في الترتيب، أو حتى عدد الآيات، ثم يقع اختياره على الطول الظاهري أساساً لهذا الترتيب، مقارنةً ذلك بما في المشنا اليهودية المرتبة حسب عدد الفصول، ثم يعدّ لائحة تشتمل على ترتيب سور القرآن مع عدد آياتها، وطول كل منها مقابل ذلك بالترتيب المتناقص المثالي، ثم يخرج بنتيجة مفادها (أنه ليس هناك إلا ست سور في مكانها الصحيح) ويعزو ذلك إلى خفاء طولها على المحرر، فقد كانت مدونة في صحف مختلفة الحجم وبخط مختلف، وفي هذا السياق يرمي زيداً بالخرافة وبخضوعه لأحكام عصره المسبقة، ويتهم الصحابة أيضاً باتباع الخرافة بسبب بدائيتهم كما يزعم.

لكنه يُخرج سبب تقدم سورة الفاتحة القصيرة في أول القرآن، وعدم تأخر الكوثر الأقصر مطلقاً إلى آخر القرآن بأن الأولى صلاة فتقدمت، وبأن الثانية لم تكن أدعية كالمعوذتين لذا ختم بهما القرآن دون الكوثر.

ثم يختم هذا المبحث بالتعليق على عدد السور واختلافاتها في المصاحف المتعددة، وبأنها جاءت هكذا من قبيل الصدفة.

^١ - المرجع السابق، ص(٢٩٢-٢٩٩)

هـ- الحروف المبهمة التي تسبق بعض السور^١

يستعرض نولدكه جميع الحروف المقطعة في القرآن الكريم، ذكراً كل منها في سورها، وما بذله المسلمون وعلماء مسيحيون من جهد في شأن تفسيرها، وكله لم يرق له، فالمسلمون نحوا في هذا المجال منحيين:

الأول: بعدها مختصرات لكلمات أو جمل، بينما الثاني يذهب فيها مذاهب شتى، لا يجمعها إلا شيء واحد، وهو اتفاقهم على أنها ليست بمختصرات.

وبخصوص الأبحاث الغربية فما يستحق الالتفات منها قليل، لكن دون الوصول إلى نتائج مضمونة حولها. وبالإجمال فإن الانطباع الأظهر الذي يخرج به القارئ من ترديد الآراء وتمحيصها، إن هذه الحروف عبارة عن طلاس أو إشارات غير مفهومة.

وقد شكك نولدكه في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أن تكون فواتح السور من القرآن، وإنما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند الصحابة قبل وجود المصحف العثماني ثم تركت في مواضعها سهواً.

لكنه ما فتىء أن يرجع عن هذا الرأي في الطبعة التالية، وانتهى من دراسته لها على أنها من وضع الرسول ﷺ، الذي أراد من تضمينها في القرآن إيجاد انطباع غامض واحتمالي، فهو يعشق كل غريب غامض عما يزعم.

ولقد تشبث هـ هرشفيلد بنظرية نولدكه الأولى في شأن هذه الحروف لكن الطابع العام عنده مبني على الظنون فحسب.

يبقى هناك سؤال يتعلق بظاهرة بعد سورتي البقرة وآل عمران عن مثيلاتها الأخرى المبدوءة ب (الم)، ولكن مراعاة الترتيب حسب الطول يجيب على هذا السؤال.

١ - المرجع السابق، ص(٢٩٩-٣٠٩)

و- البسمة^١

تختلف الاختصارات السابقة عن البسمة، فالاختصارات تقتصر على عدد من السور، بينما البسمة تنقدم جميع السور باستثناء سورة واحدة وهي أحدث عهداً من الاختصارات لأنها متقدمة عليها، ولا شك أنها وجدت قبل مصحف عثمان رضي الله عنه بل أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعملها في أكثر من موطن، ولكن وقوعها في أول السورة، يوحي بأصلها التحريري، فالنبي صلى الله عليه وسلم غير مسئول عنها.

أما الدوافع التي اخترعها المسلمون في شأن عدم وجودها في أول التوبة مخترعة لا يمكن تصديقها وتبدو الحيرة على المحررين مع المغالاة في الغموض والتصنع، فالأمر أسهل من ذلك، إذ أن الصدفة، والسهو أثناء الكتابة، والتضرر الخارجي عوامل مقنعة لتسويغ تجرد التوبة من البسمة.

ز- التحريفات التي يزعم أن أبا بكر وعثمان قاما بها في النص القرآني^٢

أ- اتهامات وجهها علماء مسيحيون غربيون.

يستعرض نولدكه -هنا- شبهات وجهها مستشرقون لكل من أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما تتعلق بتحريف متعمد للقرآن.

فدي ساسي ادعى أن آية آل عمران المتعلقة بموت الرسول صلى الله عليه وسلم لفقها أبو بكر، بدليل أن عمر لم يسمع بها من قبل.

وفایل اعتمد رأي ساسي ووسعه ليشمل عدداً من المواضع، فقد زعم أن سائر المسلمين لم يسمعوا بهذه الآيات قبل حادثة موت الرسول صلى الله عليه وسلم وليس عمر فحسب.

^١ - المرجع السابق، ص (٣٠٩-٣١١)

^٢ - المرجع السابق، ص (٣١١-٣٢٢)

وقد شكك نولدكه بذلك، بأن الصحابة لم يكن في وسعهم التفكير في الآيات المذكورة بسبب لحظة الاضطراب التي فاجأتهم بموت الرسول ﷺ كما أنه يستحيل أن يرضى عمر بمناسبة مثل هذه أن يصدق آية ملفقة، عدا عن أن الآيتين في سورتي آل عمران والزمر منسجمتين تماماً مع سياقهما القرآني .

كما أنه يتوجه بالطعن في أبي هريرة ؓ فهو ليس من أقدم الصحابة، وليس لكلماته حق المصداقية، فقد خدع أكثر من مرة.

ثم يذهب إلى أن قصة موت الرسول ﷺ حكاية مفبركة عن آخرها، أصلها موجود عند أهل الكتابين، مبني على أن موت النبي ليس أمراً طبيعياً، وقد اختلقت في عهد عثمان من قبل ابن سبأ.

ومن جانب آخر فقد عجز هرشفيلد وسابقون له عن أن يسعفوا حجج فايل التي استدل من خلالها أن كل آية ذكر فيها اسم محمد موضوعة لاحقاً، لأن لفظ محمد ليس اسم علم، وهو خطأ لأنه اسم معروف لدى العرب قبل الإسلام.

وأضعف منه ما ذهب إليه- أيضاً- من أن موضع سورة الأحقاف (ووصينا الإنسان...) من وضع أبي بكر لأنه يستحيل أن يسم ابنه بسمة كهذه، فضلاً عن أن مناقبه تمنعه من عمل هكذا، عدا عن أن هناك مفسرين كالزمخشري-مثلاً- يرفضون أن تختص هذه الآية بأبي بكر ؓ.

أما اعتراض فايل حول التشكيك في صحة الآية الأولى من سورة الإسراء الذي يعتقد فيه أنها وضعت في عهد أبي بكر، لأن النبي لا يدعي لنفسه أنه مجترح عجائب بل واعظ ومنذر فهو اعتراض مشروع لو لم يكن حليماً.

لكن القرآن يتحدث عنه وكأنه حقيقة لا حلم، والحق أن فكر النبي المثار قد لامس فكر شعوب بدائية، فظن الحلم حقيقة.

وليس في الأساطير القديمة ما يشبه هذه الحادثة، إلا ما ورد عن حزقيال، يقال إن الروح أخذته ورفعته بين السماء والأرض وأتى به إلى أورشليم دون مكة. وملاحظة فايل حول عدم ارتباط الآية بما يليها ملاحظة صائبة، لكن قد تكون الفاصلة قد فقدت تتمتها.

أما اعتراضه بخصوص لفظ (ليلا) في الآية السابقة بأنه غير صحيح لغوياً، فهو اعتراض مرفوض، فقد يكون هذا اللفظ من قبيل الحشو.

كما أن انتقال الكلام من حالة الغائب إلى حالة المتكلم، أو العكس، ليس له فيه حجة، ففي القرآن مئات الأمثلة على ذلك.

وليس لدى (فايل) دليل قوي على أن عثمان حذف كل ما يناهض بني أمية، بالرغم من أن شطب أسماء مفردة وارد، فبنو أمية لم يكونوا أكثر عدا من غيرهم زمن محمد ﷺ.

وإن وافقنا على ذلك جداً لافتراضنا أن هناك أسماء كثيرة لليهود والمنافقين الذين كان النبي يكن لهم حقاً شديداً قد حذف.

كما أن محمداً ﷺ لم يركز على أسماء الأشخاص أو الأمكنة أن تذكر في القرآن ولو افترضنا شيئاً من هذا النوع، لكان النبي هو الذي قام بعملية الشطب، ولكنه لم يوجد.

وما ذكر في القرآن من أسماء يفسره وضع النص غير الجاهز الذي تركه النبي، أو حصول تسرب هوامش تفسيرية قديمة إلى النص، لأن زيدا المذكور في القرآن لا يستحق كل هذا اللطف، ولا العم الكافر يستحق كل هذا التعنيف.

أما اسم زيد فقد تسرب من جهة هامش تفسيري، لأن الإشارة إليه جاءت بواسطة لفظ الموصولية، ولا يخبذ بعدها ورود اسم الشخص المشار إليه.

وأما عبد العزى فليس هو المقصود بأبي لهب مهما كانت الرواية بهذا الخصوص واضحة.

أما محاولات فايل بخصوص اتهام عثمان بالحذف المتعمد فهي فاشلة، لأن المتهمين له عابوا عليه توحيد القراءات والنسخ، وأنه جعلها قراءة ونسخة واحدة، وهذا كله يطابق الحقيقة التاريخية.

وبالرغم من أن عثمان كان أداة مطواعة في أيدي أقاربه فقد كان تقياً مؤمناً يستحيل أن يقدم على تحريف القرآن، كما أن هناك مخطوطات كثيرة للمصحف قبل نسخة عثمان محفوظة كتابة، عدا عن الحفظ الشفوي المتقن، فلو أقدم على شيء من هذا القبيل لأثار موجة عارمة من الغضب، بالإضافة إلى أن أعداء عثمان الكثيرين ومنهم ابن مسعود لم يرموه مرة واحدة بتهمة التحريف، وغاية ما اتهم بأنه شقاق وحرّاق مصاحف. لذا فقد استقبل الناس مصحفه بسهولة ويسر دون أي إجراء قمعي مما يؤكد أنه مصحف كامل وأمين.

ب - الاتهامات التي وجهتها الفرق الإسلامية لاسيما الشيعة ضد عثمان¹

يفتح المؤلف كلامه -هنا- حول المنهج المختلف عن سابقه، فهو لا يقوم على أساس النقد التاريخي العلمي.

ويسجل -هنا- اعتراض بعض أتقياء المعتزلة على لعن خصوم محمد ﷺ، ورفض أتباع الميمونية أن تكون سورة يوسف من القرآن.

أما الشيعة فقد اتهموا أبا بكر وعثمان بالتحريف المتعمد، كما ادعوا بأن جميع المواضع التي حذفت كانت تختص بحق علي، أو بتوبيخ الصحابة، مما يعني أن النبي وبخ الصحابة على شيء لم يحصل إلا بعد وفاته، وهو عدم الاتفاق على انتخاب علي، وهذا غير معقول.

ونولده يستطرد طويلاً في تنفيذ النظرية الشيعة القائلة بحق علي بالخلافة، يمكن تلخيصها بالآتي:-

¹ - المرجع السابق، ص(٣٢٢-٣٣٦)

إن النظرية الشيعية لا سند لها في الإسلام أو في القرآن وعادات القوم، بل إنها نشأت بعد وقت طويل من موت علي عليه السلام، ولم يحصل أن استند علي إلى مواضع قرآنية بشأن ذلك مع الحاجة إليها لو وجدت، كما أن مصحف عثمان يحظى بتقديس الشيعة إلى الآن، لكنهم يعدونه حلاً مؤقتاً إلى حين ظهور القرآن الصحيح برفقة المهدي القائم.

وقد أفاد كتاب القرن الرابع الهجري أن التحريف يطال نحو خمسمئة موضع، فهناك سور كانت أطول مما هي عليه الآن كسورة النور والحجر والأحزاب، لكنه يدحض ما قيل أنه أسقط من سورة البينة أسماء سبعين رجلاً، لأن الرسول ﷺ يتجنب ذكر أي أسماء من القرآن، ولو تجرأ أبو بكر على هذا العمل، لأضاف اسمه ولو مرة واحدة.

وفي معرض تمحيصه لرواية تفيد تحريف القرآن الكريم يقرر أن الخليفتين الأولين كانا أعداء لعلي.

ثم يستعرض بعض القراءات الشيعية للقرآن مدعياً أن اطلاعه غير السديق على الأدب الشيعي حال بينه وبين استيفائه لأقدمها.

سورة النورين الشيعية

قبل أن يقوم نولدكه بعرض سورة النورين المدعاة، يقدم لها بنبذة يذكر فيها أنه لم يطلع إلا على هذه السورة مما كان الشيعة قد نسبوا حذفه لعثمان من سور القرآن الكريم، ذكراً أصلها وأول من حاز نسخة منها مرجحاً أنه كاظم بغ.

لكنه يرفض ما استدلل به كاظم بغ على عدم صحتها من خلال تكرير عبارات قرآنية لكن باختلافات يسيرة، لأن القرآن -حسب زعمه- مفعم بالإعادات.

لكنه يحبذ نقد هذه السورة من نواحي قاموسية وأسلوبية ومضمونية، فيبدأ بتحليل ألفاظها وعباراتها مقارناً إياها بما في القرآن الكريم، ليقرر أخيراً بأنه توصل إلى دليل قاطع على أنها وضع شيعي كما سبق لكاظم بغ أن اكتشفه.

ج-الإجراءات التي قامت بها السلطة لإنجاز مصحف عثمان¹

يتناول هذا المبحث معلومات حول عدد المصاحف التي بعث بها عثمان إلى الأفاق، ويميل إلى أن عددها خارج الجزيرة العربية لا يتجاوز ثلاثة، غير أن الفكر التوحيدي العقائدي كان وراء زيادة عدد هذه المصاحف ، مما تطلب شمول نسخها جميع أقطار الدولة، فالقرآن واحد في جميع الأقطار كما كان الله واحداً والنبي كذلك واحداً.

وقد يكون مصحف المدينة هو مصحف حفصة السابق.

وتناول -أيضاً- مسألة إتلاف عثمان لمخطوطات المصاحف، فذكر أنه ناشئ من نزعة تحميل الخليفة المكروه ذنب تدينس جديد، وهو مبدأ شعبي يهدف لتعظيم ذنب عثمان، علماً بأن الروايات التي تتناول إتلاف المخطوطات واضحة ومؤكدة، وهي تشي بمظهر خرافي مبالغ فيه من قبل المسلمين، وذلك حالة التعامل مع النسخ التالفة من باب تقديسها وصيانتها.

وادعى بأن أهل الكوفة لم يكونوا على علاقة طيبة بالخليفة، لكن القداماء منهم فرحوا بوصول المصحف لجديد، بالرغم من تحريض ابن مسعود الناس ضد إجراءات عثمان، لذا فقد أمر عثمان بتعذيبه جسدياً.

أما ما اعتقده علماء مسيحيون من أن مصحف عثمان فرض بالقوة فغير مستساغ، ذلك أن إتلاف النسخ لا يؤدي لهذا، لأن القرآن محفوظ غيباً في صدور القراء، لكن يمكن فرض الصيغة الجديدة تدريجياً من خلال جيل جديد، فالملحوظ -كما يجري في الشرق المحمدية اليوم - أن الحافظ لقراءة ما لا يستطيع تعلم غيرها.

وبالرغم من أن ثلاثي الصيغ القديمة ذات القيمة الكبيرة قد خدم وحدة الدين المحمدي، إلا أنه خسارة فادحة لمحاولات التعرف على كيفية نشوء كتاب المسلمين المقدس.

٧- القرآن المحمدي في علاقته بالكتاب المقدس المسيحية- اليهودية¹

¹ - المرجع السابق، ص(٣٣٦- ٣٤٢)

يجري نولدكه مقارنة ضمن أوجه محددة بين كل من اليهودية والمسيحية والإسلام، فاليهودية تطورت تدريجياً عبر مراحل متعددة على أيدي عدد من المؤسسين، أما المسيحية فقد أسسها شخص واحد ليس هو يسوع، وليس لها كتاب مقدس سوى كتب المجمع اليهودي الذي انبثقت منها.

وعكس ذلك تماماً نشأ الكتاب المحمدي، حيث ألفه شخص واحد ولم ينجز إلا بعد سنتين أو ثلاثة من وفاة محمد، أثناء خلافة أبي بكر أو عمر، حيث اقتصر العمل في هذه المرحلة على ترتيب السور وجمع الآيات التي يجوز لنا أن نثق بأن نصفها نقل آنذاك.

إذن كل هذه الكتب من صنع الإنسان، إلا أن محمداً توهم أن كتابه من الله، فتحمس لهذا الوهم وصدقه هو وأتباعه.

وبالرغم من أن تصورات محمد التاريخية حول اليهودية والمسيحية كانت غريبة، إذ توهم أنها وحي من الله - أيضاً - ولكنها محرفة، على الرغم من هذا فإنه مطلع جيد على مضامينهما، لذا يندر أن توجد فكرة في القرآن ليست مأخوذة عنهما، فقد انبثق عالم محمد كله الفكري والأخلاقي منهما، وهي نظرية قد تتغير لو كانت قد وصلتنا آثار القرون المسيحية الأولى بشكل أفضل.

ملحق المصادر المحمدية والأبحاث المسيحية الحديثة حول أصل الآيات والسور ونشوء كتاب القرآن.

مهمة البحث¹

يتناول البحث -هنا- المصادر العربية المستعملة في الجزأين الأول والثاني من هذا الكتاب، وقد استعان نولدكه في مجال الحديث الشرعي بأبحاث (جولدنسيهر) العميقة، أما بخصوص السيرة، فهناك دراسات قام بها كل من (سخاو) و(بروكلمان) و(كتاني) لكن تبقى آثار كثيرة لم يُكشف عن مصادرها، لكنه لم يرد أن يتحول هذا الملحق إلى سجل غث بالأسماء

¹ - المرجع السابق، ص(٣٤٢-٣٤٣)

² - المرجع السابق، ص(٣٤٥-٣٤٦)

والعناوين، وسيخصص ربع هذا الملحق للأبحاث المسيحية الحديثة برافقه تقييم موضوعي مجرد ليتمكن الباحث غير المتخصص في العلوم العربية من الاستفادة من هذه المصادر.

١- المصادر المحمدية أ- معالم النقل الأساسية^١

يحتوي هذا المبحث على نقد لسلسلة الإسناد لدى العرب، فيورد مثلاً بين فيه سلسلة الشهود في الرواية التي يعول عليها أهل الحديث، وغالباً ما تكون سلسلة الإسناد ناقصة بسبب قواعد معتمدة في التأليف، فمن معالم الإسناد المميزة عدم التفريق بين الشفوي والخطي، كما أن النقاة لا علاقة بالمصادر المكتوبة، وهي أكثر أمانة من الحفظ لأنه يمكن ضبطها في كل حين.

لذا كم مرة أخطأ الشهود وكان الإسناد سبباً لاختلاف روايات طبعت بخاتم الموثوقية لأنها جاءت من قبل المحدثين؟ وكثيراً ما تذكر روايات تنتمي للجيل اللاحق من الصحابة، بينما يندر أن تنتمي للأقدمين كعمر، وذلك بسبب انشغالهم بالأحداث، ولم يعترض المسلمون إلا على اثنين من المتأخرين، أنس بن مالك وأبي هريرة، بسبب تدني طبقتهم الاجتماعية، فقد كانا خادمين، وفي الوقت نفسه هناك أحاديث سخيصة وغير صادقة قبلت لأنها تعود لشهود نقات .

أما أخبار بداية محمد وطفولته فلا يوثق بها، وحتى الفترة المكية لم يستيقظ الاهتمام بما جرى فيها إلا لاحقاً، علماً بأنه طراً على الآثار تعديلات منحاظة من قبل أشخاص بارزين لأسباب شخصية أو سياسية أو عقائدية، ولأن الدوافع يصعب اكتشافها سريعاً، فقد احتج للكشف عما حل بسيرة الرسول من تحريفات عقود كثيرة، وسبق أن تطور الشعر الجاهلي، وإلا لكان القرآن بلغة سريانية أو أثيوبية، ولقد تسربت الرواية للحديث عن طريق رواية الشعر الذي كان نموذجاً لها.

^١ - المرجع السابق، ص(٣٤٦-٣٥١)

إن الكتابة التاريخية التي سادت عند العرب هي نثر القصص القديم الذي كان تفسيراً للأشعار، ولم يصل إليهم ما عرفه مؤرخو الرومان من أدب.

وبشكل عام فقد أرجع البعض الإسناد إلى أصل يهودي، ولم يكتمل البرهان على هذه النظرية بعد.

ب- سيرة النبي¹

يستعرض نولدكه هنا أعمال من كتبوا في سيرة النبي ﷺ، فذكر أن أول اهتمام بها بدأ بالمغازي، إذ ألفت فيها كل من أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، وغيرهما، ولم يصلنا من أعمالهم إلا ما حفظ عند اللاحقين.

أول عمل وصل إلينا بهذا الخصوص: كتاب ابن إسحاق في السيرة، نُقل بواسطة ابن هشام الذي تصرف فيه كثيراً، عكس مخطوط ابن سيد الناس حيث قدم النص كاملاً.

وعلى الرغم من اعتماد اللاحقين على كتاب ابن إسحاق، فقد اتهم من المسلمين بأنه مزور وكذاب.

لكن تظهر أهمية ابن إسحاق من خلال تأليفه أقدم كتاب مغازي ورد إلينا، حيث نقل إلينا وثائق مبكرة تجاهلها المتأخرون تماماً بسبب أحكام عقائدية مسبقة، وتبرز أهميته -أيضاً- في وفرة الأخبار الجديدة، والأشعار الصحيحة.

ويأتي بعد ابن إسحاق عمل الواقدي الذي اقتصر فيه على المغازي، لكنه وصل إلينا عن طريق مراجعة ابن حيويه، وفيه العديد من المواضيع المختصرة من كتاب ابن إسحاق على الرغم من أنه لم يوثقه البتة.

¹ - المرجع السابق، ص (٣٥١-٣٦٥)

لكن يَتميز كتاب الواقدي في الجمع الكامل للمادة، على الرغم من أن أغلب الجديد عنده عبارة عن خرافات وطرائف.

ثم يعرف بعمل ابن سعد في السيرة موازنا بينه وبين ابن إسحاق من حيث الحجم والموضوعات، علما بأن مصدر ابن سعد في المغازي هو شيخه الواقدي الذي هو بدوره كان يخفي اعتماده على ابن إسحاق تماما.

وتكمن قيمة كتاب المعارف للعالم الفارسي الأصل ابن فتيبة الدينوري فيما تضمنه من فصول تخص ملحوظات مهمة عن صحابة النبي ﷺ.

أما تاريخ اليعقوبي فتظهر أهميته كعمل مبكر وحيد وجيد. وهناك إشارات إلى النبي ﷺ في كتاب فتوح البلدان للبلاذري، الذي تميز بضبط سلسلة الشهود.

وقد خص الطبري في الجزء الأول من تاريخه فترة ما قبل محمد كما رواها ابن إسحاق، إذ يعد إعادة لنتاج ابن إسحاق. وبشكل عام فقيمته تكمن في جلب مادة جديدة مرفقة بروايات دقيقة يفيد منها المؤرخون، ولكن لا يظهر قريحة تاريخية متميزة.

ولم يأت المسعودي بجديد فيما يخص سيرة الرسول ﷺ، لكنه ميز فترة ولاية علي باهتمام كبير.

وعلى الرغم مما حققه ابن الأثير من تقدم ملحوظ في كتابه (الكامل) إلا أنه يفقد القيمة المستقلة سوى ما يتصل بما تناوله الخلفاء الأوائل وبما تعلق بنسختي أبي بكر وعثمان اللتين فقدنا عند الكتاب الأوائل.

ج- الحديث الشرعي^١

وهو الذي يسجل أعمال الرسول ﷺ وأقواله، وهو أكثر فائدة من السيرة، حتى إنه يذكر أسراراً حساسة كالاتصال الجنسي وقضاء الحاجة، ويختلف عن السيرة في الترتيب، إذ يرتب موضوعياً لا زمنياً.

وبحسب جولد تسيهر فإن جميع صراعات الأحزاب العقائدية والفقهية والسياسية في الحياة الإسلامية قد ترسبت في الحديث الشرعي، بواسطة أنصار المذاهب اللاهوتيين، فقبلها الرأي العام، ولم يستطع النقد الإسلامي الذي عالج الشكل وترك المضمون إصلاح هذا الخلل، لذا فكل حديث شرعي يخضع لشبهة الوضع.

د- أدب الحديث^٢

يتناول نولدكه هنا المصنفات الحديثية بالتعريف، ويذكر ما يكرره باستمرار أن النقد الإسلامي نقد شكلي ومتخلف، فابن حنبل في المسند يتمادى بذكر أحاديث تشبه الفكاهة، يمدح بها السفاح ويتبأ بفتح الهند.

ويمتاز الترتيب المسندي بالصعوبة البالغة، مما ساعد على ظهور المصنفات التي لا تخلو هي الأخرى من العيوب، إذ أن التحسينات التي أضافها البخاري إلى صحيحه تقوم على الشكليات، فالذي أثبتته من كومة الأحاديث ليس بأفضل مما حذفه.

أما قيمة صحيح مسلم في موضوعنا فهي قليلة، وذلك لقلة الفصول التاريخية فيه، حتى بدا فصل تفسير القرآن وكأنه عمل غير منجز.

^١ - المرجع السابق، ص(٣٦٥-٣٦٧).

^٢ - المرجع السابق، ص(٣٦٧-٣٧٣).

ويمنح الترمذي الأحاديث التي استعان بها تقريراً خاصاً، وهو يتبع النقد الإسلامي المعتمد على الشكل، مما أتاح المجال لأكثر الأحاديث الموضوعية وقاحة، لتكون بالدرجة الأعلى.

وليس هناك قيمة لكتابه الشرائع، وأخباره مشكوك فيها. أما كتاب التبريزي مشكاة المصابيح فكان القصد منه أن يستعمل لتعليم غير المتخصصين، أي للتسلية، ومادته مناسبة لهذا الغرض. وفيما يخص موطأ مالك فلا يستحق منه الذكر إلا حين الحاجة إلى توضيح حديث، وكان يستعين بالأحاديث، لكنه لا يقيم لها كبير وزن.

هـ - سيرة صحابة محمد¹

تختص هذه القطعة بالأعمال التي تناولت الصحابة رضي الله عنهم بالترجمة، فتعرف بها بأسلوب نقدي شامل، منها: كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) للعالم الإسباني ابن عبد البر، وأشمل منه كتاب ابن الأثير (أسد الغابة) استند فيه إلى كتاب ابن عبد البر، وثلاثة آخرين كلهم من مواليد بلاد فارس.

ولا يمكن الانتفاع بكتاب الذهبي (تجريد أسماء الصحابة) بسبب إجازته الشديد إلا باعتباره سجلاً للعمل الذي استعمله المؤلف. وأشمل المجموعات كلها كتاب ابن حجر (الإصابة في تمييز الصحابة).

و- طبيعة التفسير الإسلامي للقرآن²

يقوم نولدكه هنا بتقسيم الأحاديث التي استدل بها المفسرون إلى مجموعتين:

١. ما يربط الآيات بأحداث عامة تربط سورة الأنفال ببدر وآل عمران بأحد .

¹ - المرجع السابق، ص(٣٧٣-٣٧٦)

² - المرجع السابق، ص(٣٧٦-٣٨٣)

٢. ما يربط الآيات بأحداث خاصة، حيث ينهال فيها بالطعن في رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار ، وتعتمد كلتا المجموعتين على الأحاديث و التلميحات القرآنية، مع أن أكثر روايات أصل القرآن مربية للغاية عدا ذلك فإن التفسير يجمع بين الأحاديث المتناقضة في أسباب النزول.

وهناك أشخاص كثيرون نزل بهم وحي خاص سوى من عرضوا كأنماط معينة كاللصومية و العجب و الشك.

ويتعرض لأخطاء التفسير الإسلامي ، إذ يتركز هذا الخطأ كثيراً في أسباب النزول، ومنها:

١. تصبح الأحداث التي قرئت الآية في وقتها سببا لنزولها.

٢. أدى عدم مراعاة دلالة الألفاظ من المفسرين إلى إغفال المعنى الصحيح.

٣. أدى الجهل بالمصادر الإسرائيلية إلى تفاسير سقيمة.

٤. أخطر الأخطاء و أغربها محاولة المفسرين رد كل آية لحدث معين، فلا يمكن مثلا جعل معاملة الرسول ﷺ لابن أم مكتوم خلفية لسورة عبس.

٥. يقرر أن أغلب المفسرين إما عبيد أو معتقون، أدخلوا للأحاديث أسماء مناسبة أو صنعوا أحاديث لمصلحة مواليهم .

يقوم بتقسيم الأحاديث إلى: حديث تفسيري وهو ما تعلق بسبب النزول، وحديث السيرة وهو ما تعلق بأحداث اتصلت بحياة الرسول ﷺ، وحديث شرعي ويقصد به أقوال الرسول ﷺ و أفعاله وتقاريره .

ويتعرض لترجمة ابن عباس لكنه يصوره وبعض الصحابة بالسوء والتعنصر والمكر والوصولية وقلة العلم ، ثم يترجم لتلاميذه ليخرج بنتيجة أن النقد الإسلامي يقوم على التحيز الشخصي والتبعية .

ثم يستعرض عدداً من التفاسير يعرف بها ويلقي عليها الضوء كلها باختصار، وهو خلال ذلك لا يسلم من الأخطاء والأغلاط العلمية الفادحة، فمثلا الطبري لم يلتفت في تفسيره إلى القراءات القرآنية ، كما أن التفاسير المتأخرة لا تحتوي أي مواد جديدة. ويستعرض تفسير الشيعة، وبعض الأعمال الخاصة بأسباب النزول ومداخل القرآن والشواهد الشعرية في التراجم والتفسير.

ثم يستعرض بعض جهود البحث المسيحي الحديث، وذلك ضمن هذه الموضوعات:

١. نقد الروايات.

٢. سير النبي المسيحية.

٣. دراسات منفردة في التاريخ والتفسير.

والمؤلف في كل ذلك يلقي الضوء في هذا الملحق على كل هذه الجهود بأسلوب يخالف الموضوعية والحيادية أحيانا.

وبالجملة فإنه يمكن اعتبار أفكار نولدكه حول جمع القرآن الكريم منعطفا بارزا في سياق البحث الاستشراقي، لكن ما أثاره حول كثير من هذه الموضوعات لا يدعو أن يكون ادعاءً لا يقوم على دليل، كقوله بتحريف القرآن الكريم، ثم بدا فيما بعد مدافعا عنه، مما جعل وجود التناقض بين السلب والإيجاب في الموضوع، وكثرة التردد في الأمر، والاضطراب في الرأي والفكرة، وعدم وضوح الرؤية لدى المؤلف، جعل كل ذلك سمات ثابتة وانطباعات أكيدة لكتابه، ويبدو أنه قد تراجع عن آرائه شيئا ما كما سبق التتويه به عند الحديث عن منهج المؤلف^١.

^١ - ينظر: المطلب الرابع من المبحث الثالث من الفصل الأول في هذه الدراسة.

ويتعرض لترجمة ابن عباس لكنه يصوره وبعض الصحابة بالسوء والتعنصر والمكر والوصولية وقلة العلم ، ثم يترجم لتلاميذه ليخرج بنتيجة أن النقد الإسلامي يقوم على التحيز الشخصي والتبعية .

ثم يستعرض عدداً من التفاسير يعرف بها ويلقي عليها الضوء كلها باختصار، وهو خلال ذلك لا يسلم من الأخطاء والأغلاط العلمية الفادحة، فمثلا الطبري لم يلتفت في تفسيره إلى القراءات القرآنية ، كما أن التفاسير المتأخرة لا تحتوي أي مواد جديدة. ويستعرض تفسير الشيعة، وبعض الأعمال الخاصة بأسباب النزول ومداخل القرآن والشواهد الشعرية في التراجم والتفسير.

ثم يستعرض بعض جهود البحث المسيحي الحديث، وذلك ضمن هذه الموضوعات:

١. نقد الروايات.

٢. سير النبي المسيحية.

٣. دراسات منفردة في التاريخ والتفسير.

والمؤلف في كل ذلك يلقي الضوء في هذا الملحق على كل هذه الجهود بأسلوب يخالف الموضوعية والحيادية أحيانا.

وبالجملة فإنه يمكن اعتبار أفكار نولدكه حول جمع القرآن الكريم منعطفا بارزا في سياق البحث الاستشراقي، لكن ما أثاره حول كثير من هذه الموضوعات لا يعدو أن يكون ادعاء لا يقوم على دليل، كقوله بتحريف القرآن الكريم، ثم بدا فيما بعد مدافعا عنه، مما جعل وجود التناقض بين السلب والإيجاب في الموضوع، وكثرة التردد في الأمر، والاضطراب في الرأي والفكرة، وعدم وضوح الرؤية لدى المؤلف، جعل كل ذلك سمات ثابتة وانطباعات أكيدة لكتابه، ويبدو أنه قد تراجع عن آرائه شيئا ما كما سبق التنويه به عند الحديث عن منهج المؤلف^١.

^١ - ينظر: المطلب الرابع من المبحث الثالث من الفصل الأول في هذه الدراسة.

فهرس الآيات الواردة بالأطروحة

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
١	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾	الحجر	٩	١
٢	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُورٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١﴾ ﴾	الفرقان	٤	١
٣	﴿ وَقَالُوا أَسْطِيزِرُ الْأَوْلِيَاءِ أَكْتَبَتْهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَسِيبًا ﴿٥﴾ ﴾	الفرقان	٥	١
٤	﴿ وَإِنَّا نُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مَائِدَاتِنَا يَنْتَضِبْنَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ بُعْدَ مَا بَأْسَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾	سبا	٤٣	١
٥	﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٥﴾ ﴾	القيامة	١٧	١٥
٦	﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَضِبْنَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾	العنكبوت	٤٩	١٦
٧	﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ ﴾	طه	٢-١	١٧
٨	﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴾	ق	١	١٧
٩	﴿ وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾	القمر	١٧	١٨
١٠	﴿ أَتَرَأَى إِنْ سَأَلْتَهُ رَبِّكَ أَلَيْهِ خَلَقَ ﴾	العلق	١	١٩

١٩	١٦ -	القيامة	﴿ لَا تَحْرُجْ بِهِ، لِسَأَلِكَ لِتَعَجَلَ بِهِ ۝ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَرَوَاهُ اللَّهُ ﴾	١١
	١٨			
٢١	٩	الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾	١٢
٢٢	٢٣	الأحزاب	﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾	١٣
٢٧	٤٢	فصلت	﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	١٤
٢٦	١	البقرة	﴿ التَّوْحِيدُ ۝ ﴾	١٥
٢٧	٥	الفرقان	﴿ وَقَالُوا اسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ اسْتَنْبَهَا فِيهِ تَمَلَّنَ عَلَيْهِ بِكُفْرَةٍ وَأَمْسِيلاً ۝ ﴾	١٦
٧٥	١٤	المؤمنون	﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾	١٧
٧٧	٩	الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾	١٨
٧٧	١٥	يونس	﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي بِغَيْرِ إِذْنٍ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُرْسِلُ إِلَيَّ لِيُؤْتِيَ لِقَاءَ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ۝ ﴾	١٩
٧٧	٦-٤	الفرقان	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْتُمْ وَأَنتُمْ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوعُونَ فَقَدْ جَاءَهُمْ ظُلْمًا وَرُؤُوسًا ۝ وَقَالُوا اسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ اسْتَنْبَهَا فِيهِ تَمَلَّنَ عَلَيْهِ بِكُفْرَةٍ وَأَمْسِيلاً ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ إِلَهِیْ بِعِلْمِ الْبُتْرِ فِي السَّمَكِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَقُورًا رَّجِيمًا ﴾	٢٠
٧٨	٧-١	عبس	﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ بُرْهَانٌ ۝ أَوْ يَكْفُرُ فَتَنَمَّهُ الذِّكْرَ ۝ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَىٰ ۝ فَأَنْتَ لَهُ صَدِّقٌ ۝ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بُرْهَانٌ ﴾	٢١

٢٢	﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لِهَذَا حَقٌّ يَسْبِيحُ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكٰذِبِينَ ﴾	التوبة	٤٣	٧٨
٢٣	﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ﴾	التوبة	١١٣	٧٨
٢٤	﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾	الأنفال	٦٨	٧٨
٢٥	﴿ وَيَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾	الأحزاب	٣٧	٧٨
٢٦	﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا مَعْزُ الْأَمْوَالِ ﴿٥٥﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْقِينَ ﴿٥٧﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ لَّدُونَهُ أَحْسَبِينَ ﴾	الحاقة	٤٤- ٤٨	٧٨
٢٧	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْئٌ ﴾	الأنعام	٩٣	٨١
٢٨	﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ ﴾	النساء	٩٥	٨٣
٢٩	﴿ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ ﴾	النساء	٩٥	٨٣
٣٠	﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْهُ قُرْآنَهُ ﴿٥٨﴾ ﴾	القيامة	١٨	٨٣
٣١	﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾	المائدة	٦٧	٨٣
٣٢	﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾	النساء	٨٢	٨٣

- ٨٦ ١٤٤ آل عمران ٣٣ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا
وَمَسْجُورًا لِلَّهِ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾
- ٨٦ ٦٤ المائدة ٣٤ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِئْسُوا بِمِثْلِهِ
مَسْئُومِينَ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِزِيدَكُمْ كَيْدًا مِمَّنْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
طَائِفَاتٌ ذُرُوعًا وَكُفْرًا وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْمَدِينَةُ وَالْبُقْعَةُ إِلَى يَوْمِ الْعِلْمَةِ كُلَّمَا
أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَاها اللَّهُ وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُجِيبُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
- ٨٨ ١٠٦ البقرة ٣٥ ﴿ مَا تَسْخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ قَبْلُ
أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾
- ٨٩ ٢٢ الأنبياء ٣٦ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
- ٨٩ ٦٥ الزمر ٣٧ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾
- ٩٠ ٨٦ الإسراء ٣٨ ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا
وَكَيْلًا ﴿٨٦﴾
- ٩٠ ٦٥ الزمر ٣٩ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿٦٥﴾
- ٩٢ ٧٩ البقرة ٤٠ ﴿ قَوْلِ الَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلِ
لَهُمْ مِمَّا يُكْتَبُونَ ﴿٧٩﴾

٩٣ - ١٢٨	التوبة	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾	٤١
٩٣ ٦٥	النساء	﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾	٤٢
٩٣ ٩٥	النساء	﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾	٤٣
٩٣ - ١٨ ١٩	الأعلى	﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾	٤٤
٩٧ ٩	الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿٩﴾ ﴾	٤٥
١٠٧ ٢٦	يوسف	﴿ وَشَهِدَ شَاهِدًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾	٤٦
١١٢ ١	الفرقان	﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾	٤٧
١٢٧ ١٢٨	التوبة	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴾	٤٨
١٢٨ ٢٣	الأحزاب	﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَلَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ ﴾	٤٩
١٤٦ ٢٣٤	البقرة	﴿ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنكُم مَّن بَدَّوْا أَرْوَاحَهُمْ ﴾	٥٠
١٥٦ ١	الإنسان	﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾	٥١
١٥٦ ١	فصلت	﴿ حَمَّ ﴾	٥٢
١٥٦ ١	ص	﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾	٥٣
١٥٧ ١	البقرة	﴿ آتَى ﴾	٥٤

١٥٧	١	ص	{ ص }	٥٥
١٥٧	٢٦	فصلت	{ لَا تَسْمَعُوا لِكُلِّ الْفَرِيقِ وَالْمَوَافِقِ لِكُلِّ قَوْمٍ } ٥٦	٥٦
١٥٧	١	مريم	{ كَيْبَعَصَ }	٥٧
١٥٩	١	البقرة	{ آت }	٥٨
١٧٤	١٣	الحجرات	{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى }	٥٩
١٧٧	٥-١	المدثر	{ بِأَيِّهَا الْمَدْيَنُ ١ قُرْآنِيذ ٢ وَرَبِّكَ فَكَيْز ٣ وَبَابَهُ فَطِير ٤ وَالرُّجُزُ فَاعْبُر ٥ }	٦٠
١٧٨	٥٩	الزخرف	{ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٨ }	٦١
١٨٧	١٥	الأحقاف	{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُخِثُ بِكَ إِلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥٥ }	٦٢
١٨٩	١٧	الأحقاف	{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ١٧ } :	٦٣
١٩٠	١٠٢	الصافات	{ إِنَّ أَرَىٰ فِي السَّمَاءِ آيَةً أَذَّبَكَ ١٣ }	٦٤
١٩١	١	الإسراء	{ مُبَحَّنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِسَبْدِهِ }	٦٥
١٩٢	١	الإسراء	{ مُبَحَّنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِسَبْدِهِ }	٦٦
١٩٣	١	الإسراء	{ مُبَحَّنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِسَبْدِهِ }	٦٧
١٩٣	١	هود	{ الرَّكْنُ أَهْكَمْتَ بِنْتَهُ ثُمَّ هَوَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ١ }	٦٨

٢٠٣	٢-١	الشورى	﴿ حَمْدٌ مَّا وَسَّوَّقَ ۝١ ﴾	٦٩
٢٠٥	٣٨	الشورى	﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾	٧٠
٢٠٦	٥٤	النساء	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴾	٧١
٢٠٦	١	المسد	﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾	٧٠
٢٠٧	٩	الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴾	٧٢
٢١٤	١٥	الإسراء	﴿ وَلَا نَزْدُ وَازِدًا وَنَزْدُ أُخْرَىٰ ﴾	٧٣
٢١٥	٤٣	النجم	﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾	٧٤
٢١٥	١٥	الإسراء	﴿ وَلَا نَزْدُ وَازِدًا وَنَزْدُ أُخْرَىٰ ﴾	٧٥
٢١٨	٤	إبراهيم	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ﴾	٧٦
٢١٩	٢٨	الزمر	﴿ قَدْ أَنَا عَرَبِيٌّ عَبْرِيٌّ عَوَجَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾	٧٧
٢٢٧	٣٨	الشورى	﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾	٧٨
٢٣٩	٩	الحجر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ۝١ ﴾	٧٩

فهرس المصطلحات الواردة في الجزء الثاني من كتاب تاريخ القرآن لنولدكه:

الثيوقراطية^(١): مشتقة من الكلمة اليونانية Theokratia وتعني حكم الله، ونظام الحكم الثيوقراطي هو نظام الحكم الذي يعتبر أن الله هو السلطة السياسية العليا.

السامية^(٢): السامية هي صفة عرقية تطلق على عدد من الشعوب التي سكنت مناطق بلاد الرافدين والشام وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وتتسحب هذه الصفة على كل من العبرانيين والسومريين والآراميين والسريان والكنعانيين والكلدانيين والآراميين والأنباط والعرب، ويقال إن هذه الشعوب انحدرت من نسل "سام ابن نوح". وتتحدث هذه الشعوب اللغات السامية التي انحدرت من أصل واحد وهي اللغات: الأمهرية والعربية والآرامية والأكدية والآشورية والسريانية وغيرها.

الفيلولوجية^(٣): طريقة تعنى بدراسة الآداب القديمة ولغاتها دراسة تاريخية نقدية تعتمد على التدقيق في النصوص والتحقيق فيها، والمقارنة بين المصطلحات والعبارات، وتاريخ تطورها، والتغيرات التي طرأت عليها عبر العصور

اللاهوتيون^(٤): كلمة (لاهوت) أتت من كلمتين يونانيتين يعنيا (الله والكلمة). وبمزجها تأتي كلمة "لاهوت" وهي تعني: دراسة علم الله.

وعلم اللاهوت هو: علم دراسة الإلهيات دراسة منطقية، وقد اعتمد علماء اللاهوت المسيحيون على التحليل العقلاني من أجل:

- فهم المسيحية بشكل أوضح، ولكي يقارنوا بينها وبين الشرائع أو التقاليد الأخرى.
 - الدفاع عن المسيحية في مواجهة النقد.
 - تسهيل الإصلاح المسيحي، وللمساعدة بنشر المسيحية، ولأسباب أخرى متنوعة.
- ليتورجيا^(٥): الليتورجية هي أي خدمة يقصد بها الصلوات الاجتماعية بكل أنواعها، ولكن استقر الرأي على إطلاق هذا الاصطلاح على القداس الإلهي تحديداً.

^١ - تاريخ القرآن، ص ٢٧٩

^٢ - تاريخ القرآن، ص ٣٠٢

^٣ - تاريخ القرآن، ص ٢٨٨

^٤ - تاريخ القرآن، ص ٣٦٦.

^٥ - تاريخ القرآن، ص ٢٦٧

المسيحي^(١): المسميا بالعبرية معناها المسيح، وفي الغيمان اليهودي معناها إنسان مثالي من نسل الملك داود، ومبشر بنهاية التاريخ ويخلص الشعب اليهودي من ويلاتته، وهي تشير إلى من تم مسحه بزيت الزيتون دلالة على تكريسه كاهناً أو ملكاً^(٢).

الميمونية^(٣): هم أصحاب ميمون بن عمران قالوا: بالقدر، فنكون الاستطاعة قبل الفعل، وإن الله يريد الخير دون الشر وأطفال الكفار في الجنة، ويروى عنهم تجويز نكاح البنات للبنين، وأنكروا سورة يوسف^(٤).

الناموس^(٥): الناموس في اليونانية هو نوموس (Namos) وهو القانون أو الشريعة، ومعناها في العبرية: التي تفيد معنى التوجيه أو الإرشاد أو التعليم . وترد الكلمة في العبرية ٢١٦ مرة في العهد القديم، و ١٩٥ مرة في العهد الجديد^(٦).

١- تاريخ القرآن، ص ٣١٣ و ٣٤٢.

٢ - المسياني مأخوذة من موسوعة الـ WIKIPEDIA.

٣ - تاريخ القرآن، ص ٣٢٢ و ٢٣٨

٤ - الجرجاني؛ علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ - ١٩٨٣، ص ٢٣٨.

٥ - تاريخ القرآن، ص ٣٤٢

٦ - ينظر هذه التعريفات في: دائرة الموسوعة الكتابية، بإشراف نخبة من أشهر أساتذة الكتاب المقدس واللاهوت، مرتبة حسب الأحرف الأبجدية والموضوعات، جمعه في كتاب الكتروني: مجاهد في الله، موقع المسيحية في الميزان. وقاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، هيئة التحرير: بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمس، إبراهيم مطر. ومعجم أسماء الكتاب المقدس، مكرم مشرفي، مكتبة الأخوة - شبرا - مصر، ط ١ - ٢٠٠٠م، ٢٤٢ صفحة. ودليل عربي يوناني لألفاظ العهد الجديد، صنفه الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق - بيروت، ط ١ - ١٩٩٣، ٩٥٢ صفحة. والفهرس العربي لكلمات العهد الجديد اليونانية، صنفه القس غسان خلف، دار النشر المعمدانية - بيروت - لبنان، ١٩٧٩م، ١٠٢١ صفحة.

ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية

**The Compilation of the Holly Quran by the
German Orientalist Noldekes in the
Book (History of the Quran)
Presentation and Criticism**

By

Mohammed Mahmoud Alswa'deh

Supervised by

Prof. Abdallah Marhool Assawalmeh

Prof. Mohammad Khazer Almajali

2010

Abstract

The present study aims at bringing out topics on Quran compilation in the book (History of the Holly Quran) by the German writer "Noldeke" and assessing these compilation in a scientific and objective study which explains its characteristics and aims. The thesis is divided into the following:

The introduction, four chapters and the conclusion.

The study defines the concept of Quran compilation in Muslims view and also shed light on all negative effect done by orientalist.

The importance of the study lies in the role of the writes (Noldekes) on the German school and how the Germanian orientalist are distinguished in this filed among other schools and how they coincide in motivations, aims and strategies.

The Study is concerned with the following:

1. The writer's attitude concerning the Holly Quran compilation in the period of the Prophet Mohammad (Peace be with him) and in the period of his companions Abi Bakr

and Othman Bin Affan (may Allah's blessing be with them).

2. His attitude concerning the compilation of the Holy Quran and arrangement of quranic suras and ayas, front letters of some suras, narrations of quran compilation, assumption of text distortion and describing it as fable and myth. The study presents all the forgery of this writer which I attempted to frustrate them.
3. The effect of Noldeke on those orientalist and westernized who came after him in this field.
4. Through the study, I found that this writer (Noldeke), does not deserve this position because of his forgery and falsification of the documents.

Finally, the study ends with conclusions and recommendations for further studies.